



يونيو 2016

413

اليوم السابع

رواية

تأليف: يو هوا

ترجمة: أ. د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه

اليـوم السابع
رواية صينيـة طويلة



第七天

余华 著

新星出版社

年 2013

© The KNOPF DOUBLE DAY GROUP, 2014

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م

إبداعات عالمية - العدد 413

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

اليوم السابع



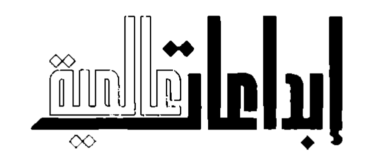
اليوم السابع

رواية صينية طويلة

تـــألـــيـــف: يـو هـوا

تـــرجـــمـــة: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مـــراجـــعـــة: لي جيه



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. ليلى عثمان فضل

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل العنزي

د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-502-0

مقدمة الكاتب الصيني المعاصر «يوهوا»

وروائعته.. رواية «اليوم السابع»

لم تعد شخصية يوهوا الكاتب الصيني الكبير غريبة على القارئ العربي، فقد ظهرت ترجمات لبعض أعماله الروائية، وسعدنا بالإسهام في هذا الميدان، فقدمنا ترجمة الدرة الخالدة «على قيد الحياة» التي ظهرت مطبوعة في سلسلة «إبداعات عالمية» في دولة الكويت العدد (405)، وقدّمنا لها بدراسة تناولنا فيها حياة يوهوا بالوصف الموجز، وفنّه بالدراسة والنقد، ونحب أن يكون حديثنا عن رواية «اليوم السابع» مرتبطًا بالحديث الذي قدمنا به الرواية الرائعة «على قيد الحياة».

لا مِراء في أن نرى أنَّ مِن الأوفق البدء بقولنا: إن آثار كاتبنا الأدبية وأعماله الروائية جمعت بين الحياة الإنسانية بوجه عام والحياة الصينية بوجه خاص، فهو الكاتب المجيد - كما يقول الأديب محمد حسين هيكل - خير حياة وأكفلها ببقاء الذكر.

ولعل هذا أفضل مدخل لأدب هذا الكاتب العظيم الذي يعيش زاهدًا ومتبتلا في محراب الإنسانية في كل ساعة من ساعات النهار من سَدَفَةِ السَّحَرِ إلى روس الأصيل، وما دام الكاتب الفنان قد رزق البصيرة الفنية فإنها ستنفذ من خلال غواشي بيئته وعصره إلى الحقائق الساطعة الخالدة. وأعماله تجعلنا نشعر بأن البشر لا حيلة لهم ولا قدرة أمام سطوة الأقدار، وإدبار الحظ، ووقوع المكاره، وأنها ترينا كيف تهوى العظمة من عليائها، وتنهار القوة، وتصوع زهرة الجمال، ويعتريها الذبول، ويعصف الموت بكل أسباب الحياة.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كاتبنا الذواقة يُعد أثرًا جليلاً من آثار الأدب المعاصر في الصين وخارجها، ويشهد على ذلك قدرته الفائقة على وصف أطوار النفوس وقراءة القلوب، وكل صورة من صوره لها جوها الخاص ومعالمها البارزة وقصتها المتفردة، فهو لا يُجري القلم على القرطاس إلا بعد أن يكون قد استكمل صورة الفكرة التي سيبديها، ووضحت معالمها وأبعادها، وهو يؤمن بها في طوايا نفسه، ويكشف مكنونات الحياة، ويوضح أسرارها، ناهيك عن الغوص في دنيا الممات وكشف الصعاب وتذليلها، ومعالجة العُقد المؤرية والمشكلات المستعصية.

وفي وسع الكاتب إذا شاء وصحت عزيمته أن يكون القائد الذي يسير بالناس ويتقدمهم إلى أرض الميعاد، وينقلهم إلى عالم خير من هذا العالم الراهن. ولا مندوحة أن يقول كاتبنا: «عندما أصف آلام الصين، فأنا أصف آلامي أيضًا، وذلك لأن آلام الصين هي آلامي وأوجاعي أيضًا»، مصدِّقًا مقولة الشاعر الإنجليزي شيلي: «إن أعذب ألحاننا وأحلى أغانينا هي تلك الألحان والأغاني التي نعبّر بها عن عميق حزننا وبالغ أسانا».

وكاتبنا المنطيق أجمع عزمه على ألا يُطيع غير وحي شيطانه، فأعلن أنه اختار لنفسه مهنة الأدب وإن تكن غير مضمونة ولا مأمونة، فهو يحاول التنفيس عن نفسه، والتشاغل عما يَرِينُ على صدره، ويأخذ بكظمه من شعور بإهمال الإنسان فى عصره، فهو يعيش متمردًا على مفردات الواقع الاجتماعي في زمنه، ولعل ذلك ما جعله يحطم قيوداً وأصفاداً، بل ويتحرر من ربقة «رواية الطلائع» التي تمجّد وتبجّل الأسلوب الثوري. إنه التحرر من الولع المفرط بالموضوع الرئيس من العنف والموت،

والانطلاق من واقع الحياة الحقيقية في الصين، ووصف حياة العامة والدهماء والفلتاء من الأفراح والأتراح، والآلام والأوجاع والأحزان، بالإضافة إلى أن الاهتمام بحياة الإنسان ما زال يمثل لُبّ كتاباته وأعماله وجوهرها إيمانًا منه بقيمة الوجود الإنساني ومغزاه وأهميته.

ويلج قلم أديبنا آفاقاً جديدة أملاها الواقع الجديد في الصين في أعقاب سياسة الإصلاح والانفتاح على العالم الخارجي، والرواية التي بين أيدينا كتبها خلال رحلته التعيسة والفظة في مسار الجحيم الأرضي وجحيم الآخرة، إنها رواية «الآلام» و«الأوجاع»، وتندرج في أدب «عذابات الإنسان»، إنها «الآلام» التي تحاصر العصر قاطبة، و«الأوجاع» التي تئنُّ من وطأتها النماذج البشرية كافة في المجتمع الصيني بأسره.

وفي عبارة أخرى، إنها الرواية التي جسّدت سخط كاتبنا على الحياة، فقد كان - ولا يزال - ناقمًا على العصر وأبنائه، مضطغنا على الزمن وصروفه، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحد من الكتّاب الصينيين المعاصرين، ويحتفر لنفسه مسيلاً، فقد تعلّم أن يخترق الصخور أو يعلوها، وزهد في اللين الدمث الذي لا يشقّ عليه أن ينساب فيه.

رواية «اليوم السابع» هي حلقة متصلة من حلقات وصف عذابات الإنسان في العصر، وذلك كما جاءت في أعماله السابقة، والسياق الاجتماعي الذي وقعت فيه أحداث الرواية في عالم ينكره الكاتب إنكارًا ذاتيًا، وفي هذا العالم لم يعد القدر المحرك الأول للحياة. إن الأوضاع الفاجعة التعيسة الناجمة عن الحقيقة المزرية قد أصبحت علامة ودلالة على الوجود

التجريدي الثابت في هذا العصر، أمّا الموت فهو عبارة عن مجرد شكل آخر من أشكال التغيير في حقيقة الوجود.

الرواية تصور مآسي الحياة التي تصقل نفوسنا، وتشد عزمنا، وتشحذ قدرتنا على النضال وتقوّي استعدادنا لملاقاة الخطوب، ودفع الكوارث، فهي بمثابة التطعيم الذي يُكسب الجسم مناعة ترد غائلة المرض، ويقضي على جراثيم الداء.

الرواية تستخدم الارتجاع الفني في إيراد الأحداث الماضية، وتستخدم الضمير «أنا» في السرد الروائي، وتسرد قصة رجل عادي؛ بطل الرواية (يانغ فيي)، الذي يحكي كل ما رآه وسمعه في سبعة أيام بعد وفاته. وفي الوقت نفسه، يقتحم الكاتب ذاكرة البطل الذي يُفشي كل مكنونات صدره وعذابه وشقائه في حياته، ففي اليوم الأول من مماته، يتوجه إلى «مؤسسة الخدمات الجنائزية»، وعلى كل حال، ما زال يعاني ويتعذب من المعاملة الفظة التي تصيبه بالحزن والألم الشديدين، ولا يجرؤ على أن يحرق جسده، لأنه يفتقر إلى قبر يواري جثته، ويستطيع فقط التجوال والطواف والتشرد، ويمشي الهوينى في «أرض الأموات الذين لم يدفنوا». وبعد انقضاء سبعة أيام، يقابل بصورة مستمرة بشرًا من كافة الأصناف والأطياف يتجولون ويطوفون حول تلك الأرض، كما يتذكر ويستعرض الأحداث الماضية والمؤلمة في حياته، منذ أن كان «طفلا يحبو في قماطه» إلى أن شب عن الطوق، إلى أن رحل عن هذه الدنيا.

كانت ولادة بطل الرواية (يانغ فيي) في دورة مياه قطار، ويسقط منها على قضبان السكة الحديدية، وينقذ حياته أبوه (يانغ جين بياو) الذي تبناه وقام على رعايته وتربيته وتجشّم

المصاعب والمتاعب حتى كبر وترعرع، وبعد حب عميق ربطه بالفتاة (لي تشينغ) تزوجها وأصبحت زوجته، ثم ما لبث أن طلقها بعد أن أدارت ظهرها له ووقعت في حبائل عشق شاب آخر. ويجري دولاب الزمن سريعًا، ويتمكن يانغ فيي من الوصول إلى أبويه اللذين ينحدر من صلبهما ودمهما، ويبقى معهما فترة أقصر من عمر الزهور، ويفقد معهما الانسجام والوئام، ولا يشعر بالسعادة البتة، ثم سرعان ما يعود أدراجه ويرتمي فى أحضان زوجة والده بالتبني وتُدعى (لي يو جين) وهي الأم الظِئر (المرضعة لغير ولدها) التي منحته كل أسباب الراحة والرعاية والحب والحنان فى مشوار حياته الطويل حتى أصبح قادرًا على مواصلة الحياة، ولكن المصائب والكوارث تحاصر «يانغ فيي» من كل جانب، ويسقط أبوه في غوائل مرض عضال ويصبح مشردًا بلا مأوى، ويلقى حتفه في حريق اندلع في مطعم..

وفي الوقت نفسه، يحكي ويسرد بطل الرواية كل ما رآه وسمعه في «أرض الأموات الذين لم يُدفنوا»، حيث يقابل كثرة كاثرة من الغرباء من كافة النماذج البشرية الذين يئنُّون من وطأة الأحزان والآلام والمشاعر الكئيبة والأحاسيس الحزينة مثل الفتاة (شوميي) التي تنتحر بعد أن خدعها صديقها واشترى لها هاتفًا خلويًا مغشوشًا، كما أن صديقها ويُدعى (وو تشاو) يبيع كليته من أجل أن يشتري قبرًا لصديقته، ثم يلقى حتفه بعد أن أصابه التلوث من جراء العملية الجراحية لاستئصال كليته.

ومن الجليّ أن الهيكل الروائي واضح، وتتشابك فيه خطوط الماضي والحاضر، والإيقاع اللغوي الروائي والسرد الروائي

يتسـمان بالترتيـب والتنسـيق الهائـل. ويسـتخدم كاتبنا وجهة النظـر التـي تقترب بلا حـدود من الحقيقة لوصـف الخيال في العالـم الواقعـي، وتحقيـق إنقاذ الحيـاة في الفراغ المجسّـم بين الحيـاة والموت، ويحـاول من خـلال السـرد الروائـي الضخم، أن يصـف ويجسّـد الآلام والأوضاع في كافة مناحـي الحياة، ويقيم عالمًـا من الكمال والجمال ليخفف من حدة الهجوم على الحياة من جانب الشـعور بالشـقاء والعذاب الناجم عن فواجع ومآسي المجتمع المعاصر في الصين.

ولعل من نافلة القول، أننا نشـعر بالعطف نحو كاتبنا ونحنو عليـه لأنه يفتح لنا مغاليق قلبه، ويُفضي إلينا بدخائل نفسـه، ناهيـك عن الحـزن الولّاج الـذي تنضح به حـروف قلمه عندما يميط اللثام ويكشـف عـن مظاهر الحيـاة الاجتماعية من الأرز المسـموم، وخُبز البخار (المانتو) المسـموم، ولبن الأطفال المصنوع مـن بروتين الحيوانـات، والمعكرونة المصنوعـة من الجبس، وجبن فـول الصويـا مـن البـراز، وزيت الطعام المسـتخرج مـن أحواض بمواسـير الصرف الصحي، بالإضافة إلى تجسيد ملامح الحياة الاجتماعيـة الأخـرى التـي ينـدى لهـا الجبـين، وتُقطّـع نياط القلـوب، وتُصيبنـا بالخزي والعـار بعد تردّي الضمير الإنسـاني فـي الصـين إلى أدنـى مـدارج التقدم الإنسـاني والحضـارة عبر تاريخ البشرية جمعاء، ومن ثم، أحداث المسرحية - على نحو من الأنحـاء - لا تسـير فـي أرض ميثاء وطريق ممهد، بل تسـير في طريق وعر بين ارتفاع وصبب وحافل بالصخور المركومة.

و ما يسـترعي الأنظار، ويملأ الأسـماع، ويبقى ذكره مع الأيام مقولـة كاتبنـا التي جـاء فيها أن: «مهمـة الكاتب ليسـت إظهار

الاستياء والامتعاض، ولا الاستهجان والاستنكار، أو التعرية وكشف النقاب، بل يتعين على الكاتب أن يبرز للعيان المُثل العليا والنبل والشهامة». ولا غرو أننا عندما نطالع صفحات الرواية ونلتقي بالأموات الذين لم يُدفنوا في العالم الآخر، سنحظى بسويعات تسمو فيها نفوسنا، ويصقل وجداننا، وقد يطوف طائف من الحزن، وتطفر الدموع من عيوننا، ولكننا مع ذلك نشعر بتسامي عواطفنا، وتحليق عقولنا، وصفاء خواطرنا، وكأننا قد نُقلنا إلى عالم آخر أكثر عدالة، وأكثر طهارة، وأكثر إثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول.

وعلى هذا النحو، قد أكمل كاتبنا الدائرة بين الحياة والموت، وحقق أقسى وأقصى ما يصبو إليه من تقدير الحقائق، وتحرى الوقائع، ودراسة المشكلات الاجتماعية التي تتحدى الصين في العصر الحاضر، والكاتب الحق هو من يزود قرَّاءه بقوى تدفعهم إلى الأمام، ويستنهض هممهم، ويوقظ ضمائرهم، فهو شديد الإحساس، لطَاف الشعور، دقَّاق الإدراك، وهي السمات التي أفردته بين الكتّاب المعاصرين إفراد الطائر الصدَّاح في غير سربه.

وزبدة القول: إن توهج قلم كاتبنا في سناه الباهر في سعيه نحو الكمال الإنساني لم يدّخر وسعًا في اجتثاث جذور الفساد من كافة مناحي الحياة الاجتماعية في الصين، وتشذيب النفوس من كل شائبة وضغينة، أو بالأحرى كما قال شاعر فرنسا العظيم بودلير (1821 - 1867): «سأقصف عود هذه الشجرة البغيضة حتى لا تطلع براعمها المريضة».

د. عبدالعزيز حمدي

ديسمبر 2015

اليوم الأول

عندما كان الضباب الكثيف ينتشر في كافة الأصقاع، أدلف إلى الخارج بحثًا عن تأجير منزل، وأترجل في مدينة خاوية على عروشها وتشهد الفوضى الأزلية، والمكان الذي أقصده يسمى مؤسسة الخدمات الجنائزية، وذلك اسمه الحالي، وكان اسمه محرقة الجثث في الماضي. وتسلمت إشعارًا يطلب مني التوجه بسرعة إلى تلك المؤسسة قبل الساعة التاسعة صباحًا، حيث إن ميقات حرق جسدي قد تقرر في تمام الساعة التاسعة ونصف الساعة.

وشهدت ليلة أمس البارحة دوي أصوات أحدثت هديرًا يحطم البيوت، وتتوالى الأصوات المدوية تباعًا حتى تساوت بالأرض المباني المتداعية الآيلة للسقوط، ولم أنم جيدًا وسط دوي تلك الأصوات بلا انقطاع، والتي تلاشت بصورة فجائية عندما فتحت باب الغرفة بعد انبلاج بياض النهار، وكأن فتح الباب قد أغلق مفتاح الأصوات التي تخلق دويًا. وبعد ذلك، رأيت قصاصة ورق ملصوقة على الباب تخبرني بأن أغشى مؤسسة الخدمات الجنائزية لحرق جسدي، وكلمات تلك القُصاصة مبهمة وغامضة بعد أن بللها الضباب، ناهيك عن قصاصتين أخريين ملصوقتين منذ عشرة أيام ونيف تُخبراني أيضًا بدفع فاتورة الكهرباء وفاتورة المياه.

كان الضبـــاب الكثيف يطمر معالم هذه المدينة عندما عرجت في الخـــارج، تلك المدينة التي فقدت ملامـــح النهار والليل، كما فقـــدت مظاهـــر البكور والمســـاء، أتقدم نحـــو محطة حافلات المواصلات العامة، ويتراءى أمامي شبح بعض الأفراد في طرفة عـــين، كما تندثر تلك الأشـــباح في رمشـــة عـــين أيضًا. قطعت شوطًا من الطريق مترجلاً بحذر شديد، ثم لافتة محطة تعترض طريقي كأنهـــا انبثقت من باطن الأرض على حين غُرة، وتذكرت أن اللافتة يجب أن تشـــتمل على بعض أرقام الحافلات العامة، وإذا كان الرقم (203) موجودًا، فإذن يجب أن أستقل حافلة ذلك الطريق. ولـــم أر بوضوح أرقام تلك اللافتة، ورفعت يدي اليُمنى ومســـحتها جيدًا، بيد أنني ما زلت لا أرى بوضوح. وفركت عيني ويبدو أننـــي رأيت الرقم (203) على اللافتـــة، وأدركت أن هذا المكان هنا هو محطة الحافلات العامة. بدت مشاعر غريبة على ملامحي، حيث إن عيني اليُمنى ما زالت في مكانها الأصلي، أمَّا العين اليُسرى فتحركت إلى عظمة الخد. وتتواصل تلك المشاعر، فأحسست -فيما يبدو - بأن هناك شيئًا ما بجوار أنفي، وأسفل ذقني أيضًا، مددت يدي أتحسس، فأكتشفت أن هناك أنفًا بجوار أنفي، وذقنًا أسفل ذقني أيضًا، وأنهما يتحركان على وجهي.

يغص الضباب الكثيف بالأشـــباح والظلال، وسمعت أصوات الحيـــاة الحقيقية ترتفع تـــارة، وتنخفض تارة أُخـــرى مثل المياة المضطربة. أقف هنا بعيدًا عن أرض الواقع انتظارًا لقدوم الحافلة رقم (203)، وســـمعت أصوات تصادم العديد من المركبات تدوّي وتترامـــى إلى مســـامعي تباعًا، ولم أرَ ثمة شـــيئًا حيث الضباب الكثيف يبلل عيوني، وســـمعت فقط أصواتًا تدوِّي وتحتشد حول

حادث سير، وسـمعت صوت عربة ركّاب تجري وسط الضباب، وتلامس كتفي وتخترق أصوات الحيـاة من حولنا، وتتفجر تلك الأصوات في لحظة مثل غليان الماء.

دام وقوفـي طويلا في محطة الحافلات، واسـتمر انتظاري طويلا أيضًا، وبعد فترة وجيزة، جال بخاطري أن حادث السـير الذي وقع في بقعة كبيرة هنا يعوق قدوم الحافلة (203)، ويجب أن أتوجه إلى المحطة القادمة.

أتقدم إلى الأمام، وعيوني المبللة تشاهد رقع الثلج التي عندما تخترق الضباب الكثيف تباعًا تزهو بنفسها وينطلق منها العديد من الأضواء الساطعة فجأة، وتهوي على وجهي، وأشعر بالدفء يغمـر وجهي كله، وأتسـمر في مكاني، وأحتضن رأسـي وأُلقي نظرة فاحصة على رقع الثلج كيف تتسـاقط على جسمي، وتبدو ملابسي وسط رقع الثلج أكثر وضوحًا رويدًا رويدًا.

أدركت نفسـي أن ذلك يُعتبر يومًا مهمًـا، إنَّه يوم رحيلي عن هذه الدنيا، ولكن جسـدي لم يغسَّل، ولم يتشح بالكفن، وما زلت أرتـدي الملابس العادية يكسـوها من الخـارج المعطف القديم الفضفـاض المحشـو بالقطن، وأترجل نحو مؤسسـة الخدمات الجنائزية، وشـعرت بالخجل والحياء لتهوري وطيشـي، ثم أدوِّر جسمي وأرجع إلى محطة الحافلات.

تتمتع هـذه المدينة بالأضواء السـاطعة بفضل كـرات الثلج المتطايـر المتسـاقطة، ويبدو أن الضباب الكثيـف يندثر بصورة بطيئة، وأرى في مشـيتي بصورة غير جلية السـيارات والمشـاة الذين يذرعون الشارع جيئة وذهابا، وأرجع إلى محطة الحافلات التـي كنـت غادرتها تـوًا، ويظهر أمامي مشـهد فوضوي حيث

عشـــرون ســـيارة ونيف تُغلق الشـــارع في هرج ومرج، بالإضافة إلى ســـيارة الشرطة والإســـعاف، وهناك بعض الأفراد يُمدَّدون على الأرض، والبعض الآخر يُجرجرونهم من داخل عربة الركاب المحطمة، فضلاً عـــن بعض الأفراد الذين يئنـــون أنينًا، وهناك أيضًا أشخاص يبكون بحرقة، وآخرون يتسمرون في مكانهم ولا ينبسون ببنت شفة. كان ذلك مشهد وقوع حادث السير، وتوقفت قليلاً، ورأيت هذه المرة بجلاء لافتة الحافلة رقم (203)، وعبرت الشارع إلى هناك.

ورجعت أدراجي إلى المنزل الذي استأجرته، وخلعت ملابسي التي لا تتســـجم مع حالتي، ومشـــيت بقدمين عاريتين إلى جوار حوض الماء، وضغطت على صنبور المياه، وتتلقى راحة كفي الماء، وعندمـــا كنت أنظف جســـمي وجدت به بعـــض الجروح، وبعض الجروح المشـــقوقة بالغبار والأتربة، كمـــا يوجد داخلها الحصى المتكسرة والأشواك الخشبية، ونقبت ذلك كله بكل حذر وانتباه.

فـــي هذه الأثناء، يدوي رنـــين الهاتف الخلوي على مقربة من الوســـادة فوق الفراش، وشـــعرت بالاســـتغراب لأنه معطل منذ شهرين بســـبب دين مكالمات ســـابقة، والآن يدوي رنينه بصورة فجائية. وتناولت الهاتف الخلوي وضغطت على الزر لاســـتقبال المكالمة وأصغي إلى السماعة، وسمعت صوتًا خافتًا:

«آلو».

وسمعت صوتًا ينبثق من السمَّاعة: «أأنت يانغ فيي؟».

«نعم».

«نحن مؤسسة الخدمات الجنائزية، أين أنت؟».

«أنا في المنزل».

«ماذا تفعل في المنزل؟».

«أقوم بتنظيف جسمي».

«الساعة توشك أن تدق التاسعة، وأنت ما زلت تغسل جسدك! أليس كذلك؟».

أقول مرتبكًا: «أحضر إليكم في التو».

«تعال بسرعة، وأحضر معك رقم ميقات حرق جسدك».

«وأين ذلك الرقم؟».

«ملصق على بابك».

الطرف الآخر يغلق الهاتف، وأشعر بالانقباض، أيوجد استعجال أيضًا في حرق أجساد الموتى؟ وأضع الهاتف، أستمر في تنظيف جروح جسدي. أحضرت سلطانية، وبعد أن جمعت فيها الماء، أشطف الحصى المتكسرة والأشواك الخشبية داخل الجروح الباقية، وأقوم بتسريع وتيرة التنظيف.

وبعد أن فرغت من تنظيف جسدي، أعرج على دولاب الملابس وجسمي مبلل بالماء، وأفتح بابه وأبحث عن كفني، ولم أجده في الداخل، وعثرت فقط على ثياب النوم من الحرير الأبيض وهو ما يشبه الكفن، ومطبوعة عليه رسومات غير واضحة، ومطرز على الصدر بالخيط الأحمر كلمتان «لي تشينغ» بهتت ألوانهما، وذلك من الأثر الباقي من زواجي القصير. كانت زوجتي «لي تشينغ» وقتئذ في متجر واختارت بعناية فائقة اثنين من ثياب النوم مشقوقين من الأمام حسب التقليد الصيني، وطرزت على صدر ثيابها اسمي، وحذت حذوها وطرزت اسمها على صدر ثيابي. وبعد ذلك الزواج القصير لم أرتد أبدًا ذاك ثياب النوم، والآن أرتديه، وشعرت

بـــأن ثياب النـــوم الحريرية من اللون الأبيـــض تمنحني بعض الدفء مثل كرات الثلج البيضاء.

أفتح الباب وأفحص بدقة إشعار مؤسسة الخدمات الجنائزية الملصوق على الباب، ومكتوب أعلاه الرقم (A3)، وأظن أنه رقم ميقات حرق جســـدي، ونزعت هذا الإشـــعار، وبعـــد أن طويته وضعته في ثياب النوم بكل انتباه.

عندما كنت أســـتعد لمغادرة المنزل، شعرت بأنني نسيت شيئًا ما، ووقفت أفكر لحظة وســـط كرات الثلج المتساقطة، وتذكرت أنني نســـيت قطعة القماش الســـوداء، أنا بلا أنيس ولا جليس، وأفتقر إلى إنســـان يعبّر عن التعازي بوفاتي، وأستطيع فقط أنّ ذاتي تعزي نفسي.

أرجع إلى منزلي الذي اســـتأجرته، وأبحث عن قماش أســـود فـــي دولاب الملابس، بحثت طويلا، ولم أجده، وعثرت فقط على ملبس داخلي أســـود، ولكن لونه يميل إلـــى الرمادي بعد أن بات قديمًا باليًا. وليس أمامي خيار سوى أن أقص كُمّه وأطوّقه حول الكُمّ الأبيض لذراعي الأيسر. وشعرت بالرضى التام على الرغم من أن ملابس تعزية نفسي تشوبها شائبة.

يدوّي رنين الهاتف الخلوي مرة أُخرى.

«أأنت يانغ فيي؟».

«نعم».

ينبعـــث من الهاتف صـــوت يقول: «نحن مؤسســـة الخدمات الجنائزية». ثم يسأل: «أتبغي أن تحرق جسدك أم لا؟».

أتردد بعض الشيء، ثم أقول: «أريد حرق جسدي».

«يكون ذلك في الساعة التاسعة ونصف الساعة، ولا تتأخر».

أسأل بحذر شديد: «هل حرق أجساد الموتى يعرف التأخير أيضًا؟».

«إذا كنت تبغي حرق جسدك، يجب عليك الحضور بسرعة».

* * *

قاعة الانتظار في مؤسسة الخدمات الجنائزية واسعة وفسيحة الأرجاء، والضباب الكثيف في الخارج يتلاشى تدريجيًا، وفي الداخل القاعة معبأة ببخار الضباب، وبضعة مصابيح جدارية تشبه الشموع في مكان ينأى عنا بمسافة كبيرة، تشع أضواء لامعة بيضاء تتشابه مع لون كرات الثلج أيضًا، ولا أعرف السبب الذي يجعلني أشعر بالدفء عندما أرى اللون الأبيض.

تصطف أرتال من الكراسي البلاستيكية المثبتة بالمشاجب الحديدية في أديم الأرض في الجانب الأيمن لقاعة الانتظار الكبيرة، أما في الجانب الأيسر فتوجد الآرائك، حيث الآرائك المريحة تطوق المكان وتشكل عدة دوائر يتوسطها بضع طاولات للشاي فوقها زهور بلاستيكية ويجلس فوق تلك الكراسي في هذا الجانب كُثر من منتظري حرق أجسادهم، أمَّا في ذلك الجانب حيث الآرائك فيجلس فقط خمسة من هؤلاء المنتظرين، ويضعون ساقًا على ساق في راحة تامة، وهم نموذج من ذوي المآثر والنجاحات والشُهرة. أما الجالسون على الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب، فيُصلح كل واحد هندامه ويجلس بوقار.

وعندما دلفت إلى الداخل، استقبلني رجل يرتدي أسمالاً زرقاء بالية، وفي يديه قفازان مهترئان، وجسمه نحيف مثل العود، وشعرت بأن وجهه عبارة عن هيكل عظمي، وخال من الجلد واللحم.

يقــول بصوت خفيض بعـــد أن رأى تغيـــرات ملامح وجهي: «حضرتك جئت إلينا».

و سألته: «أليست هذه محرقة أجساد الموتى؟».

يجيـــب قائـــلاً: «الآن لا نقـــول المحرقة، الآن نقول مؤسســـة الخدمات الجنائزية».

وأدركـــت أنني تكلمت خطـــأ على غرار الدخـــول إلى فندق وتسأل: «أليست هذه دار ضيافة؟».

وسمعت صوته المتعب المدكوك ينبعث من مكان قصيّ، وأدركت أنه ليس الرجل الذي اتصل بي هاتفيًا، وأخبرني بأنه «مؤسســـة الخدمات الجنائزية». قدّمت اعتذاري لتأخري عن الموعد المقرر، فطأطأ رأســـه برفق، وواساني قائلا: «إن أناسًا كُثراً قد تأخروا اليوم»، وإن ميقات حرق جســـدي قد تجاوز الوقت المحدد وبات لاغيًا، ويتقدم إلى ماكينة سحب الأرقام بجوار المدخل، ويسحب رقمًا، ثم يسلمني قصاصة الورق.

تراجـــع ميقـــات دوري من الرقم (A3) إلـــى الرقم (A64)، وفي أعلى الرقم الأخير توضيح مفاده أن هناك أربعة وخمســـين ينتظرون دورهم قبلي.

سألته: «هل من الممكن حرق جسدي اليوم؟».

يجيب: «توجد أرقام خاوية ليست قليلة كل يوم».

ويشـــير بيده اليمنى التي تلبس القفـــاز الأبيض المهترئ، إلى الكرســـي البلاســـتيكي في هذا الجانب، ويعنـــي ذلك أنه يطلب منـــي الانتظار هناك، وتحلق عيني في الآرائك في ذلك الجانب، ويلفت انتباهي أن تلك الأرائك هي منطقة ضيوف الشـــرف، أما مكانتي فتنتمي إلى منطقـــة العوام في هذا الجانب حيث توجد

الكراسي البلاستيكية، وعندما أخذت الرقم (A64) وتقدمت نحو تلك الكراسي هنا، سمعته يناجي نفسه ويرسل زفرة قائلا: «رجل مسكين آخر، جاء بلا تجميل».

أجلس على الكرسي البلاستيكي والرجل الذي يرتدي الملابس الزرقاء يخطو خطوات واسعة في الممر الفاصل بين منطقة ضيوف الشرف المنتظرين حرق أجسادهم، ونظرائهم في منطقة العوام، وكأنه مستغرق في تفكير عميق، ووقع خطواته يشبه الطرقات على الباب، ويستقبل المتأخرين الذين يدلفون إلى الداخل بصورة مستمرة، ويقول: «جاء حضرتك»، ويسحب رقمًا جديدًا لكل واحد، ثم يمد يده ويشير إليه ويطلب منه الجلوس على الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب. ويصطحب ضيف شرف جاء متأخرًا إلى منطقة الأرائك في ذاك الجانب.

منتظرو حرق أجسادهم في هذا الجانب فوق الكراسي البلاستيكية يتجاذبون أطراف الحديث بصوت خفيض، كما يتحدث نظراؤهم في منطقة الأرائك والبالغ عددهم ستة. والصوت في منطقة ضيوف الشرف كان مدويًا ومجلجلا ويشبه صوت المغنّين فوق خشبة المسرح، أمَّا أحاديثنا في هذا الجانب فهي مجرد مصاحبة حوض العازفين في أسفل خشبة المسرح.

دارت أحاديث منطقة ضيوف الشرف حول الأكفان وعلب الرفات، ويرتدون الأكفان من حرير قز في غاية الدقة اليدوية، ويطرزون فوقها الرسومات الزاهية، ويتحدثون بصورة عابرة عن أثمان الأكفان؛ ويبلغ ثمن أكفان ضيوف الشرف الستة المنتظرين حرق أجسادهم أكثر من عشرين ألف يوان. ألقيت عليهم نظرة فاحصة ورأيتهم يرتدون ملابس تشبه شخصيات القصر.

بعـــد ذلك، تحدث كل واحد منهم عن علبـــة الرفات الخاصة به وجــودة مادتها المصنوعة من الأوراق العريضة لخشـــب الصندل والمنقوشـــة فوقها رســـومات في غاية الدقة والجمال وأسعارها أكثر من ســـتين ألف يوان، وأســـماء علب رفات ضيوف الشرف الســـتة تتســـم بالروعة والفخامة أيضًا على النحو التالي: قصر خشب الصندل، قصر الكركي، قصر التنين، قصر العنقاء، قصر وحيد القرن الصيني، المقبرة الغربية لخشب الصندل.

ونحن في منطقة العوام نتحدث أيضًا عن الأكفان وعلب الرفات، وقد ذكر الجالســـون فوق الكراسي البلاستيكية هنا أن أكفانهم من الحريـــر الاصطناعي مضافًا إليه بعض القطـــن الطبيعي، وتتراوح أسعارها في نطاق الألف يوان، ومادة علبة الرفات ليست من خشب الســـرو، بل من خشـــب الموبيليا، وفوقها نقوش، وأغلـــى علبة يُقدَّر ثمنها بثمانمئة يـــوان، وأرخصها بمئتي يوان. وهناك أســـلوب آخر في تســـمية علب الرفات في هـــذا الجانب على هذا النحو: الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها، وخلّف وراءه سمعة مدى الدهر.

وبينمـــا كان الجالســـون فوق الأرائك يتحدثـــون عن أكفانهم وعلب الرفات ذات الأثمان الغالية الباهظة، كان الجلســـاء على الكراسي البلاستيكية يقارنون الأسعار الأرخص والجودة العالية، وعرفـــت من خلال الحديث الدائر بين اثنين من هؤلاء المنتظرين ويجلســـان في الصف الأمامي أنهما اشتريا كفنيهما المتشابهين من نفس دكان الأكفان، ولكن أحدهما أغلى من الآخر بخمســـين يوانـــاً صينياً، ويُصعِّـــد ذلك الرجل الذي اشـــترى الكفن الغالي الزفرات، ويتمتم قائلاً:

«زوجتي لا تجيد المساومة».

لفت انتباهي أن المنتظرين حرق أجسادهم الجالسين فوق الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب يتشحون بالأكفان، حيث يتشح بعضهم بالأكفان التقليدية على غرار أسرتَي مينغ وتشينغ (هما من الأسر التي حكمت الصين من 1368 - 1911)، وبعضهم يرتدي بذلة صينية أو الكفن الحديث من البذلة الغربية. أما أنا فألبس ثياب النوم القديم البالي المشقوق من الأمام على الطراز الصيني، ومن حسن حظي عندما غادرت المنزل، أدركت أن المعطف الفضفاض المحشو بالقطن ليس مناسبًا لحالتي وبدّلته بثياب النوم الأبيض، وعلى الرغم من أن منظري عُرضة للسخرية، بيد أنني أندس في الكرسي البلاستيكي وأستطيع تكملة العدد هنا.

وعلى كل حال، ليس عندي علبة الرفات، بل حتى أفتقر إلى التسمية المتواضعة من: الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها، وخلّف وراءه سمعة مدى الدهر. وبدأت أشعر بالقلق، أين يجب نثر رماد عظامي؟ هل يُنثر في البحر العظيم الواسع؟ من المستحيل، إنه المكان الذي يُنثر فيه رماد عظام العظماء، وطائرة خاصة تنقل سفينة حراسة حربية، وتمخر عباب مياه البحر في خضم البكاء المرير للأسرة والأتباع. رماد عظامي يُرمى من غرفة المحرقة وتتلقفها المكنسة وجاروف الكناسة، وبعد ذلك يُلقى في برميل الزبالة.

يلتفت رجل عجوز يجلس بجواري ويُحدق في وجهي، ويسألني في دهشة: «لم تنظف جسدك، ولم تقم بالتجميل، أليس كذلك؟».

أجيب قائلا: «نظفت جسدي، غسلت جسدي بنفسي».

يقــول الرجل العجــوز: «وجهك، مُقلة العين اليســرى بارزة، والأنف مائل جانبًا، والذقن طويلة هكذا».

تذكرت أنني نســيت وجهي عندما نظفت جسمي، وأقول في خجل: «لم أقم بالتجميل».

يقــول الرجل العجوز: «أســرتك لا تكترث بــك، لم تضطلع بتجميلك، كما لم تضع لك الماكياج».

أعيــش وحيدًا في الحياة والأب صاحــب الفضل في تربيتي يُدعى (يانغ جين بياو) ورحل عن دنيانا بلا اســتئذان إثر إصابته بمرض عضَال، أما والدي الحقيقي ووالدتي الحقيقية فيقيمان في مدينة نائية في الشــمال تبعد عن هنا حوالي خمسمئة كيلو متر، وهما لا يعرفان أنني في هذه اللحظة أنتقل إلى عالم آخر.

وســمعت امرأة تجلــس على مقربة مني فــي الجانب الآخر الحــوار الذي دار بيننــا، وألقت نظرة فاحصة على ملابســي، وقالت: «كيف يكون كفنك شبيهاً بثياب النوم؟».

أقول: «ما أرتديه هو كفني».

لم تفهم تلكَ السيدة، وتسأل: «أهذا هو كفنك؟».

يقول الرجل العجوز: «الكفن هو الكفن، والكفن يغتبط عندما يسمع أنه يصعد إلى أعلى».

وتفحصــتُ ملامح وجهيهمــا بانتباه حيث يزخــران بالمكياج الكثيف، ويرتديان الملابس الزاهية كأنهما يصعدان خشبة المسرح للتمثيل، وليس أنهما يذهبان إلى غرفة محرقة أجساد الموتى.

أحدالمنتظرين لحرق جسده قابع فوق كرسي بلاستيكي يتذمر بالشــكوى إلى الرجل المتشح بالملابس الزرقاء، ويقول: «انتظرت وقتًا طويلا، ولم أسمع صوتًا ينادي رقمي».

يقول ذاك الرجل: «تُقام الآن مراسم الوداع الأخير لجثمان عمدة المدينة، حرقنا ثلاث جثث في الصباح الباكر، ثم توقفنا عن العمل انتظارًا لدخول جثة العمدة غرفة المحرقة، وبعد خروجها يمكن أن يأتي دوركم».

يسأل ذاك المنتظر: «لماذا ننتظر حتى يتم حرق جثة عمدة المدينة، ثم تُحرق أجسادنا؟».

«لا أعرف ذلك».

ويسأل منتظر آخر قائلاً: «كم عدد محرقات أجساد الموتى لديكم؟».

«اثنتان، إحداهما مستوردة من الخارج، والأُخرى صُنعت في الصين. المستوردة من أجل خدمة ضيوف الشرف، والمحرقة المصنوعة في الصين من أجل خدمة حضراتكم».

«هل عمدة المدينة من ضيوف الشرف؟».

«نعم».

«هل عمدة المدينة يحتاج إلى المحرقتين في حرق جسده؟».

«عمدة المدينة يجب أن يستخدم المحرقة المستوردة».

«تحتفظون بالمحرقة المستوردة من أجل عمدة المدينة، فلماذا تحتفظون بالمحرقة المصنوعة في الصين من أجله أيضًا؟».

«لا أعرف ذلك، وأعرف فقط أن المحرقتين قد توقفتا عن العمل».

ضيف شرف في جانب منطقة الأرائك يلوح بيده للرجل المتشح بالملابس الزرقاء الذي يهرول إليه في التو.

يسأله ضيف الشرف: «هل ما زال توديع جثمان عمدة المدينة يحتاج إلى وقت طويل؟».

يجيـــب ذلك الرجـــل بعد أن توقف عن الكلام برهة: «لســـت متأكـــدًا بالضبـــط، أظن أنه باقيـــة فترة قصيـــرة، من فضلكم انتظروا بصبر وهدوء».

يدخل رجل جاء متأخرًا توًا ويبغي حرق جســـده، وســـمع ما دار بينهمـــا، ويقـــف في الممـــر، ويقول: «الموظفـــون الحكوميون الكبـــار والصغار في المدينة، بالإضافة إلى نظرائهم في الأقاليم والمحافظـــات يبلغ عددهم أكثر من ألـــف، ويودع كل واحد منهم جثمان عمدة المدينة، كما لا يستطيع أن يمشي بسرعة، بل يسير بخطوات وئيدة، كما ينفجر بعضهم في البكاء».

يقول ذاك ضيف الشرف في استياء شديد: «ما العظمة التي يتحلى بها عمدة المدينة؟».

يـــردف ذلك الرجل الذي جاء متأخرًا: «في البكور بدأ إغلاق الطرق الرئيســـة في المدينة، والسيارة التي تحمل جثمان العمدة تســـير ببطء مثل الســـير على الطريق الذي يحتـــاج إلى نصف ساعة، تقطعه في ســـاعة ونصف الساعة. الآن ما زالت الطرق الرئيسة مغلقة، ويجب أن ننتظر لما بعد توديع رماد عظام العمدة حتى يتم السماح بالمرور فيها».

الطرق الرئيســـة فـــي المدينة مغلقة، والطـــرق الأخرى تغص بالسيارات مما يســـبب المصاعب والقلق. وجال بخاطري صوت حادث الســـير عندما كنت أمشـــي في الصباح وســـط الضباب الكثيف، ثم رأيت المشهد الفوضوي الناجم عن ذلك، كما تذكرت فـــي الحال أيضًا الأخبار التي نشـــرتها الصحـــف والتلفاز قبل نصف شـــهر حول وفاة عمـــدة المدينة على حـــين غرة، وقدمت تحليلاً رسميًا حول سبب الوفاة؛ ذكرت أن العمدة لقي حتفه إثر

إصابته بمرض في القلب بعد أن أرهق نفســه في العمل بصورة مفرطة. بينما نشرت الشبكة العنكبوتية قصة شعبية مفادها أن عمدة المدينة رحل عن دنيانا فوق فراش في شــقة إدارية بفندق خمس نجوم حيث أصيب باحتشـــاء عضلة القلب بصورة فجائية بعد أن بلغ ذروة المتعة والنشــوة مــع عارضة أزياء قليلة الخبرة، والتي أصابها الفزع وهرولت في الممر تبكي وتصرخ، ونسيت أن مؤخرتها عارية في ذلك الحين.

بعد ذلك، سمعت ضيوف الشرف في منطقة الأرائك يتحدثون عن القبر، والعوام في منطقة الكراسي البلاستيكية يتحدثون عن الموضوع نفسه أيضًا، ومساحة القبر التي يتحدث عنها الجلساء فوق تلك الكراسي تبلغ مترًا مربعًا، أما في منطقة الأرائك فتبلغ أكثر من المو[1]، وربما ســمع جلساء منطقة الآرائك الحديث في منطقة الكراسي البلاســتيكية، فيقول أحد ضيوف الشرف في جانب الأرائك بصوت عال:

«كيف تقيم في قبر مساحته متر مربع؟».

الهدوء يسود الكراســي البلاستيكية في هذا الجانب، وبدأ الجالســون عليها ينصتون باهتمام إلــى الفخفخة التي تجعل المرء جاحظ العينين، وتلوك بها ألسنة جلساء الأرائك في ذلك الجانب. ومن بين هؤلاء الجلســاء الستة، يوجد خمسة شيدوا قبورهــم فوق قمة جبل ســامقة، ويحيط بها البحر العظيم من كافة الجهات، ويســبح حولها الســحاب والضبــاب، إنها قبور الشــخصيات الفذة قبالة المنظر البحري من الجبال الباســقة التي لا يطاولها البصر والمناظر متعددة الألوان والأشــكال. أما

(1) المو: وحدة مساحة صينية تعادل 0،0667 هيكتار. [المترجم]

الجليس الســادس فقد شــيد قبره على مصطبــة جبلية حيث توجــد هناك غابــة كثيفة تمخرها الجــداول وأصوات الطيور المغردة، وشــاهدة قبره عبارة عــن قطعة حجر طبيعي، وهناك تترســخ الجذور العائلية، يتراوح تاريخها مــن بضع مئات إلى ألف سنة، ويقول إنه شــديد الاهتمام بالأطعمة العضوية، وإن شــاهدة قبره عضوية أيضًا، وبالإضافة إلى ذلك، هناك خمس شاهدات قبور، من بينها شاهدتان عبارة عن لوح صغير حسب الموجود في أرض الواقع، وشــاهدة عبارة عن فناء على الطراز الصيني، وشــاهدة عبارة عن فيلّا على الطراز الغربي، ناهيك عن شاهدتين رسميتين، وزعموا أنهم لا يستخدمون الشاهدات البراقة والمزخرفة. وتفوّه المنتظر الأخير بكلمات جعلت الجميع يشــعرون بالدهشــة، ولم يكن في الحســبان أن تكون شاهدة قبره على غــرار النصب التذكاري لأبطال الشــعب في ميدان تيــان آنمين[1]، وحجمها يماثل ذلك النُصب، وقد تغير ما خطه الرئيس ماوتســي تونغ بيده فوق النُصب التذكاري من «أبطال الشــعب خالدون إلى الأبــد» إلى «الرفيق لي فينــغ خالد إلى الأبــد»، وذلك من خط الرئيس ماو أيضًا، حيث عثرت أســرته فــي مخطوطات ماو على الكلمات «الرفيــق لي فينغ»، وقامت بنقشها على شاهدة القبر بعد تكبيرها.

ويكمل حديثه قائلا: «الرفيق لي فينغ هو أنا».

يخاطبــه أحد ضيــوف الشــرف قائلا: «ينطــوي ذلك على مجازفة، وربما تقبض عليك الحكومة ذات يوم».

(1) ميدان تيان آنمين (الســلام الســماوي) يتوســط قلب العاصمة الصينية بكين، ويُعتبر أكبر ميدان في العالم، وتبلغ مســاحته 44 هيكتار. وقد أعلن الزعيم الصيني ماوتســي تونغ تأسيس جمهورية الصين الشعبية في هذا الميدان، وذلك في أول أكتوبر عام 1949. [المترجم]

الصـــورة واضحة في ذهن لـــي فينغ، ويقول: «قدم الرشـــوة للحكومة، غير أنه لا يســـمح للصحافيين أن يكشفوا النقاب عن ذلك. وقد أرســـلت أســـرتي اثني عشـــر رجلا على حذر تام من الصحافيين ويســـتميتون في الدفاع حتى الموت، وهؤلاء الرجال بالمصادفة هم جماعة الإعـــداد والتخطيط في الجيش، وهناك جماعة الحراســـة التـــي تقوم بحمايتي، فأســـتطيع أن أنام ملء جفوني».

في هذه الأثنـــاء، تُضاء فجأة مصابيح الســـقف على جانبي قاعة انتظار منتظري حرق أجســـادهم، وتتحول فترة الغسق إلى الظهيرة، والرجل المتشـــح باللبـــاس الأزرق يتقدم إلى البوابة في عُجالة.

يدلف إلى الداخل عمدة المدينة مرتديًا بذلة غربية ســـوداء، وتحتها قميص أبيض، ويشـــد حول رقبته رباط العنق الأســـود. يمشي ولم يرتسم على وجهه أي تعبير، ويضع ماكياجاً كثيفاً على وجهه، وحواجبه سوداء كثّة، ويطلي شفتيه بأحمر الشفاه الفاتح، يستقبله ذلك الرجل ويرشده إلى الطريق باهتمام شديد قائلاً:

«حضرة عمدة المدينة، من فضلك نغشـــى اســـتراحة ضيوف الشرف الفخمة».

يومئ عمدة المدينة برأسه قليلاً، ويتبع الرجل المتشح باللباس الأزرق ويتقـــدم إلـــى الأمام، ويفتـــح ببطء البـــاب الضخم ذي الدرفتـــين في قاعة الانتظار الكبري، ثم يغلق ببطء أيضًا بعد أن يدخل عمدة المدينة.

ضيوف الشـــرف فـــي جانب الأرائك لا ينبســـون بأي حرف، وغرفـــة ضيوف الشـــرف الفخمـــة تطغى علـــى منطقة ضيوف

الشرف الجالسين على الأرائك، فالمال يشعر بمركّب النقص أمام السلطة والنفوذ.

ما زال صوتنا يعلو وينخفض في هذا الجانب حيث نجلس على الكراسي البلاستيكية، ولا يزال حديثنا يدور حول القبر. ويتنهد الجميع تحسرًا على أن القبر الآن أكثر غلاء من الشقة، حتى فناء القبور في المنطقة النائية القاصية مزدحم للغاية، ولم يتوقع أن يكون سعر المتر المربع للقبر يصل إلى ثلاثين ألف يوان، كما أن حق الملكية خمسة وعشرون عامًا. مهما كان غلاء الشقة لكن حق ملكيتها سبعون عامًا. يستشيط بعض منتظري حرق أجسادهم غضبًا وغيظًا، والبعض الآخر ناخ عليهم الهم والأسى، واعتراهم القلق، وماذا يفعلون بعد انقضاء خمسة وعشرين عامًا؟ ومن الممكن جدًا أن أسعار القبور الغالية بعد خمسة وعشرين عامًا يكون صاروخيًا ويصل إلى السماء، وإذا عجز أهل البيت عن دفع التكاليف بصورة مستمرة، فإن رماد عظامهم يمكن أن يكون فقط سمادًا في الحقول.

يقول منتظر جالس في الصف الأمامي بحزن: «أرحل عن هذه الدنيا، ولا أنهض من موتي أبدًا!».

ويقول الرجل العجوز الجالس إلى جواري في هدوء: «لا داعي أن نفكر فيما سيحدث في المستقبل».

الرجل العجوز يخبرني بأنه اشترى لنفسه قبرًا مساحته متر مربع بثلاثة آلاف يوان منذ سبع سنوات خلت، والآن ارتفع سعره إلى ثلاثين ألفًا. ويشعر بالغبطة لأنه صاحب رؤية مستقبلية سلفًا، أما في الوقت الحاضر فيعجز عن شراء قبر.

ويتنهد متحسرًا قائلا: «تضاعف سعره عشر مرات في غضون سبع سنوات».

بدأ النداء على الأرقام في صالة منتظري حرق أجسادهم، ومن الجلي أن عمدة المدينة قد حُرق جسده، وعلبة رفاته مغطاة بعلم الحزب، ووُضعت بعناية في عربة الخدمات الجنائزية السوداء التي تسير ببطء، ويسير وراءها بضع مئات من عربات الركاب التي تتبعها ببطء شديد. وتدوي موسيقى جنائزية في الطرق المغلقة.. ورقم ضيف الشرف يعلوه الحرف (V)، أما رقم عامة الشعب فيتصدره الحرف (A)، ولا أعرف الحرف الذي يعلو رقم ضيف الشرف من الشخصيات الفذة حسب مرتبة عمدة المدينة؟ وربما ضيف الشرف الفذ لا يحتاج إلى رقم.

يدخل إلى المحرقة ستة من ضيوف الشرف الذين ينتمون إلى فئة الحرف (V)، أما النداء على الذين ينتمون إلى فئة الحرف (A) فكان سريعًا، وكما ذكر المتشح باللباس الأزرق فإن هناك الكثير من الأرقام الخاوية لم يحضر أصحابها، وفي بعض الأحايين ينادى على التوالي أكثر من عشرة أرقام، وكلها خاوية لم يحضر أصحابها. واكتشفت في ذلك الحين، أن ذلك الرجل الذي كان يقف بجواري يمشي في الممر، وعندما رفعت رأسي ورمقته بنظرة، يدوي صوته المتعب المدكوك مرة أُخرى قائلا:

«أصحاب الأرقام الخاوية يفتقرون إلى قبر».

وأنا ليس عندي علبة رفات، كما أفتقر إلى قبر. وأسأل نفسي: لماذا حضرت هنا؟

سمعت النداء على الرقم (A64)، وهو رقمي، فلم أنهض من مكاني. وبعد النداء على رقمي ثلاث مرات، ينادى الرقم (A 65)، نهضت امرأة كانت تجلس بجواري، وترتدي الكفن

التقليــدي، ويبدو أنه من طراز أســرتي مينغ وتشــينغ، وعندما تمشي يتمرجح كمَّاها الكبيران يمنة ويسرة.

مازال الرجــل العجوز الجالس بجواري ينتظر دوره، ولا يزال لســانه لا يكف عن الــكلام. وقال على الرغم مــن أن قبره في مكان بعيد بعض الشــيء، والمواصلات إلى هناك ليست مريحة أيضًا، ولكن المنظر أمامــه لا بأس به، حيث توجد قبالته بحيرة ليست كبيرة، ناهيك عن بعض شتلات الأشجار التي زرعت توًا. وأردف أنه بعد أن يقيم في القبر لا يأتي إلى الدنيا أبدًا، ومن ثم لا يعتبــر المكان القصيّ والمواصلات غير المريحة مشــكلة، وبعد ذلك سألني عن منطقة القبور التي يقع فيها قبري.

أطأطئ رأسي قائلا: «ليس عندي قبر».

ويسألني في دهشة: «ليس عندك قبر، إذن، أين تذهب؟».

وشــعرت بأن جســدي ينهض واقفًا، وجســدي يقودني إلى مغادرة صالة انتظار حرق أجساد الموتى.

* * *

أقــف مرة أُخرى وســط الضباب الكثيف المنتشــر في كافة البقاع، وكرات الثلج المتطايرة المتساقطة على أديم الأرض، وعلى أية حال، لا أدري أين أذهب، وأناخت عليّ الشــكوك والهواجس، وعرفت أن نفسي ماتت، ولكن لا أعرف كيف ماتت؟

أترجل في المدينة التي بدت مشوشــة غيــر واضحة المعالم، أقدح زناد ذهني في البحث عن اتجاه على درب ذاكرتي المتشابكة المتقاطعة، أفكر أنه يجب البحث عن المشــهد الأخير قبل موتي، وهذا المشــهد الأخيــر يجب أن يكون في نهايــة طريق الذاكرة، والعثــور عليه يعني الوصول إلى لحظة مــوت النفس. وتفكيري

يستعين بحركة جسدي في المشي ويجتاز العديد من المشاهد التي تشبه كرات الثلج المتساقطة تمامًا، وبعد ذلك، وصلت إلى يوم الممات في نهاية المطاف.

هذا اليوم، يبدو أنه أمس، ويبدو أنه أمس الأول، ويبدو اليوم الحالي. وأستطيع أن أقرر أنه اليوم الأخير لي في هذه الدنيا، ووجدت نفسي تسير على هذا الطريق وتجابه ريحاً باردة.

تقودني قدماي إلى الأمام حتى أصل إلى ميدان قبالة الإدارة البلدية، وهناك تم فض احتجاج أكثر من مئتي شخص تقريبًا بالقوة، لم يرفعوا لافتات الاحتجاج، ولم يطلقوا شعارات، غير أن كل واحد منهم سرد مأساته وأتراحه وترامى إلى مسامعي أنهم المتضررون من جراء وقوع أحداث متباينة من العنف وهدم المباني. وأخترق صفوفهم مترجلا على أقدامي، وهناك سيدة تمسح دموعها وتقول إنها خرجت تشتري الخضار، وعندما عادت أدراجها اكتشفت أن منزلها اندثر، ودار بخلدها أنها ذهبت خطأ إلى مكان آخر، فضلا عن رهط من الأفراد يسردون ما أصابهم من الخوف والفزع في منتصف الليل من جراء الهدم والإزالة، حيث استيقظوا مذعورين من نومهم العميق بسبب وابل من الأصوات المزعجة، وتترنح منازلهم بلا انقطاع، ويعتقدون حدوث زلزال، ولكن عندما لاذوا بالفرار مهرولين رأوا الجرافة والحفَّارة تهدمان بيوت عائلاتهم. وهناك شاب يحكي للآخرين بصوت مرتفع عال تجربته التي من الصعب البوح بأسرارها، وعندما كان هو وصديقته يمارسان الحب في الفراش، تحطم باب البيت بصورة فجائية، واندفع إلى الداخل بضعة رجال ضخام الجثة قيدوهما بحبل داخل اللحاف، ثم نقلوهما إلى سيارة تلفّ في

الشـــوارع العامة بالمدينة جيئة وذهابًـــا، ففاضت روحهما داخل اللحاف بعد أن أصابهما الفزع الشديد، ولا يدريان إلى أي مكان تحملهما الســـيارة التي تدور في المدينة حتى انبلاج الصباح، ثم رجعا إلـــى بيتهما، وقام هؤلاء الرجال بإخراجهما من الســـيارة ورموهما على أديم الأرض، وفكوا الحبل الذي قيدهما، كما رموا لهما عدة قطع من الملابس، يرتديان ملابس الآخرين وجسداهما يرتعدان داخـــل اللحاف، ويحدق فيهما بفضول نفر من المشـــاة يقفون هناك، يرتديان ملابسهما ويخرجان من اللحاف ويقفان، ويرى ذلك الشـــاب آنذاك أن منزله قد تســـاوى بالأرض تمامًا، وصديقتـــه تنتحب وتبكي، وتقول إنها لـــن تنام مع صديقها مرة أُخـــرى، وأضافت أن النوم معه أكثر رعبًا من مشـــاهدة فيلم من أفلام الإرهاب.

ذلك الشاب يخبر البشـــر الذين التفوا حوله أنه فقد منزله، وفقد صديقته، وأن شـــهوته الجنســـية قد تلاشت هذه المرة من جراء الفزع الذي أصابه، ولن تعود إليه مرة أُخرى، ومد أصابعه الأربعـــة قائلا: «لقد أنفقت أكثر مـــن أربعين ألف يوان من أجل علاجي من العُنَّة[1]، وتناولت كميات كبيرة من الوصفات الصحيّة في الطب الغربي، والوصفات الشعبية في الطب الصيني، ولكن رجولتي مازالت تشبه طائرة لا تعرف سوى الانزلاق».

يســـأله رجل: «ما حدث توًا كان صعود الطائرة، ثم هوت على الأرض؟».

يجيب قائلاً: «ليته يوجد مثل هذا الأمر المبهج، ليس لا يعرف الانزلاق فقط، بل ولا يعرف الصعود أيضًا».

(1) العجز الجنسي. [المترجم]

يصرخ رجل آخر: «اطلب من الحكومة التعويض».

يضحك ضحكة صفراء ويقول: «الحكومة عوضتني عن منزلي الذي تعرض للإزالة، ولكنها لم تعوضني عن شهوتي الجنسية التي تلاشت من جراء خوفي وفزعي».

يقترح رجل آخر ويقول: «تناول فياجرا».

يقول: «تناولت حبوب الفياجرا، وتسارعت نبضات قلبي بصورة مجنونة لفترة من الوقت، ورجولتي مازالت تنزلق أيضًا».

أمشي وسط قهقهات ضحكاتهم العالية، وأشعر بأنهم ليسوا في تظاهرة، بل في لقاء يجمع بينهم. عبرت الميدان قبالة الإدارة البلدية، ومررت بمحطتين للحافلات العامة، وعلى مرمى البصر يوجد طريق «تشينغ خه».

في تلك اللحظة، أدلف إلى وادي الحياة المنخفض، وزوجتي تركتني منذ زمن بعيد وودعت هذه الدنيا، ووالدي أصابه مرض عضال لم يبرأ من سقمه منذ سنة ونيف، وبعت منزلي من أجل علاج والدي، وتقدمت باستقالتي من العمل من أجل رعاية والدي الذي يئن من وطأة الآلام، واشتريت حانوتًا صغيرًا على مقربة من المستشفى. وبعد ذلك، والدي تركنا بلا استئذان وغاص في بحر البشر الشاسع. وبعت الحانوت، وأقيم في منزل إيجاره زهيد، أبحث عن والدي مثل التفتيش عن إبرة في بحر. وطافت أقدامي كافة أصقاع وبقاع المدينة، وتغص عيني بظلال العجائز عدا وجه والدي.

فقدت عملي، وبعت منزلي، وليس عندي حانوت، وخارت ووهنت عزيمتي، وأضطر إلى التفكير بحياتي في المستقبل عندما أكتشف أن النقود الباقية في كارت البنك ليست كثيرة، وعمري

بالكاد واحد وأربعون عامًا، وسنوات قليلة باقية في حياتي تنتظر اضطلاعـــي بتبديدها، وحصلت على عمل بالتدريس المنزلي من خلال شـــركة سمســـرة تعمل في مجال التعليم الإضافي، وكانت أول طالبة عندي تقطن في طريق «تشينغ خه»، واتصل والدها بي هاتفيًا، وســـمعت صوته في الهاتف كان أجشًّ وتشوبه الشكوك، وقـــال إن ابنتـــه تُدعى «جينغ شـــياو مينغ» في الفرقـــة الرابعة بالمدرســـة الابتدائية، ودرجاتها العلمية طيبة جدًا. وأضاف أنه وابنته يعملان في مصنع، ودخلهما ليس كبيرًا، يتحملان بصعوبة دفع تكاليف التدريس المنزلي بواقع خمســـين يوانًا في الساعة. وكان صوتـــه يوحي بأنه لا خيار أمامه، ويتشـــابه ذلك كثيرًا مع وضعـــي بلا حول ولا قـــوة، وقلت له «أتقاضـــى ثلاثين يوانًا في الســـاعة»، وتوقف لحظة عن الكلام، ثم أردف قائلا: «شـــكرا» ثلاث مرات.

وقررنا ميقات الدرس الأول في هذا اليوم في الساعة الرابعة بعد الظهر، وعرجت على الكوافير لقص شعري، ورجعت أدراجي وحلقت ذقني، وبعد ذلك ارتديت ملابســـي النظيفة يكسوها من الخارج معطفي القديم وتحته ملابس بالية أيضًا.

عرجت على طريق «تشـــينغ خه» المألوف لدي، وأعرف – من الأمام – مكان الســـوبر ماركت، ومكان الكافيه الأمريكي ســـتار بوكس، ومكان ماكدونالدز وكنتاكي، ومكان شارع الملابس، والمكان الذي يشتمل على عدد من الفنادق.

وطوّفـــت بمثل تلك الأمكنة، ورأيت على مرمى البصر شـــيئًا غير مألوف على حين غرة، خرابة عشـــوائية تسترعي انتباهي، حيـــث المباني الثلاثـــة القديمة التي تتألف من ســـتة طوابق في

شارع «تشــينغ خه» تعرضت للهدم والإزالة، ومنزل الأسرة التي أقصدها للتدريس المنزلي يجب أن يكون وسط تلك المباني.

وعندما مررت بهذا الشارع منذ بضعة أيام، رأيت تلك المباني قائمــة ومنتصبة هناك، وتجفف الملابس في الشــرفات، وكانت عدة لافتات بيضـــاء تعلق على المباني الثلاثة، واللافتات مكتوب عليها بالحروف السوداء: «التصدي بحزم لإزالة المباني بالقوة»، و«الاحتجاج على هدم المباني والانتقال إلى آخر بالعنف»، و«أُقسم بالدفاع عن أسرتي حتى الموت».

وألقي نظــرة فاحصة على هـــذه الخرابة، ويتــراءى أمامي بعض الملابس المعلقة على حديد الخرســانة الإسمنتية، ناهيك عن رافعتين شــوكيتين، وســيارتي شــحن تقفان على مقربة من الخرابة، وسيارة شرطة، وسيارة ينبعث منها الدفء ويجلس فيها أربعة من أفراد الشرطة.

طفلة صغيرة ترتــدي جاكيتاً أحمر محشــواً بريش الطير تجلس بمفردها على لوح إســمنتي، وحديد الخرسانة المتقطع على جانبي ذلك اللوح كثير التلوي. وتضع الحقيبة المدرســية على ركبتيها، وتفرد الكتاب المدرسي ودفتر الواجبات المدرسية على ساقيها، وتنكس رأسها وتكتب. في الصباح غادرت منزلها وذهبت إلى المدرسة، وحينما انتهى الدوام الدراسي بعد الظهر ورجعــت أدراجها لــم تجده، كما لم تر منزلهــا، ولم تر أبويها أيضًــا، وتجلس فوق ركام الخرابة، وتترقــب عودتهما، وتؤدي الواجبات المدرسية وجسمها يرتعد من شدة الريح الباردة.

أخطو على الخرســانة المسلحة في الخرابة بخطوات واسعة، ويتمايل جســمي يمنة ويسرة، وأســير حتى أصل إلى جوار تلك

الطفلة التي رفعت رأســها وترمقني بنظرة وعلائم الحمرة تعلو وجهها من جراء الريح الباردة.

وسألتها: «أتشعرين بالبرد؟».

تجيب: «أشعر بالبرد».

أشـير بإصبعـي إلى مطعم كنتاكـي في مكان ليـس بعيدًا، وأقـول في داخله الجو دافئ، ويمكن أن نذهب إلى هناك لتؤدي الواجبات المدرسية.

تومئ برأسها، وتقول: «عندما يعود أبي وأمي لا يجدانني».

تحتضن رأسـها بعد أن تفرغ من كلامها، وتسـتمر في إتمام الواجبات المدرسية على طاولة صنعتها من ساقيها، وألقي نظرة فاحصـة على الخرابـة ولا أدري مكان منزل تلك الأسـرة التي أقصدها للتدريس المنزلي.

وسألتها مرة أخرى: «أتعرفين أين منزل جينغ شياو مينغ؟».

تشـير إلى المكان الذي نجلس فيه، وتقـول: «هنا.. أنا جينغ شياو مينغ».

أرى أمـارات الدهشـة تعلو وجهها، وأخبرتهـا بأنني أخذت موعدا اليـوم وأذهب إلى منزلها وأكون مدرسـها في التدريس المنزلي. تطأطئ رأسـها مرات عديـدة تلميحًا أنها تعرف ذلك، وتجيل بصرها في الجهات الأربع، وتبدو عليها الحيرة والارتباك، وتقول:

«لم يحضر أبي وأمي إلى الآن».

أقول: «أحضر غدًا مرة أُخرى».

وتلفت انتباهي قائلـة: «لا تكن هنا غدًا، اتصل بأبي هاتفيًا، فهو يعرف أين نكون غدًا».

أقول: «حسنًا.. أتصل به».

أنصـــرف مـــن الخرابة، وأســـير بخطوات صعبة فـــوق ركام الخرسانة الإسمنتية المتكسرة، وأسمع في الخلف صوتها يقول: «شكرًا، يا مُعلمي».

كانت هـــذه المرة الأولى التي أســـمع فيها إنســـاناً يناديني بـ «مُعلمي»، وأدير رأسي وأحملق بهذه الطفلة الصغيرة التي تتدثر بالجاكيت الأحمر المحشـــو بريش الطير، ومازالت تجلس هناك، وتجعل الخرسانة الإسمنتية الصلبة في الخرابة لينة وناعمة.

أرجع إلى الميدان العام أمام الإدارة البلدية حيث يحتشـــد هناك ألفان أو ثلاثة آلاف من المتظاهرين، ويرفعون اللافتات، ويطلقون الشـــعارات، إنهم يتظاهـــرون حقًا في ذلك الحين. الشـــرطة وســـيارات الشـــرطة تحاصر الميدان من الجهات الأربع، كما قامت الشـــرطة بإغلاق الطـــرق، ومنعت الناس خـــارج الميدان من الدخول إليه. ورأيـــت متظاهـرًا يقف على السلم أمام الإدارة البلدية، ويرفع مكبر الصوت ويصرخ مرات عديـــدة في جمهور المتظاهرين من ذوي المعنويات العالية في الميدان، ويقول:

«الهدوء! من فضلكم التزموا الهدوء..».

وبعـــد أن يصرخ في المايكروفون لبضـــع دقائق، يهدأ جمهور المتظاهريـــن رويدًا رويـــدًا. يرفع المايكروفون في يده اليُســـرى، ويلوح بيده اليُمنى قائلاً:

«جئنـــا من أجـــل العدالـــة، ونتظاهر بصورة ســـلمية، ونحن لا نضطلع بالأعمال المتطرفة، ولا نســـتطيع أن نتركهم يتشبثون بالأقوال».

يتوقف عن الكلام لحظة، ثــم يردف: «أريد أن أُخبر الجميع بأن صباح هذا اليوم شــهد إزالة مبانٍ بالقوة في طريق تشــينغ خــه، ودفن تحت الأنقاض بالخرابة زوجــان، والآن لا نعرف إذا كانا على قيد الحياة أو في عداد الأموات..».

تقف عربة بجواري ويقفز منها ســبعة أو ثمانية أشــخاص، وجيوب سُــترهم منتفخة، وأرى أنها تزخــر بالحصى، وتقدموا إلى أمام الشــرطة التي تغلق الطريق، وأبرزوا هويتهم من جيوب البنطال حتى تطلع عليها الشرطة، وبعد ذلك ساروا مباشرة إلى داخل الميــدان. ورأيتهم -في البداية - يمشــون زهوا وتيهًا، ثم يعــدون عدوًا وئيدًا، ويهرولون إلى السُــلم قبالة الإدارة البلدية، وشرعوا يصرخون:

«حطموا الإدارة البلدية..».

يســتل هؤلاء الأفراد الحصى من جيوبهم، ويحطمون بها نوافــذ الإدارة البلديــة، ويترامى إلى مســامعي دوي صوت الزجاج المتكســر من مكان ناء. وتتدفق الشــرطة إلى الميدان مــن كل حدب وصوب وتفــرق جمهــور المتظاهرين. ويتحول الميدان إلى فوضى عارمــة، ويلوذ المتظاهرون بالفرار من كل جهة ويحاولون تفادي الصدام مع الشــرطة وجهًا لوجه حتى لا يســقطوا على الأرض. وهؤلاء الأفراد الســبعة أو الثمانية الذين حطمــوا نوافذ الإدارة البلديــة يركضون على الطريق ركضًا وئيدًا وينصرفون من الميدان ويتقدمون نحو فردين من الشــرطة يقفان أمامي ويطأطئون رؤوســهم، ثم يقفزون في عربتهــم التي تنطلق بأقصى ســرعة، ورأيت بوضوح أنها من دون ترخيص.

وعندما يأتي المساء أجلس في فندق «تان جيا تساي»، أسعاره زهيدة، ومذاق مأكولاته رائع، وأذهب هناك دائمًا، وكل مرة أغشاه أتناول فقط سلطانية معكرونة رخيصة. وهناك هاتف فوق كاونتر مُحصِّل النقود في الفندق أستخدمه، واتصلت بوالد الطالبة «جينغ شياو مينغ» مرات عديدة، ولكنه لم يستقبل مكالمتي وأسمع صدى رنين جرس الهاتف.

يذيع التلفاز خبر التظاهر الذي وقع بعد ظهر اليوم، وذكر أن قلة قليلة تجمهرت أمام مبنى الإدارة البلدية وأحدثت فوضى، وحطمت البلدية، وحرضت الجماهير التي تجهل الحقيقة، واعتقلت الشرطة - حسب القانون - تسعة عشر خصاً من المشتبه بهم الذين ألحقوا أضرارًا بالأمن العام، وقد هدأت الأوضاع هناك. ولم يبث التلفاز صورًا، وأذاع فقط خبرين عن رجل وامرأة على هامش التغطية الإعلامية من قبل المذيع. وبعد فترة الإعلانات، عرض التلفاز صورة المتحدث الإعلامي لإدارة البلدية يرتدي البذلة الغربية والحذاء الجلدي، ويجلس على الأريكة، ويستقبل صحافي التلفاز الذي يجري معه حوارًا في إطار التغطية الإعلامية لهذا الحادث، سؤال الصحافي في كلمات قليلة، وكذلك إجابة المسؤول أيضًا، ويكرران ما ذكره المذيع في نشرة الأخبار توًا. ثم يسأله الصحافي إذا كان حادث الإزالة في طريق «تشينغ خه» قد شهد دفن زوجين تحت الأنقاض أم لا؟ يتثاءب وينفي حدوث ذلك، ويذكر أن ذلك كله مجرد شائعات، وتم إلقاء القبض على مروجي الشائعات حسب القانون. ويواصل المتحدث الإعلامي إحصاء الإنجازات البارزة التي اضطلعت بها الإدارة البلدية في بناء حياة الشعب في غضون السنوات الأخيرة.

رجل يجلس بجوار الطاولة يحتسي الخمر ويصرخ قائلا: «أيها النادل، غيِّر قناة التلفاز».

يأخذ النادل جهاز التحكم عن بُعد ويغير قناة التلفاز، وتختفي صورة المتحدث الإعلامي، وتظهر مباراة كرة القدم على شاشة التلفاز.

يدير هذا الرجل رأسه ويخاطبني قائلا: «لا أصدق كلامهم، حتى لا أصدق علامات الترقيم».

يفتر ثغري عن شبه ابتسامة، وأنكس رأسي وأستمر في تناول المعكرونة. وكنت أسند والدي وندلف إلى هنا عندما وقع في براثن مرضه الخطير، ونجلس في ركن أسفل البناية، وأختار الأطباق من لائحة الطعام التي يحب والدي أن يتناولها دائمًا. يأكل قليلاً من الطعام ثم يعزف عن الأكل تمامًا، وأسدي النصح إليه بأن يأكل مرة أُخرى، ويومئ برأسه وينصاع لكلامي، ويأكل بصعوبة، ثم قاء ما أكله. أقدم اعتذاري للنادل، وأطلب منه أن يُحضر فوط السفرة الورقية، وأنظف قيء والدي فوق الطاولة وعلى أديم الأرض. يتكئ والدي على جسدي وننصرف، وأخاطب صاحب المطعم قائلا:

«آسفًا ومعذرة».

صاحب المطعم يهز رأسه برفق ويقول: «لا يهم، نرحب بكما في المرة القادمة».

وبعد أن ينصرف والدي بلا استئذان، أعرج على هذا المطعم بمفردي، ومازلت أجلس في ذاك الركن وأتناول المعكرونة وأنا كسير الفؤاد. ويأتي صاحب المطعم ويجلس في الجهة المقابلة لي، ويسألني عن أحوال صحة والدي، ولم أصدق أنه مازال

يتذكرنا. وفقدت السيطرة على مشاعري في تلك المرة وسردت تجاربي الذاتية في الحياة، وذكرت أنه بعد أن أصاب والدي مرض عضال وحتى لا يثقل كاهلي بالأتعاب، انصرف بمفرده، ولم ينبس صاحب المطعم بحرف ورمقني بنظرة العطف.

وبعد ذلك، وكل مرة أحضر إلى هنا، وبعد أن أفرغ من تناول سلطانية المعكرونة الرخيصة، يرسل لي صاحب المطعم طبق فواكه، ويجلس معي ونتجاذب أطراف الحديث.

صاحب المطعم يُدعى «تان جياشين» وتدير شؤون المطعم معه زوجته، وابنته وزوجها، وتوجد غرف الحجز في الطابق العلوي، وفي أسفله أماكن الجلوس العامة. وقد جاؤوا من مقاطعة (غوانغدونغ). وكان يتنهد نحوي أحيانًا لأن أهل بيته لا يألفون الحياة في هذه المدينة ويفتقرون إلى شبكة العلاقات، ومن الصعب جدًا ممارسة البزنس. ورأيت بأم عيني أن الزبائن في مطعمه كثر، والحركة التجارية نشطة، وأعتقد أنه يكسب أموالا ليست قليلة كل يوم، ولكنه مقطب الجبين طوال اليوم.

وقال لي ذات مرة إن إدارة الأمن العام، والحماية من الحرائق، والصحة، والصناعة والتجارة، والضرائب، تحضر هنا عادة وتتمتع بالطعام والشراب، ولا تدفع شيئًا، ونسجل وليس أمامنا غير أن نسجل في دفتر الحساب. وفي نهاية العام، تطلب تلك الإدارة من بعض الشركات الأهلية أن تدفع حساباتها لدينا، وذكر أيضًا أن الأوضاع كانت أفضل في بداية افتتاح المطعم، حيث تلك الإدارات تسدد ديونها بنسبة تتراوح بين سبعين وثمانين في المئة، والاقتصاد غير مزدهر في السنوات الأخيرة، وأشهرت العديد من الشركات إفلاسها، وعلى الرغم من أن عدد الشركات التي

تدفع حساب تلك الإدارات يتضاءل، بيد أنها مازالت تواظب على عادتها في الإسراف بتناول أطايب المأكولات والشراب. وأضاف: تبـــدو الحركة التجارية في مطعمـــه مزدهرة، ولكن - في الواقع - يعانـــي من عجز مالي. وأردف أخيـــرًا أن لا أحد من موظفي الإدارات الحكومية يجرؤ على أن يرتكب إثمًا.

وعندمـــا فرغت من تناول المعكرونـــة، يغير رجل قناة التلفاز، وتعرض شاشة التلفاز مرة أخرى تقارير حول أحداث المتظاهرين بعـــد ظهر اليوم. وتقوم مراســـلة التلفاز بتغطيـــة تلك الأحداث واســـتطلاع آراء بعض المشـــاة في الشـــارع والذيـــن أعربوا عن معارضتهم لأعمال العنف من تحطيم الإدارة البلدية. وبعد ذلك، يظهر أستاذ جامعي على شاشة التلفاز وهو بروفيسور في قسم القانـــون بالجامعة التي كنت أدرس فيها، وتكلم بحماســـة وثقة، وفي البداية شـــجب أحداث العنف التي وقعـــت بعد الظهر، ثم أدلـــى بأحاديث ذكر فيها أنه ينبغي علـــى الجماهير أن تثق في الحكومة، وتفهم الحكومة، وتؤازر الحكومة.

يتقدم صاحب المطعم «تان جياشـــين» نحـــوي ويهديني طبق الفواكه، ويقول: «لم تحضر منذ بضعة أيام».

أطأطئ رأســـي، وربما تعابير وجهـــي باهتة، ولم يجلس معي كعادته في الماضي ونتحدث ســـويًا، يضع طبـــق الفاكهة، ويدير جسمه وينصرف.

الفواكه مقشرة في أشكال مختلفة وآكلها ببطء شديد، وأتناول صحيفـــة ذلك اليوم التي تركها أناس آخرون فوق الطاولة. وبعد أن قلبت عددًا من صفحاتها بصورة تلقائية، خطف بصري صورة كبيرة نشـــرتها الصحيفة؛ وهي عبارة عن صورة النصف العلوي

لامرأة ما زالت جميلة، وعيونها في الصحيفة تحدق في وجهي، وأنادي اسمها في أعماق نفسي: «لي تشينغ».

وبعد ذلك، قرأت مانشيت الصحيفة جاء فيه أن المرأة «لي تشينغ» واسعة الثراء قطعت معصمها وانتحرت أمس في حوض الاستحمام بمنزلها، وأنها تورطت في قضية فساد مسؤول رفيع المستوى، وذكرت الصحيفة أنها عشيقة ذلك المسؤول، وعندما توجه رجال الانضباط والتفتيش إلى منزلها استعدادًا للاستعانة بها في تقصي حقائق القضية، اكتشفوا أنها انتحرت. وحروف الكتابة في الجريدة كثيفة ومزدحمة، مثل الحوائط الجدارية الزاخرة بثقوب الرصاص، تسد عيني، وقرأت بصعوبة بالغة بعض الكلمات التي تغص بالجروح والثقوب، ولم أعرف بعض الكلمات على حين غرة.

في تلك الأثناء، تضطرم النيران في مطبخ المطعم، وتتصاعد أعمدة الدخان الكثيفة، ويدوي صراخ خوف وهلع الزبائن الذين يتناولون الطعام في أسفل المطعم، وأرفع رأسي وأراهم يطلقون سيقانهم للريح ويفرون خارج المطعم. تان جياشين يغلق مدخل المطعم، ويصرخ بصوت عال ويطلب من الزبائن دفع النقود أولا، ولكن ثلة من الزبائن تدفعه إلى الخلف وتهرب. ولا يزال يصرخ، وتهرول إليه زوجته وابنته وزوجها ويغلقون المدخل، كما يهرول إليه نفر من نُدل المطعم ويسدون باب الخروج هناك أيضًا. ويحدث تدافع عنيف وقوي بينهم وبين الزبائن، كما تسمع أصوات التنابز بالشتائم أيضًا، أنكس رأسي وأستمر في قراءة الصحيفة ذات الحروف المتداخلة الكثيفة بمداد الحبر، وتدوي الأصوات داخل المطعم أكثر فأكثر، وأرفع رأسي مرة أخري، وأرى الزبائن في

غرف الحجوزات في الطابق العلوي يلوذون بالفرار أيضًا، وتغلق أسـرة تان جياشين المدخل، ويسـتمر الصراخ بصوت عال لحث الزبائن علـى دفع النقود، ولا يدفع أحد مـن الزبائن نقودًا، بل اصطدموا بأسرة تان جياشين وفروا إلى الشارع من جراء الذعر الشـديد، كما حطم نفر من الزبائـن النوافذ وهربوا الواحد تلو الآخر أيضًا.

لا أعيـر اهتمامًا لمشـهد الفوضـى العارمة داخـل المطعم، وأستمر في قراءة مقالة الصحيفة، بيد أنني أرفع رأسي بصورة مسـتمرة وألقي نظرة على ما يجري حولي. وبعد ذلك، الدخان جعلني لا أرى بوضوح الحروف السـوداء في الصحيفة، وفركت عيني وشاهدت بعض رجال من إدارة الصناعة والتجارة يرتدون البزة الرسـمية أو من إدارة الضرائب في بزتهم النظامية يفرون من غرف الحجوزات في الطابق العلوي بالمطعم، ويجتازون صالة تسودها الفوضى ويدفعون ويعنّفون أسرة تان جياشين، وبعد أن يتردد صاحب المطعم تان جياشين يفسح الطريق أمامهم ويسمح لهم بالخروج، ويهرولون إلى الشارع وتتسال من أفواههم خراطيم من الشتائم المقذعة.

تواصل أسرة تان جياشين إغلاق مدخل المطعم، ورأيت عيون تان جياشـين تحملق في وجهي وسط الدخان، وكأنه يصرخ في وجهي، ويدوي صوت ضخم يُحدث هديرًا في الحال.

* * *

لقد بلغت نهاية الطريق في ذاكرتي، وبغض النظر عن أنني لم أدخر وسـعًا في استعراض ذكرياتي، بيد أن ذاكرتي لم يبق فيها ثمة مشهد بعد هذه اللحظة فصاعدا، بل حتى لم يبق فيها خيط

عنكبوت وآثار حصان. والمشهد الأخير في ذاكرتي الذي أستطيع البحث عنــه هو عيون صاحب المطعم تان جياشـين تحملق في وجهي، وبعد ذلك مباشرة دوي صوت ضخم خلّف هديرًا.

وفي هذا المشــهد الأخير تغوص نفسـي فــي أعماقي حيث انتحار المرأة التي تُسـمى «لي تشـينغ»، وقــد كانت زوجتي هي ذكرى جميلة وحزينة أيضًا، وليس هناك متسع من الوقت لطرح أتراحي، لقد وصلت إلى المحطة وأنزل من الحافلة.

لا تــزال كرات الثلج تتطاير وتتســاقط، والضباب الكثيف لم ينقشــع بعد، ومازلت أترجل في الشارع. تنأى قدمي بعيدًا كلما مشــيت، وتئن نفســي من وطأة الإرهاق والتعب، وتبغي نفســي الجلوس والخلود إلى الراحة، ثم جلســت فــي الحال، ولا أدري جلســت على كرســي أم على حجــر. ويتمايل ويترنح جســدي، وجلست هناك مثل ســفينة بضائع تجاوزت حمولتها تطفو فوق سطح مياه مضطربة.

رجل ميت فاقد البصر يمسك عكازًا يدق به أديم أرض وهمية، ويمشي إلى الأمام، ويتقدم نحوي وتتسمر قدماه أمامي، ويناجي نفسه، ويقول يوجد إنسان يجلس هنا. أقول: «نعم، يجلس إنسان هنا». ويســألني كيف يذهب إلى مؤسســة الخدمات الجنائزية؟ وسألته إذا كان لديه رقم موعد أم لا؟ ويستل من جيبه قصاصة ورق ويعطينــي إياها وأقرؤها، وأجد فــي أعلاها مطبوعاً رقم (A 52)، وأقــول ربما مشــى في الاتجاه الخطــأ، ويجب عليه أن يدير جســمه ويعود إلى الخلف، وســألني مــا المكتوب على قصاصة الورق؟ أقول الرقم (A 52). ويســألني ما معنى ذلك؟ أقول عندما تصل إلى مؤسســة الخدمات الجنائزية ينادى على

الرقم، ورقمك هو (A 52). يومئ برأسه ويدير جسمه ويمشي، ويدق بعكازه أديم أرض ليس لها صدى صوت، وبعد أن يمشـــي بعيدًا، تنتابني الشـــكوك بأنني أرشـــدت هذا الميت فاقد البصر إلى الاتجاه الخطأ؟ وذلك لأن نفســـي حاليا تضل الطريق وضاع منها الاتجاه.

اليوم الثاني

امرأة غريبة تنادي اسمي: «يانغ فيي..».

ويبدو أن النداء يأتي من مسافة قصيّة جدًا، وتتبدد موجاته الصوتية عندما يترامى إلى مسامعي، ثم يشبه تنهيدة ترتطم بالأرض. وأجيل بصري في كافة الأنحاء، ولا أميز بجلاء اتجاه الصوت، غير أني أشعر بأن النداء المتقطع يأتي موجة صوتية الواحدة تلو الأخرى.

«يانغ فيي.. يانغ فيي..».

أستيقظ في المكان الذي جلست فيه أمس، حيث جلست فوق مقعد خشبي طويل يعاني من العفن، وأشعر بأنه مهزوز ومتزعزع، ثم ما لبث أن استقر على الأرض كأنه حجر. تتساقط مياه المطر بصورة متتالية وسط كرات الثلج المتطايرة، وقطرات الماء البيضوية تنفلق وتقذف المزيد من قطرات الماء بشكل أكبر، والتي يستمر بعضها في السقوط، وبعضها يتلاشى وسط كرات الثلج.

شاهدت المبنى القديم الحميم خلف الأمطار، والثلج يختفي تارة ويظهر تارة أُخرى، وفي داخله شقة تتألف من حجرة واحدة ويسجل على جدرانها ظلال أجسامنا وأصواتنا أنا وزوجتي لي تشينغ. جئت إلى هنا في الظلمة الحالكة، وأجلس فوق المقعد

الطويل المســتقر علــى الأرض، وتهدأ مياه الأمطار المتســاقطة وكــرات الثلــج المتطايرة تمامًا. وأجلس وســط هذه الأجواء من الهدوء والسكون، وتلح عليّ الرغبة في النوم، وأغمض عيني مرة أخــرى. وبعد ذلك، رأيت في منامي لي تشــينغ الجميلة الذكية، كمــا رأيت حبنا الذي كان مثل زهرة مــا إن تفتحت حتى ذبلت، كما رأيــت أيضًا زواجنا الذي ما إن تألق نجمه حتى أفل. وذاك العالم يندثر الآن، والأحداث الماضية فيه تدور في ذهني وأنا في الحافلة، ويجول في خاطري صورة لي تشــينغ تملأ عليّ أقطار نفسي للمرة الأولى.

* * *

تتزاحم أجســادنا أنا وســائر الركاب داخــل الحافلة وتترنح وتتمايــل يمنة ويُســرة، ويجلس أمامي راكب ينهــض وينزل من الحافلة، وعندما كنت أســتعد بجانب جســمي للجلوس مكانه، ظهر شبح إنسان وشغل المقعد الذي يجب أن أجلس فيه. وشعرت بالدهشة من أن هذا الشبح يتمتع بالسرعة في اقتناص الفرص، وفي الحال شــاهدت معالم امرأة حســناء وجميلة، إنه الجمال الذي يلجم المرء بالدهشــة. وترفع وجهها قليلا وتتهمك نظرات الرجال في الحافلة في متعة رؤية وجهها حتى ينسوا العودة إلى ديارهم، بيد أن تعابير وجهها تعلوها أمارات متعالية من الصلف والكبرياء، ويبدو أنها تنخرط في التفكير،وتحدثني نفســي أنها اســتولت على مقعدي، ومع ذلك لــم ترمقني بنظرة، على الرغم من أنني أشــعر بغبطة غامرة حيث أســتطيع بين الفينة والفينة التمتع بنضارة بشــرتها البيضاء وقسمات وجهها التي في غاية الجمال في طريق يعج بالزحام والضوضاء. وبعد خمس محطات

أشق طريقي وسـط الزحام نحو باب الحافلة، وتوقفت الحافلة ويفتح الباب، ويتزاحم الركاب ويتدافعون في النزول من علبة السردين، ويبدو أن الحافلة قذفتني إلى الخارج، وعندما كنت أترجل فوق رصيف المشاة، شعرت بأن نسمة تداعب وجهي لأنها تجاوزتني بخطوات واسعة وفي الخلف أرى ملابسها تتطاير، وخطوات مشيتها، وتأرجح ذراعها بصورة كبيرة جدًا، وعلى كل حال، تبدو أنيقة جذابة تخطف الأنظار والألباب.

وأقتفي أثرها وتدلف إلى مبنى إداري، وتدخل المصعد بخطوات سريعة، ولم ألحق المصعد، وعندما أوصد بابه، رأيت عينيها، ولكن كانت تنظر خارج المصعد، ولم ترني.

واكتشفت أنها تعمل معي في نفس الشركة، وكنت التحقت بالعمل في الشركة توًا آنذاك. وأنا موظف بسيط في الشركة لا يجذب الانتباه، أما هي فنجمة، وجمالها وذكاؤها يخطفان الأبصار من كل حدب وصوب. وتصطحب دائمًا رئيس الشركة في ولائم المحادثات التجارية، وقد شاركت في الكثير جدًا من المفاوضات التجارية. والموضوع الرئيس في حفلات العشاء تلك مناقشة المرأة، أما موضوع التجارة فيجري ذكره عرضيًا. واكتشفت أن مناقشة موضوع المرأة يستطيع أن يجعل هؤلاء الرجال الناجحين يتوصلون إلى تفاهم في الآراء والعواطف، فقد تعارفوا توًا قبل عدة ساعات، وأصبحوا أصدقاء حميمين أعزاء بعد بضع ساعات، ولذلك فالتعاون التجاري ينجح دائمًا ما دامت الشروط توافرت، وقد قيل إنها لطيفة بطبعها على طاولة الخمر، وتتمتع بالذكاء في المخالطة والمعاشرة، وتجعل هؤلاء الرجال الناجحين الذين يفكرون فيها وترفض طلبهم،

يغرقون في الضحكات البلهاء، وقدرتها على احتساء الخمر تذهل الجميع، وتســتطيع تناول الأنخاب بلا انقطـاع مع هؤلاء الزبائن، وتجعلهم يسقطون تحت الطاولة الواحد تلو الآخر، وهؤلاء الزبائن الســكارى جداً يحبون أن ترويهم لي تشــينغ بالخمر حتى الثمالة فــي المرة المقبلة، وعندما يحددون موعــدًا في الهاتف ويحضرون الوليمة القادمة يوصون رئيس شركتنا مرارًا وتكرارًا ويقولون: «لا تنس أن تحضر معك لي تشينغ».

تغار الفتيات في الشــركة من لي تشــينغ، ويتجمعن دائمًا ثُلاثَ وخُماسَ في وقت الظهيرة، ويتناولن الغداء أمام النافذة، ويناقشــن بصوت خفيض تجارب حبها الفاشــلة بصورة مستمرة وأصدقائها فــي الحب من أولاد القادة في المدينة، وهم يشــبهون عصا التتابع ينقلون تاريخ الحب الذي من الصعب فيه التمييز بين الحب الحقيقي والحب المزيف، وأحيانا تمر لي تشــينغ أمام هؤلاء الفتيات اللاتي ينخرطــن في الجدل الفارغ، وتدرك أنهــن يتحدثن عن كيفية أنها أصبحــت أداة في أيدي هؤلاء الأولاد لترويج الشــائعات، ولا تزال تقابلهن بوجه بشــوش وكأن شــيئًا لم يكن، حيث ثرثرتهن وكلامهن البطال بالنسبة لها مجرد رذاذ مطر متناثر لا يحتاج إلى الشمسية. لي تشــينغ تزهو بنفســها إعجابًا وافتخارًا، وفــي الواقع إنها تنبذ أولاد القادة، وليســوا هم يرفضونهــا. ولا تتحدث إطلاقا في هذا الموضوع مع الآخرين لأنها تفتقر إلى صديق داخل أروقة الشــركة، وفي الظاهر تربطها وشائج طيبة مع العاملين هناك، ولكن تشعر - دائمًا وأبدًا - في مناحي النفس بأنها تعيش بمفردها.

ثُلــة كبيرة من الشــباب تخطب ودها، وترســل إليها الهدايا والزهــور اليانعة، بل وفي بعض الأحايين ترســل عدة هدايا في

آن واحد، وهي ترفض هذه الهدايا بأدب وفي ابتســامة لطيفة. وهناك شــاب في شــركتنا يواظب ويثابر في ســعيه نحو حبها، ويرســل لهــا الزهور والهدايا لمــدة عام ونيف، وبعــد أن لفظته، لم يكن في الحسبان أنه يخطب ودها بأسلوب تحطيم القدور وإغراق السفن. يتدافع العاملون بالشــركة إلى المصعد الواحد تلو الآخر أثناء الانتهاء مــن دوام العمل، وهو يحمل في يده باقة ورد ويركع أمامها على مرأى ومسمع من الناس. وظهور هذا المشهد المباغت جعلنــا نقف مبهوتين مشــدوهين، وكان رد الفعل من قبل الجميع الهتاف والتصفيق إزاء جسارته، وآنذاك تبتسم وتخاطبه قائلة:

«عندما تخطب ودي تركع، ولكن بعد الزواج لا تركع أبدًا».

يقول: «أرغب في الركوع من أجلك طوال حياتي».

تقول: «حســناً، أنــت تركع هنا طوال حياتــك، وأنا لا أتزوج طوال عمري».

تتفوه بتلك الكلمات وتدور حوله وهو راكع، وتدلف إلى داخل المصعد، وعندما يغلق بابه، كانت تنظر إلى الخارج وتبتسم، وفي تلك اللحظة رمقتني بنظرة، وشاهدت تعابير وجهي القلقة حيث إنها قاســية لا ترحم، وربما يتعين عليها الهدوء، مما جعل بدني يقشعر ويرتجف خوفًا إلى حد ما.

يعــم الهدوء والســكون رويدًا رويــدًا، لأن أصــوات الهتاف والتصفيق لا تتماشى مع ما حدث. والشاب الراكع الذي يخطب ودهــا يحملق في وجوهنا في ارتبــاك وحيرة، ولا يدري إذا كان يجب عليه أن يســتمر في ركوعه أم ينهــض واقفًا. وترامى إلى مسامعي بعض أصوات قهقهات غريبة، وبضع من النسوة يخفين ضحكاتهــن، ونفر من الرجال يتبادلــون النظرات ويدوي صوت

ضحكاتهم: هيـــه! هيه! يدخلون المصعد، وبعـــد أن يوصد بابه، نســـمع في داخله نوبـــة من الضحكات العاليـــة، وتهبط أصوات قهقهـــات الضحك مع المصعد إلى أســـفل، وأصـــوات الضحك الهابطة يشوبها السعال.

كنت آخر موظف في الشـــركة ينصرف من مكان ذلك المشهد المباغت، وكان ذلك الشـــاب لا يزال راكعًا هناك، وجال بخاطري أن أتجـــاذب معه أطـــراف الحديث، ولكـــن لا أدري ما يجب أن أقولـــه، ويحدق في وجهـــي مرات عديدة، وتعلـــو وجهه ضحكة بلهـــاء، كأنه يريد أن يتفوه بكلمـــات، ولكنه لم يفه بحرف أخيرًا، ينكس رأســـه، ويضع باقة الـــورد على أديم الأرض، وينهض على ركبتيه. وأشعر أنه لا يجوز المضي قدمًا في الوقوف هنا، وأدلف إلى داخل المصعد الخاوي من البشـــر، وشـــعرت بأن مشـــاعري تغوص في أعماقي عندما كان المصعد يهبط إلى أسفل.

لم يذهب ذلك الشـــاب إلى الدوام فـــي اليوم التالي، ومن ثم أصوات الضحك في الشـــركة مجهـــورة، والأحاديث تدور حول ركوعـــه وتطلعه إلـــى مخاطبة ود تلك الحســـناء، ويقول الرجال والنساء إنهم جاؤوا إلى الدوام ويغمرهم الفضول، وعندما يفتح باب المصعد تشـــرئبّ أعناقهم لرؤية إذا كان الشاب راكعًا هناك أم لا.

وشـــعر نفر منهم بالحزن لأنه لم يواصل ركوعه، وكأن الحياة فقدت أحد مباهجها بصورة فجائية. وقدم استقالته بعد الظهر، وحضر إلى أسفل بناية الشركة، واتصل هاتفيًا بأحد معارفه من زملائه، والذي يستقبل المكالمة ويقول:

«مشغول الآن».

يضع سماعة الهاتف، ويلوح بيديه ويخبر الجميع بصوت عال: «لقد استقال من العمل، ولا يجرؤ أن يحضر هنا، يطلب مني مساعدته في جمع أغراضه وإرسالها إليه أسفل المبنى».

وبعدأن تدوي نوبة من قهقهات الضحك، يستقبل زميل آخر له مكالمة هاتفية ثانية منه، بيد أنه يقول بصوت مرتفع: «مشغول جدًا، أحضر بنفسك هنا».

يضع سماعة الهاتف، ولا يذكر أنه اتصل به هاتفيًا، وتدوي قهقهات الضحك مرة أخرى وتحدث دويًا. أنهض واقفًا بعد أن ترددت، وأتقدم نحو مكتبه هناك، وأقوم أولا بتصنيف الأشياء فوق المكتب، كما أستل الأشياء المتعلقة به من داخل الأدراج وأضعها فوق المكتب، ثم أبحث عن حقيبة ورقية وأدس فيها كافة الأشياء المتعلقة به. وفي غضون ذلك، اتصل بزميل ثالث وسمعته في الهاتف يخبره قائلا:

«يجمع يانغ فيي أمتعتك الآن».

أحمل الحقيبة الورقية وأغادر مبنى الإدارة، وكان يقف هناك ويظهر عليه التعب والإرهاق الشديدان، وسلمته تلك الحقيبة، ولم ينظر إليّ بملء عينيه، ويأخذ الحقيبة ويشكرني، ثم يدور بجسمه وينصرف. رأيته ينكس رأسه ويعبر الشارع الرئيس، وتتلاشى صورته في خضم تدفق الغرباء بالشارع، ويغص قلبي بمشاعر من الصعب وصفها، لقد عمل في الشركة خمس سنوات، ولكن زملاء العمل في الشركة - بالنسبة له - لا يختلفون عن الغرباء في الشارع.

أعود إلى مكتبي، وبعد أن أجلس في مقعدي، يأتي رهط من موظفي الشركة يسألونني عن الحديث الذي دار بيننا، والملامح

والتعابير التي تعلو وجهه. ولم أرفع رأسي، وأنخرط في مشاهدة شاشة الكومبيوتر، وأقول بقلة اكتراث:

«تسلم الحقيبة الورقية وانصرف في التو».

في ذاك اليوم، المنطقة الإدارية، التي نعمل فيها ومساحتها ألف متر ونيف، تزخر بمشاعر البهجة والغبطة. وأنا أعمل في الشركة منذ عامين، وهذه المرة الأولى التي أرى فيها كثيراً من الموظفين يشعرون بالسرور في آن واحد، ويتذكرون مشهد ركوع ذلك الشاب أمس، ثم يسردون بعض المواقف المضحكة التي ألمّت به في الماضي، وذكروا أنه تعرض للسلب والنهب عندما كان في نزهة على الأقدام داخل حديقة، حيث اعترض طريقه اثنان من قطاع الطرق في وضح النهار، ويسألانه:

«أيوجد قسم شرطة قريب من هنا؟».

يجيب: «لا يوجد».

ويكرران سؤالهما مرة أخرى: «حقًا، لا يوجد، أليس كذلك؟».

يجيب: «لا يوجد بكل تأكيد».

ثم يطوقان رقبته بسكينين، ويطلبان منه أن يستل بطاقة نقوده ويسلمها لهما..

وينخرطون في الضحك بلا انقطاع، وكنت الوحيد الذي لم يضحك تقريبًا، ثم ركزت انتباهي في عملي، وعزفت عن الاستماع إلى أحاديثهم. ونهضت من مكاني مرتين لتصوير وثائق، وآنذاك كان الالتقاء بنظراتها بالمصادفة حيث تجلس أمامي بميل، وأدور برأسي في التو، ولم أنظر هناك حيث تجلس مرة أُخرى منذ ذلك الحين فصاعدا، وبعد ذلك، بضعة رجال يتقدمون إليها ويتملقونها، ويقولون:

«بغض النظر عما حدث، فأنت تستحقين أن يركع من أجلك».

وسـمعت إجابتها السـاخرة: «وأنتم تفكرون أن تحذوا حذوه أيضًا».

ويقول هؤلاء الرجال الواحد تلو الآخر وسط دوي الضحكات: «لا نجرؤ، لا نجرؤ..».

فـي هذه اللحظة أضحك بصوت هـادئ من أنها تتكلم دائمًا بكلمات الود والصداقة، وهذه هي المرة الأولى التي أسمعها تتفوه بكلمات لاذعة ساخرة، وتغمرني سعادة غامرة.

وربما كنت أنا الشـاب الوحيد من بين شباب الشركة لم يسع إلى إقامة علاقة معها، على الرغم من أن جيشـان الحب يرتطم في قلبي، وأدركت أنه الحب في السر، وعلى كل حال، إن مركّب النقص جعلني أشعر بأنه لا يمكن أن يربط بيننا الحب. والمسافة بين مكتبينا قريبة جدًا، ولم أبـادر أبدًا بالحديث معها. يكفيني أن أشـعر بالسـعادة من أنها قريبة مني، وكذلك صوتها أيضًا، وبعد ذلك سعادة خفية في سويداء قلبي، لا يدري بها أحد، وهي لا تعرف ذلك أيضًا. وهي تعمل في قسـم العلاقات العامة، وأنا في قسم التسويق، وتأتي إليّ مصادفة وتسألني عن بعض المسائل المتعلقة بالعمل، وأتفـرس معالم وجهها بنظرات عادية، وأنصت باهتمام إلى كلامها، وأجيب عن تساؤلاتها. وفي تلك اللحظات، أشـعر بمتعة كبيرة جدًا حيث أستطيع التلذذ بملامحها الجميلة بأدب واحتشـام. ولا أعرف ما السبب الذي جعلني لا أجرؤ على أن أحملـق فـي عينيها مرة أخرى بعد أن عاملت ذاك الشـاب، الذي ركع أمامها من أجل أن يخطب ودها، بقسـوة وبلا رحمة. وعلى أية حال، تأتي إليّ دائمًا وتسـألني عن موضوعات خاصة

بالعمل بصورة أكثر من ذي قبل وبشكل جليّ، وكل مرة أنكس رأسي وأرد على سؤالها.

وبعدانقضاء بضعة أيام، انتهيت من الدوام متأخرًا بعض الشيء، وهي في الطابق الإداري العلوي ركبت المصعد توًا، وعندما هبط المصعد وفُتح بابه رأيتها بمفردها داخله، وترددت أدخل المصعد أم لا، ووجدتها تضغط على زر المصعد حتى يبقى الباب مفتوحًا، وتقول:

«ادخل».

أدخل المصعد، وكانت هذه المرة الأولى التي نلتقي فيها معًا بصورة منفردة، وسألتني: «كيف حاله؟».

أصابتني الحيرة والارتباك في البداية، ثم فهمت أنها تسأل عن ذاك الشاب الذي ركع طالبًا خطبة ودها، فأقول: «تظهر عليه علامات الإرهاق الشديد، وربما يتجول في الشوارع طوال الليل».

سمعت صوت تنفسها العميق، وتقول: «تصرفه على هذا النحو جعلني في حيرة وارتباك».

أقول: «كما أوقع نفسه في ورطة ومأزق».

أرى أرقام الطوابق تلتمع عندما يهبط المصعد إلى أسفل.

وتسألني فجأة: «أتشعر بأنني قاسية إلى حد ما؟».

أشعر بأنها تتسم بقساوة القلب بعض الشيء، ولكن صوتها مشوب بالعزلة والوحدة، مما جعلني أشعر بالحزن من أجلها على حين غرة. وأقول: «أشعر بأنك تعانين كثيرًا من الوحدانية، ويبدو أنك تفتقرين إلى الأصدقاء».

عيوني تخضبها الدموع بعد أن تفوهت بتلك الكلمات، ولا يمكن أشتاق إليها في لحظات الليل البهيم لأنني أحذر نفسي

دائمًا، فهي فتاة لا تربطني بها ثمة علاقة، بيد أنني في تلك اللحظة شعرت بالحزن بصورة فجائية من أجلها. تمد يدها وتتحسس ذراعي، أخفض رأسي وتعطيني علبة مناديل ورقية، وأنزع منها منديلا، وأردها إليها، ولكنها غابت عن وجهي.

في الأيام التالية، أصبحنا كما كنا في الماضي، يحضر كل منا إلى الدوام، وينصرف بعد انتهاء الدوام، وكانت تأتي إليّ دائمًا وتسألني عن بعض الأشياء المتعلقة بالعمل، وما زلت أحدق فيها بنظرات عادية وأستمع إلى كلامها وأجيب عن سؤالها. وبالإضافة إلى ذلك، لا تربطني بها ثمة علاقة. وعلى الرغم من أننا نلتقي في الشركة عند الدوام في الصباح الباكر، وتلتمع في عيونها بعض أمارات الإعجاب، ولكن التجربة البسيطة في المصعد لم تجعلني أغرق في الأوهام، غير أن هذه التجربة جعلتنا زملاء في العمل تربطنا علاقة حميمة. وأشعر بالرضى التام عندما أتذكر أنني يمكن رؤيتها في الدوام، ولم أدرك البتة أنها بدأت تقع في غرامي.

كانت الفتيات آنذاك يشعرن بالفخر أن تتزوج إحداهن من أولاد القادة، ويستثنى من ذلك لي تشينغ، فهي برؤيتها الثاقبة تستطيع أن تميز من أولاد الذوات الإنسان الذي يمكن أن يكون رفيق عمرها. وهي تحضر مع رئيس الشركة حفلات عشاء المحادثات التجارية، مما وسع دائرة معارفها بعدد غير قليل من الرجال الناجحين الذين يركضون وراء نساء أخريات خلف ظهور زوجاتهم، وكانت شديدة الاهتمام بأقوال وأفعال هؤلاء الرجال. وربما حنّكتها تلك التجارب وحددت معيارها في الاختيار، وهو البحث عن رجل مخلص وموثوق فيه، وقابلتني أنا بالمصادفة.

بلادتي وحماقتي في العواطف والمشاعر تشبهان غرفةً بابُها ونافذتُهــا موصودان بإحكام شــديد، وذلك علــى الرغم من أن خطوات الحب تترامى إلى مســامعي وتذرع المكان جيئة وذهابًا أمام الغرفة. ولكن أشــعر بأنها خطوات السائر الذي يتجه إلى أناس آخرين. وذات يوم تتسمر تلك الخطوات هنا، ثم يدق جرس الباب.

كان ذلك في إحدى أصائل فصل الربيع، والشركة خاوية على عروشها، وعندي بعض الأعمال أنجزها في وردية إضافية وتأتي إلي. وســمعت بجواري قعقعات حذائها ذي الكعب العالي يرتطم بــأديم الأرض من الرخام، ورفعت رأســي وأحــدق فيها ورأيت ابتسامة ترتسم على ثغرها.

تقول: «غريب جدًا، رأيت في حلمي مساء أمس أننا تزوجنا».

أصابني الذهول الشــديد، وتجحــظ عيناي، وهل من الممكن تحقيق ذلك؟ ولم أنبس ببنت شــفة آنــذاك، تحملق في وجهي، ويبدو أنها غارقة في بحر من التفكير، وتقول: «غريب حقًا».

تتفوه بتلك الكلمات، وتلف جسمها وتتصرف. وصوت ارتطام حذاء الكعب العالي بأديم الأرض يشبه نبضات قلبي التي تدوي دائمًا، وتتلاشى قعقعات ذلك الحذاء، لكن نبضات قلبي تتسارع وتدوي.

هدهدتني الأوهام، وروحي تفارق بدني في الأيام التالية، وفي جوف الليل حيث الهدوء والسكون أتذكر تعابير وجهها وملامحها ولهجتها عندما نبســت بتلك الكلمات، وأخمن بحذر شــديد إذا كانــت ترغب فــي الزواج مني أم لا؟ وأقدح زنــاد ذهني في آناء الليل وأطراف النهار. وفي مســاء ذات يوم رأيت في حلمي أنني

تزوجتهـــا، وما رأيته ليس مشـــهد الجلبـــة والضوضاء في حفلة الزواج. بل رأيت مشهد يدي تعانق يدها ونمشي سويًا في الشارع قاصدين مكتب تسجيل الزواج. وفي اليوم التالي، وعندما رأيتها في الشركة أحمر وجهي وانتفخت أوداجه، واكتشفت ذلك بنظرة ثاقبة، وانتهزتْ فرصة أنه لا يوجد أحد بجوارها، وسألتني:

«لماذا علامات الحمرة تعلو وجهك عندما رأيتني؟».

تنطوي نظراتها على تهديد ووعيد، وأنأى بنفسي عن عيونها، وأقول وفرائصي ترتعد: «مســـاء أمس رأيت في حلمي أنا وأنتِ نسجل زواجنا».

يفتر ثغرها عن ابتسامة، وتقول بصوت خفيض: «أنتظرك في الشارع المقابل للشركة بعد انتهاء الدوام».

حدث ذلك في يوم طويل وبطيء يشبه سنوات شبابي الطويلة. وتفكيري مشـــتت ومبعثر في العمل، وعندما أتحدث مع أقراني أجيب عن أســـئلة لم يســـألوها، والســـاعة المعلقة على الحائط تبدو عقاربها بطيئة كلما تقدمت إلى الأمام، مما جعلني أشـــعر بصعوبة في التنفس أكثر فأكثر. وعانت نفســـي وقاسيت بمرارة مـــن تباطؤ الوقت، وأخيرًا انتظرت حتى انتهى الدوام. وعلى كل حال، ما زلت أشعر بضيق التنفس عندما كنت واقفًا في الشارع المقابل للشـــركة، ولا أدري إذا كانت في وردية إضافية أم تتعمد قتـــل الوقت وتختبرني، وانتظرت حتى غشـــي الليل ورأيتها أمام بوابة الشـــركة، وتوقفت لحظة على الســـلم، وتجيل بصرها في الجهات الأربع، وتهرول على السلم بعد أن رأتني، وتأخذ حذرها من الســـيارات وتعبر الشـــارع وتركض حتى بلغت أمامي، وتقول والضحك يملأ شدقيها:

«أأنت جائع؟ أدعوك إلى تناول الطعام».

تفرغ من كلماتها وتمسك ذراعي بحرارة، ونمشي إلى الأمام سويًا كأننا لسنا في موعد الغرام الأول، بل يربطنا الحب منذ ردح طويل. وبادئ ذي بدء تلجمني الدهشة ثم تغمرني السعادة في الحال.

في الأيام التالية، كنت أسأل نفسي دائمًا إذا كان ذلك حقيقة أم مجرد خيال؟

وتواعدنا أن نلتقي في محطة الحافلات صباح كل يوم، ثم نستقل الحافلة وندلف إلى الشركة، وأنا أذهب إلى هناك في المحطة قبل الموعد بأكثر من ساعة، وقلبي راجف واجف عندما لا تظهر أمامي، ولا يهدأ قلبي ونفسي إلا عندما أرى ملامحها الجذابة وطلعتها الباهية وهي مقبلة نحوي بخطوات سريعة ويتأرجح ذراعاها، وأؤكد وقتئذ أنه ليس خيالاً، بل حقيقة ماثلة أمام عيني.

ندلف إلى الدوام معا، وننصرف من الدوام سويًا، وبعد زهاء عشرة أيام لم ينتبه أقراني في الشركة إلى أننا نتبادل أحاديث الهوى، وربما هم مثلي كما كنت في الماضي، يعتقدون من المستحيل أن نقع في حبائل الحب. وفي بعض الأحايين، ينتهي الدوام وأنا قد أنجزت أعمالي، أما هي فلا تزال تكمل أعمالها، وأتسمر في مقعدي، وأنتظرها.

سألني أحد الزملاء عندما كان ينصرف: «لماذا ما زلت جالسًا ولا تتصرف؟».

أجيب: «أنتظر لي تشينغ».

أرى ابتسامة عجيبة ترتسم على وجه زميلي كأنه يسخر مني،

ويرى أنني على وشك أن أكون مثل العربة التي سارت في الطريق الذي انقلبت فيه العربة السابقة. وفي أوقات أخرى، كانت تنتهي من أعمالها، بينما أنا لا أزال أكمل عملي، وتجلس بجواري.

تتبايـن وجوه الزمـلاء الذين ينصرفون، ويسـألونها وعلائم الدهشة والذهول تعلو وجوههم: «ما زلت هنا، لماذا لا تنصرفين؟».

تجيب: «أنا أنتظره».

انتشار خبر حبنا أحدث جلبة وضوضاء في الشركة، واستعصى علـى الرجال فهم ذلـك، ويعتقدون أن لي تشـينغ تزدري أولاد القادة في الحضر، وتحترمني أنـا الذي عمت عيناه عن رؤوس البطيخ ويلتقط بذور السمسم، ويشعرون بأن ذواتهم ليست أقل شأنًا مني البتة، ومن ثم يشعرون بالغضب والغيظ بعض الشيء، ويتحدثون سـرًا ويقولون: «حشـر الزهور اليانعة في روث البقر حقيقة فعلا، وضفدع الطين يتشوق إلى لحم الوز حقيقة أيضًا». أما النساء فيفرحن في مصائب الآخرين ويبتسمن ابتسامة ذات مغزى عند رؤيتي، ثم يتبادلن النصح السـديد، ومفاده أن البحث عن رفيق العمر لا يحتاج إلى كثير التدقيق في الاختيار، والعثور على الشـخص المناسـب يكون معقولاً، ويتأملن حالة لي تشينغ التـي وقعت في معتـرك الاختيار مرات عديـدة، وكانت نتيجة اختيارها سلعة زهيدة الثمن.

وننخرط في قصة حبنـا، ومثل تلك التعليقات الموجهة إلينا ترعبنا - كما ذكرت لي تشينغ - رعبَ حفيف الأوراق في الريح. وكانت تشـعر بالغضب أيضًا أحيانًا، وعندما عرفت أنهم يقولون عني روث البقر، وضفدع الطين، وسلعة رخيصة، تكلمت بفظاظة وخشونة، ونعتتهم بأنهم هراء وكلام فارغ.

تسمر نظرها في وجهي، وتقول: «أنت أنيق جدًا».

أقول وتعتريني عقدة النقص: «أنا - في الحقيقة - سلعة رخيصة».

تقول: «لا، أنت نقي السريرة، وموثوق فيه».

تتعانق أيدينا ونمشي في الشارع يلفه ظلام الليل، ثم نجلس على مقعد في مكان منعزل غير مطروق بالحديقة فترة طويلة، وتشعر بالإرهاق وتسند رأسها على منكبي، وأمد يدي وأسحب ذراعها. وعندما كنا هناك، أطبع قبلة للمرة الأولى، وهي تقبّلني للمرة الأولى أيضًا. وبعد ذلك، نمكث دائمًا في الغرفة الصغيرة التي استأجرتها، وكشفت لي النقاب عن جانب الوهن والضعف لديها، وسردت متاعبها عندما تصطحب رئيس الشركة وتشارك في جميع مآدب المحادثات التجارية، وهؤلاء الرجال الناجحون تعبير عيونهم طيب وكلامهم قبيح، وتمقتهم في أعماق قلبها، وما زالت تقابلهم بوجه بشوش وتتبادل معهم الأنخاب بلا انقطاع، ثم تدلف إلى دورة المياه وتتقيأ، وبعد ذلك تواصل الشراب معهم أيضًا، وأن قصص غرام أولاد القادة في المدينة معها مجرد شائعات، وأنها تقابلت مع ثلاثة منهم فقط، وكان التعارف من خلال رئيس الشركة، وهؤلاء الثلاثة يتحلون بالمظاهر المختلفة من ابن الأمير، وابن موظف حكومي كبير، والأخ الكبير. الأول يختال بصلف وكبرياء في حديثه، والثاني يرمقها دائمًا بنظرات غريبة الأطوار، أما الثالث فيشاكسها بمجرد رؤيتها، وتبتسم وتتصدى لجلافته، ويقول لها لا داعي للتظاهر بالأدب. ويقيم أبواها في الريف البعيد، وبعد أن تتعرض لكافة أشكال التعسف والحيف تتصل بهما هاتفيًا، وتريد أن تشكو وتبكي، لكن بعد أن

تســتقبل المكالمة الهاتفية الحزن في قلبها والبسمة على شفتيها، وتخبر والديها بأنها على ما يرام حتى تجعلهما يشـعران براحة البال.

ســرد قصتها جعلني أشـعر بالحزن الدفين، وتحتضن يداي وجهها، وأقبّل عينيها وأحك جلدها حتى تتفرج أســارير وجهها. وتقول إنني أحظــى باهتمامها منذ زمن بعيد، واكتشــفت أنني أعمــل بجد واجتهــاد، وهناك زميل عاطل عن العمل يســتحوذ دائمًا علــى إنجازاتي، ويقدم تقريرًا إلــى الجهات العليا بذلك. لم أحاسبه على تصرفاته بدقة، وأخبرتها أنني أستشيط غضبًا مــرات عديدة حقًا، وأريد اســتجوابه، ولكن كلماتي تحتبس في فمي ولا أتفوه بها.

وأردفت: «وأحيانًا أكره وهني وضعفي».

تتحســس وجهي بيــد تغمرها الحب والحنــان وتقول: «أنت لا تعاملني بقوة وقسوة، أليس كذلك؟».

أرد: «لا يمكن ذلك إطلاقًا».

يتواصــل كلامها، وتقول إنني كنت مكتوف اليدين عندما كان شباب الشركة يحتكمون إلى أساليب مختلفة لخطب ودها، وكان لديها بعض الفضول، وتأتي إليّ وتســألني عن موضوعات تتعلق بالعمل، وأســتطلع نظراتها. وعلى كل حال، تعبير العينين عندي لا يختلــف عن تعبير عيون الرجال الآخرين في الشــركة عندما أنظر إليها، إنه تعبير العينين من الصداقة الخالصة، وبعد ذلك، ومــع حادث ذلك الشــاب الذي ركع طلبًا لخطــب ودها، جعلها تحمل عني انطباعًا جيدًا، وتســترق النظــر إليّ وأنا في خضم أصوات الضحك المدوية أجمع أغراض ذلك الشــاب وأسـلمها

له أسـفل مبنى الشركة. تكف عن الكلام برهة، ثم تقول بصوت خفيض جدًا إنها كلما تسلطت الأضواء عليها في الخارج، تشعر بالوحدانية عندما تعود في المساء إلى غرفتها الصغيرة التي استأجرتها، وفي هذه اللحظة تتوق إلى رجل يبادلها الحب ويرافقها. وعندما تقابلنا في المصعد لفترة وجيزة، خضبت الدموع عيني في تلك اللحظة، وتأثرت بصورة فجائية بالحب الدافئ الذي ينبعث من قلبي الذي يعشقها. وفي الأيام التالية، تشعر بأنني ذلك الرجل الذي يمكن أن يرافقها أكثر فأكثر.

وبعد ذلك، تمسك أنفي برفق شديد، وتسألني: «لماذا لم تركض ورائي وتخطب ودي؟».

أجيب: «ليس عندي هذه الأطماع».

جمعنا الرباط المقدس بعد انقضاء سنة. ومسكن والدي صغير جدًا، ونؤجر شقة من غرفة واحدة باعتبارها شقة جديدة. والدي في نشوة من الفرح لأنني تزوجت فتاة حسناء وذكية، وكانت تعامل والدي معاملة طيبة أيضًا، وفي نهاية الأسبوع نذهب إليه ويأتي إلى بيتنا ويقضي يومًا معنا. وفي كل مرة نذهب لإحضاره، وبعد أن نصعد الحافلة بعد التزاحم والتدافع، نستطيع دائمًا بحركة خفيفة أن نقتنص مقعدًا من أجل والدي، وهذا جعلني أتذكر مشهد رؤيتها للوهلة الأولى، وأبتسم، وعلى كل حال لا أخبرها بذلك أبدًا. وفي عيد الربيع[1] نركب القطار ونسافر

(1) أهم عيد في الصين وأكثر الأعياد التقليدية مهابة وإجلالا. والسواد الأعظم من القوميات في الصين تحتفل به. وتتركز نشاطات العيد في عادات وتقاليد رأس السنة الجديدة من «تنظيف معبد الأجداد وطقوس القرابين»، ويشمل ذلك السجود للسماء والأرض، وتقديم القربان للأجداد والأسلاف، وتقديم التهاني لأفراد العائلة والأقرباء والأصدقاء، ويجسد ذلك اهتمام الأمة الصينية بالوشائج الإنسانية والأخلاق الحميدة. [المترجم]

لزيـــارة والديها، وهما عاملان في مصنع تديره الدولة، ويتمتعان بالأمانة والإخلاص والنية الطيبة، وتغمرهما الفرحة لأن ابنتهما تزوجت رجلاً واقعيًا وموثوقًا فيه.

تنعم حياتنا بالهدوء والجمال بعــد زواجنا، غير أنها مازالت تصطحب رئيس الشركة في حفلات العشاء، وأنتظرها بمفردي في المنزل بعد أن يغشـــى الليـــل، وتعود أدراجها إلـــى بيتها في وقـــت متأخر جدًا دائمًا، وتفتح البـــاب وتدلف إلى الداخل وهي منهكة ومتعبة للغاية، وتفتح ذراعيها وتحتضنني وجســـمها معبأ برائحـــة الخمر، وتتكئ برأســـها على صدري وتســـتريح لحظة، ثم تلقي جســـدها على الفراش. إنهـــا تمقت هذه الحفلات، بيد أنها لا تســـتطيع الاعتذار عن حضورها. وكانت نائب مدير قسم العلاقات العامة في ذلك الحين، وهي تحتقر منصب نائب المدير هذا، وعلى حد تعبيرها فإنه نائب المدير الذي يرافق الندماء في احتساء الخمر. وقد ذكرت لي في الماضي أن الجمال هو رخصة مرور للمرأة، ولكن هذه الرخصة تستخدمها الشركة دائماً، وهي لم تستخدمها أبدًا.

نســـير بخطوات ثابتة علـــى درب حياتنا لمـــدة عامين وأكثر، وبدأنا التخطيط لشـــراء شـــقة خاصة بنا، وفي الوقت نفســـه قررنا إنجاب طفل، وشـــعرت بأن وجود طفل يعتبر بمثابة سبب للاعتذار عن حفلات العشـــاء، ومن أجل ذلك، عزفتً عن تناول حبوب منع الحمـــل، ولكن عقبات ظهرت على طريق تقدمنا إلى الأمام في ذلك الحين. وتجربة ســـفرها في مهمة جعلتها تدرك حقيقة نفسها، كما أدركت حقيقتي أيضًا، وهي تقدر على تغيير مصيرها، أما أنا فأساير التيار الذي يحدده مصيري.

تســتقل الطائرة ويجلس بجوارها حاصل على الدكتوراه كان يدرس في الولايات المتحدة، وأسّـس لتوه مشروعًا خاصًا وشق طريقًا جديدًا، ويكبرها بعشر سنوات، وهو متزوج ولديه أطفال. قدّم لها بحماسة بالغة وصفًا لمشروعه الخاص المبشّر بمستقبل زاهر أثناء فترة الطيران التي اسـتغرقت ساعتين ونيفًا، وأعتقد أن ملامحها الخلابة أسـرته، ولذلك استرسـل في الكلام كأن لسانه شلال لا يهدأ، وقد اصطحبت رئيس الشركة وشاركت في العديد من حفلات المحادثات التجارية، مما أكسبها خبرة جعلتها تتمكـن من طرح عدد غير قليل من الاقتراحات المفيدة، وبعد أن بـات مفتونًا بجمالها الجذاب، شـرع يبدي إعجابه بما تتمتع به من الدقة والجدية والرشاقة، وقدم لها دعوة في الطائرة، قائلا: «تعملين معي؟».

بعد هبوط الطائرة، لم يقم في الفندق الذي حجز فيه غرفة مسـبقًا، بل انتقل إلى الفندق الذي تقيـم فيه تعبيرًا عن رغبته في الاسـتفادة مـن خبراتها بصورة مسـتمرة، وحجّته في هذا الشـأن كانت ظاهرية، ولكن أشعر بأن الأهم من ذلك أنه ما زال مولعًـا بجمالها. يفترقان في النهار حيـث يذهب كل منهما إلى الدوام، وفي المسـاء يجلسان في بار الفندق يناقشان الصعوبات التي تواجه مشـروعه، وتستمر في تقديم الاقتراحات من أجله، ولا تقدم التصورات الجديدة لمشـروعه فحسب، بل تطلعه على الكثير من القوانين الخاصة بتأسـيس المشـروعات في الصين، مثل: كيفيـة التعامل مـع موظفـي الإدارات الحكومية، وكيفية تقـديم بعض المنافع لهم، وهو لا يعي الكثير من القوانين الخفية في واقع الصين، حيث مكث سـنوات طويلة في أمريكا للدراسة.

وعندما يفترقان، يبدي رغبته مرة أُخرى في أن تعمل معه، تبتسم ولا تعده بثمة شيء، وتترك له رقم هاتف منزلها.

في تلك الأثناء، يطرأ تغير على قلبها، ورئيس شـــركتنا يعرف فقــط أنها جميلـــة وذكية، بيد أنه لا يــدرك كفاءتها وطموحها، وشـــعرت أن الشـــاب الذي قابلته على متن الطائرة يستطيع أن يفهمها فهمًا حقيقيًا.

تتنـــاول حبوب منع الحمل من جديـــد بعد أن رجعت أدراجها إلى البيـــت، وتقول إنها لا تتجب أطفالاً بصـــورة مؤقتة، ويدوي رنين جرس الهاتف مساء كل يوم، وتستقبل المكالمة وتتجاذب معه أطراف الحديث لمدة ســـاعة وأكثر أحيانًـــا، وأحيانًا أُخرى لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. في البداية كنت أستقبل المكالمة دائمًا، وفيمـــا بعد لم أضطلع بذلك حينما يـــدوي رنين جرس الهاتف. وكلامهـــا في الهاتف يتركز كله حول أعمال شـــركته، ويســـألها وهـــي تجيب بعد إمعان التفكيـــر. وفيما بعد كانت تأخذ الهاتف وتســـمع كلامه، وقلما أن تتفوه بالكلام، تضع سماعة الهاتف ثم تنخرط في تفكير عميق، وتدرك بعد برهة أنني أجلس بجوارها، ولا تدخر وســـعًا حتى تجعلني أبتســـم، وتنتابني مشاعر مسبقة مفادها أن دفة حديثهما شـــهدت تغييرًا، ولم أنبس ببنت شـــفة، ولكن موجات الحزن والألم تتدفق في قلبي.

بعد نصف ســـنة زار مدينتنا التي نقطن فيها، وكان انتهى من إجـــراءات الطلاق وقتئذ، وذهبتْ إلى الفندق الذي يقيم فيه بعد تناول طعام العشاء، وقبل أن تتصرف أخبرتني بأنها تذهب إليه. وأجلس على الأريكة طول الليل، وذهني صفحة بيضاء وتفكيري يـــكاد يموت. ولم ترجـــع إلى البيت إلا عند انبـــلاج النهار، ودار

بخلدها أنني أغط في نومي، وتفتح الباب بحذر شـــديد، وتراني أجلـــس على الأريكة، ولم تتمالك نفســـها وأصابها الارتباك، ثم تتابها مشاعر الجبن وهي تدلف إلى الداخل وتجلس على مقربة مني.

تتحلى بالثقة في نفســـها على هـــذا النحو دائمًا، وكانت هذه المرة الأولى التي أراها جبانة، وتنكس رأسها في ارتباك، ويتهدج صوتهـــا وتخبرني بأن ذاك الشـــاب قد طلق زوجتـــه من أجلها، وتشـــعر بأنها يجب أن ترافقه لأن التطلعات المشـــتركة تربطهما ويســـيران علـــى الدرب الواحد. لـــم أتفوه بحـــرف، وتكرر على مســـامعي أنه طلق زوجته من أجلها، وســـمعت نبرة التوكيد في كلامهـــا. أقلّب الموضوع في رأســـي؛ أي رجل يرغب في الطلاق مـــن أجلهـــا. ومازلت ألتزم الصمـــت، ولكن نفســـي أدركت أنها فقدتهـــا، وفهمت أنها عندما ترافقني تســـتطيع فقط أن تعيش حياة ســـهلة وناعمة وعادية، أما مع ذلك الشاب فيمكن أن تفتح مجالاً للمصالح، وفي الحقيقة لدي شـــعور مســـبق خفي منذ ما قبل نصف ســـنة مفاده أنها سوف تفارقني، ويقوى ويتعاظم هذا الشعور منذ سنة، وفي هذه اللحظة أصبح حقيقة.

تتنفس نفسًا عميقًا وتخاطبني: «الطلاق».

أقول: «حسنًا».

أفرغ من كلامي، ولم أتمالك نفســـي، وتسح دموعي، وعلى الرغم من أنني لا أرغب بالانفصال عنها، ولكن أفتقر إلى المقدرة لإجبارها على البقاء معي. ترفع رأســـها وتحدق في وجهي وأنا أنتحب وأبكـــي، فانخرطت في البكاء أيضًـــا، وتكفكف دموعها بيدها، وتقول:

«آسفة، آسفة..».

أمسح دموعي، وأقول: «لا داعي للأسف».

نغشى الشركة معًا كما كانت عادتنا في الماضي في صباح هذا اليوم، وأطلب إجازة شخصية لمدة يوم، وهي تقدم استقالتها، ثم نسير في الشارع المؤدي إلى مكتب إجراءات الطلاق. تعود أدراجها أولا لترتيب الحقائب، وأنا ذهبت إلى البنك وسحبت الوديعة المالية التي نمتلكها سويًا وتُقدر بأكثر من ستين ألف يوان، وهي الوديعة التي كنا نعتزم بها شراء شقة، وسلمتها الوديعة بعد عودتي إلى البيت، وترددت بعض الشيء وأخذت فقط عشرين ألفًا. أطأطئ رأسي تلميحًا بأن تأخذ الوديعة كلها، وقالت تكفي عشرون ألفًا. وقلت: تأخذين مبلغًا ضئيلاً يجعلني أشعر بالقلق. تحني رأسها وتقول: لا داعي للقلق، ويتعين عليّ معرفة قدرتها وهي تعالج كل شيء معالجة صحيحة. تضع عشرين ألف يوان في حقيبة يدوية، والمبلغ الباقي أكثر من أربعين ألفًا فوق الطاولة. وبعد ذلك، تجيل بصرها بمشاعر عميقة في الشقة التي شهدت حياتنا المشتركة، وتخاطب الشقة قائلة:

«أنصرف من هنا».

أساعدها في ترتيب ملابسها ولوازمها اليومية، وقد عبأناها في حقيبتين كبيرتين، وحملتهما إلى الشارع أسفل المبنى لتوديعها، وأعرف أنها تذهب أولاً إلى الفندق الذي يقيم فيه ذاك الشاب، ثم يذهبان إلى المطار، وبحثت لها عن سيارة تاكسي، ووضعت الحقيبتين في الحقيبة الاحتياطية للتاكسي. وحانت لحظة الوداع، وألوح لها بيدي، وتأتي إلى وتحتضنني بحرارة شديدة، وتقول لي:

«لايزال حبك في قلبي».

أقول: «أنا أحبك إلى الأبد».

تنخرط في البكاء، وتقول: «سأكتب لك رسالة واتصل بي هاتفيًا».

أقول: «لا داعي للمراسلة ولا داعي للاتصال هاتفيًا، لأن ذلك يجعلني حزينًا ومتألمًا».

تستقل سيارة التاكسي التي عندما تنطلق في الشارع ولم ترمقني بنظرة، وراحت تكفكف دموعها. وانصرفت على هذه الحال، وسارت على درب الحياة المقدر لها.

نبأ طلاقي المباغت وقع على والدي وقوع الصاعقة، وحملق في وجهي بنظرات الدهشة والذهول، وأخبرت والدي سبب طلاقنا بصورة عادية. وذكرت أن زواجي منها كان يعتبر أصلاً سوء تفاهم، لأنني لست جديرًا بها. يومئ والدي برأسه باستمرار، ولا يمكن أن يتقبل كلامي. ويخاطبني بحزن قائلا: «كنت أعتقد دائمًا أنها تنحدر من أسرة طيبة، كانت نظرتي خاطئة».

هاو تشينغ شينغ، ولي بوي جين هما زوجان من زملاء والدي في العمل يعتبرانني طفلهما دائمًا، وألجمتهما الدهشة عندما عرفا نبأ طلاقي. وأكد هاو تشينغ شينغ بحزم أن صديقها ذلك الشاب خداع، وسوف يدهسها بأقدامه، وقال إنها لا تستطيع التمييز بين الجيد والرديء، وإنها ستعض أناملها من الندم بكل تأكيد، وكانت لي بوي جين تحبها هكذا وتقول إنها ذكية وجميلة ونيتها طيبة. والآن تقرر أنها تتعالى وتزدري أفراد طبقتها الاجتماعية، ثم تتنهد وتقول في هذا المجتمع الذي يستحيي من الفقر

ولا يخجل من الدعارة يكثر فيه عدد هؤلاء النسوة اللاتي يتكبرن علـى أفراد طبقتهن الاجتماعية يومًا بعد يوم. تواسـيني لي يوي جين، وتقول إن هذا العالم يضم فتيات أفضل منها وتعرف الكثير منهن، وقدمت إلي عـددا غير قليل منهن، ولكن لم تكلل جهودها بالنجاح في هذا الشـأن. ويكمن السـبب الرئيس في نفسي أنا، في أيام حياتي المشـتركة مـع زوجتي التي غيرتنـي بهدوء وبلا ضجة، وهي تتوسـد قلبي لا تُجارى ولا تُبارى. وكنت لا أتحمل أن أقارنهـا بهؤلاء الفتيات عند مقابلتهن بعد تحديد موعد غرام، ثم لا أستطيع أن أجد راحة لنفسي وسط فقدان الأمل والرجاء.

في السـنوات التالية كنت أشاهدها في التلفاز في حوار مع المذيع أحيانًا، وأحيانًا أُخرى أقرأ أخبارها في الصحف والمجلات. وجعلني ذلـك على دراية بخصالها، كما شـعرت بالاسـتغراب أيضًا، والشـيء المألوف لدي وجهها الباسم ومظهرها وسلوكها، أما الشيء الغريب الذي رأيته مضمون كلامها ولهجتها. وشعرت بأنها الشخصية المحورية في الشركة، وزوجها الشخصية الثانوية. وشعرت بالسـعادة من أجلها، ومازالت تتمتع بالجمال هكذا في الصور التي تنشـرها الصحف والمجلات والتلفـاز، وباتت الآن تسـتغل رخصة جمالها من أجل نفسـها في نهاية المطاف. وبعد ذلك شعرت بالحزن الشديد من أجل نفسي، لقد عشنا معًا لمدة ثلاث سـنوات، ويعتبر ذلك جزءًا من طريقها الأعوج في حياتها، وبعد أن فارقتني تمكنت أن تسير على الدرب المستقيم.

* * *

يترامى إلى مسامعي مرة أُخرى، وسط الهدوء الذي يتلاشى، صورة تلك المرأة الغريبة التي تنادي وتقول: «يانغ فيي..».

أحملق بعينـــي وأجيل بصري في كافة الجهــات، رذاذ المطر دقيق، وكرات الثلج صغيرة جدًا، ويبدو أن هناك امرأة تشبه «لي تشــينغ» تتقدم نحوي قادمة من الجانب الأيســـر، وترتدي روب النوم، وعندما تمشـــي تتقطر قطرات الماء إلى أسفل روب النوم. تمشي وتقف أمامي، وتتفرس ملامح وجهي، كما تتفحص بعينها ثوب نومي بدقة، وشــاهدت الكلمتين «لي تشينغ» باتت ألوانهما باهتة. ثم تنادي اسمي وكأنها تسألني:

«أأنت يانغ فيي؟».

أشعر بأنها لي تشينغ، ولكن لماذا صوتها غريب هكذا؟ وأجلس علـــى مقعد طويـــل وأحملق فيها، ولا أنبس ببنت شـــفة. وتظهر أمارات غريبة على وجهها، وتقول:

«أنت ترتدي ثياب نوم يانغ فيي، من أنت؟».

أقول: «أنا يانغ فيي».

تحـــدق في وجهي الغريب في ارتياب، وتقول: «أنت لا تشـــبه يانغ فيي».

أمد يدي، وأتحســـس وجهي، حيث العين اليسرى انتقلت إلى عظام الخد، وهناك أنف بجوار أنفي، وذقن أسفل ذقني.

أقول: «لقد نسيت تجميل وجهي».

تمد يديها وتعيد بحذر شـــديد قطـــرات الدموع التي انثالت فـــي الخارج إلى محجر عيني، وتعيد أنفـــي إلى مكانه الأصلي، وتتحسس ذقني التي علقتها وتدفعها إلى أسفل.

ثم تتراجع خطـــوة إلى الخلف، وتحملق فـــي وجهي، وتقول: «أنت الآن تشبه يانغ فيي».

أقول: «أنا يانغ فيي، وأنت تشبهين لي تشينغ».

تقول: «أنا لي تشينغ حقًا».

نبتسم معًا في آن واحد، وتعرَّف كل منا على الآخر بفضل الابتسامة المألوفة التي ارتسمت على وجهينا.

أقول: «أنت لي تشينغ».

قالت: «وأنت يانغ فيي حقا».

أقول: «صوتك طرأ عليه تغيير».

تقول: «وصوتك تغير أيضًا».

نتبادل النظرات، أقول: «صوتك الآن يشبه إنساناً لا أعرفه».

تقول: «صوتك يشبه أيضًا إنساناً غريباً».

أقول: «غريب حقًا، صوتك مألوف لدي، بل حتى صوت شخيرك مألوف لدي أيضًا».

تتوقف برهة، ثم تبتسم، وتقول: «وأنا أشعر بالغرابة أيضًا، يجب أن يكون صوتك مألوفاً لدي..».

تميل بجسدها، وتتحسس ثياب نومي بيدها حتى الياقة.

تقول: «الياقة لم تهترئ بعد».

أقول: «لم أرتد ثياب النوم بعد رحيلك».

تقول: «أنت تلبسها الآن، أليس كذلك؟».

أقول: «الآن هي كفني».

تقول ولديها بعض عدم الفهم: «ماذا يعني كفنك؟».

أسألها: «أين ثياب نومك؟».

تجيب: «لم أرتدها مرة أخرى، لا أدري أين وضعتها».

أقول: «ينبغي ألا تلبسيها مرة أُخرى، مطرز عليها اسمي».

تقول: «نعم، تزوجت ذلك الشاب».

أطأطئ رأسي.

ترتسم ابتســـامة مزعجة على وجهها، وتقول: «أشعر بالندم، يجب أن ألبس ثياب نومي، وأرى رد الفعل لدى زوجي الشاب».

وبعد ذلك، تنهض، ويبدو عليها الحزن والأسى، وتقول: «يانغ فيي، حضرت اليوم من أجل توديعك».

أرى قطـــرات المـــاء مـــا زالت تتقطـــر من روب النـــوم الذي تلبسه، وأســـألها: «أأنت لبســـت روب النوم وتمددت في طشت الاستحمام؟».

تلتمع أمارات الألفة في عينيها وتسأل: «أتعرف أحوالي؟».

- «أعرف».

- «متى عرفت؟».

- «أمس»، وأفكر برهة، وأقول: «ربما أمس الأول».

تتفرس ملامحي، وتدرك شيئًا ما، وتقول: «وأنت ميت أيضًا، أليس كذلك؟».

أقول: «أجل، لقد وافتني المنية».

تحدق في وجهي بحزن وأسى، وأنا أحملق في وجهها بحزن وألم.

تقول: «يبدو أن عينيك تقومان بمراسم تأبيني».

أقول: «تتنابني المشاعر نفسها، ويظهر أن كلا منا يقوم بتأبين الآخر».

تجيل بصرها في كافة الجهات في حيرة وارتباك، وتسألني: «ما هذا المكان؟».

أشير إلى المباني القديمة العالية التي تظهر مبهمة وغامضة خلف الأمطار والثلج، وتســـمر نظراتها برهة، ويجول بخاطرها تلك الشقة التي سجلت جانبًا من حياتنا. وتسألني: «هل ما زلت تقطن هناك؟».

أومئ برأسي، وأقول: «نقلت إلى مسكن آخر بعد فراقك».

تقول: «هل نقلت إلى مسكن والدك؟».

أهز رأسي.

تبتسم قائلة: «أعرف السبب الذي جعلك تأتي إلى هنا».

أقول: «في الظلام الحالك، لم نتفق على موعد وحضرنا إلى هنا في آن واحد».

- «من يسكن الآن في تلك الشقة؟».

- «لا أدري».

عيناها تنأيان عن ذاك المبنى السكني، ومازالت تلف يديها بإحكام في روب النوم المبلل بقطرات الماء، وتقول: «أشعر بالإرهاق، وقطعت شوطًا طويلا على طريق بعيد حتى جئت إلى هنا».

أقول وأشعر بالتعب الشديد أيضًا: «ولم آت من طريق قصي».

يترنح جسمها مرة أخرى، وتجلس على المقعد الطويل، تجلس على جانبي الأيسر، وتشعر بأن جسمها ينهار، وتقول: «هذا المقعد يوشك أن يسقط».

أقول: «تتحسن حالتك بعد فترة وجيزة».

تجلس بحذر شديد، ويتصلب جسمها، وبعد برهة يسترخي جسدها، وتقول: «لا يمكن أن يتحطم المقعد».

أقول: «يبدو أنك تجلسين فوق حجر».

تقول: «أجل».

نجلس معًا في هدوء ودعة كأننا نغط في النوم، وبعد فترة طويلة جدًا يعود الوعي إلى صوتها تقريبًا.

تسألني: «كيف حضرت إلى هنا؟».

أقــول: «لا أدري»، وتذكــرت المشــهد الأخيــر فــي ذاكرتي، وأردف قائلا: «كنت أتناول سلطانية معكرونة في مطعم، وهناك صحيفة فوق طاولة، وقرأت فيها أخبارك، ثم شــب حريق هائل فــي مطبخ المطعم، ولاذ كثيرون بالفرار إلى الخارج، ولم أتحرك البتــة، وأمضي قدمًا في قراءة الأخبــار الخاصة بانتحارك في الصحيفــة، وبعد ذلك، يــدوي صوت انفجار رهيــب، ولا أدري ما جرى بعد ذلك».

تسألني: «حدث ذلك أمس؟».

أقول: «ربما حدث قبل أمس».

تقول: «أنا سببت لك ضررًا رهيبًا».

أقول: «لست أنت، إنها الصحيفة».

تقول ورأســها على منكبي: «هل يمكن أن تسمح لي أن أسند رأسي؟».

أقول: «لقد أسندت رأسك على كتفي».

يبدو أنها تبتســم، وتهز رأسها مرتين فوق كتفي برفق، وترى شــريطاً قماشــياً أســود معلقاً على ذراعي الأيسر، وتمد يدها وتتحسسه.

تســألني: «هل علقت ذلك الشــريط القماشــي الأسود من أجلي؟».

- «علقته من أجل نفسي».
- «ألا يوجد إنسان يعلق شريطاً أسود حداداً من أجلك؟».
- «أبدًا».
- «أين والدك؟».
- «انصــرف، فارقنا منذ أكثر من عام، وأصابه مرض خطير

جـدًا، وأدرك أنه لا يمكـن أن يبرأ من مرضـه، وحتى لا يثقل كاهلي بالأعباء، انصرف في هدوء. وبحثت عنه في كافة البقاع ولم أجده».

- «أبوك طيب القلب، وكان يعاملني معاملة حسنة أيضًا».
- «إنه أحسن أب».
- «أين زوجتك؟».

لم أنبس بحرف.

- «أليس عندك أطفال؟».

أجيب: «ليس عندي أطفال، ولم أتزوج مرة أُخرى بعد طلاقنا».

- «لماذا لم تتزوج؟».
- «أرغب عن الزواج».
- «ألم أجعلك تشعر بالحزن؟».

أجيب: «كلا، لأنني لم أقابل امرأة مثلك على هذا النحو».

- «أسفًا ومعذرة».

ما زالت يدها تتحسس الشريط القماشي الأسود المعلق على ذراعي الأيسر، وشعرت بأن عاطفتها تتدفق.

وسألتها: «هل أنجبت طفلاً؟».

تقـول: «كنت أرغب فـي إنجاب طفل، ثم تخليـت عن فكرة الإنجاب».

- «لماذا؟».
- «أصابني مرض تناسلي، أصابني بعدوى مرضه».

أشـعر بأن قطرات الماء تظهر في مـوق عينها، إنها قطرات المـاء بالإضافة إلى مياه المطر وبكـرات الثلج، وأمد يدي اليمنى وأكفكف تلك القطرات.

وتسألني: «أأنت تبكي؟».

- «يبدو هذا».

- «هل تبكي من أجلي؟».

- «ربما».

ترسل زفرة طويلة، وتقول: «يرافق خليلة في الخارج، ويغشى دائمًا الملهى الليلي بحثًا عن عاهرة، وبعد أن أصابني المرض التناسلي نعيش منفصلين».

وتردف قائلة: «هل أنت تعلم؟ أنا أتذكرك دائمًا في جوف الليل».

- «بعد أن هجرت فراش النوم معه؟».

ترددت برهة، وتقول: «أجل، وبعد أن أنهيت علاقتي مع الرجال الآخرين».

- «هل أنت تحبين رجالاً آخرين؟».

تجيب: «لم أحب أحدًا، عرفت موظفًا حكوميًا، وبعد أن أنتهي من علاقتي، أتذكرك دائمًا».

أبتسم ابتسامة صفراء.

تقول: «هل تغار من أجلي؟».

أقول: «لقد انفصلنا منذ ردح طويل».

تقول بصوت خفيض: «بعد أن ينصرف، جسدي يستلقي فوق الفراش بمفردي، وأنهمك في التفكير فيك وقتًا طويلا، وعندما نكون سويًا، أذهب دائمًا في رد الزيارات والمجاملات، وأنت لا تنام عندما يكون الوقت متأخرًا، وأنتظرك دائمًا، وأرجع أدراجي وأنا مرهقة، وأتمنى أن أرتمي في أحضانك، وأشعر بالارتياح عندما أقترب من جسدك..».

تظهر قطرات الماء من طرفي عيني مرة أخرى، وأكفكفها بيدي اليمنى.

وتسألني: «هل أنت تتذكرني؟».

- «أحاول أن أنساك بكل ما أملك من قوة».

- «هل نسيتني؟».

- «لم أنسك بصورة كاملة».

تقول: «أعرف أنك لا تقدر على أن تتساني، ربما هو نسيني تمامًا».

وأسألها: «أين هو الآن؟».

تجيب: «هرب إلى أستراليا، هرب إلى هناك في التو بمجرد شائعة تم ترويجها بتفتيش شركتنا، ولم يخبرني بذلك مقدمًا».

أومئ برأسي، وأقول: «لا يمكن أن نعتبره زوجك».

تضحك برفق شديد، وتقول: «تزوجت مرتين، ولدي زوج واحد فقط، هو أنت».

أرفع يدي اليمنى وأمسح عيوني.

تقول: «أأنت تبكي مرة أخرى؟».

أقول: «أنا مسرور».

تسرد المشهد الأخير في ذاكرتها، وتقول: «كنت أمدد جسمي في حوض الاستحمام، وسمعت الذين جاؤوا لإلقاء القبض عليّ يركلون الباب الخارجي بشراسة، ويصرخون وينادون اسمي مثل اللصوص، ورأيت الدم يسبح في الماء مثل السمك، وتتسع بقعة الدم رويدًا رويدًا، ولون الماء يتحول إلى الأحمر أكثر فأكثر.. أتعرف ذلك؟ وفي اللحظة الأخيرة وقلبي متعلق بك دائمًا، أتذكر تلك الشقة الصغيرة التي كنا نعيش فيها معًا».

أقول: «لذلك حضرت إلى هنا؟».

تقول: «نعم، جئت من مكان ناء».

تسـحب رأسها من فوق كتفي، وتسألني: «أما تزال تسكن مع والدك؟».

أجيب: «تلك الشـقة قد بيعت مـن أجل ادخار النقود لعلاج والدي».

تسأل: «أين تسكن الآن؟».

- «أقطن في غرفة استأجرتها».
- «خذني معك ونذهب إلى هناك».
- «تلك الغرفة صغيرة وبالية أيضًا، كما أنها قذرة جدًا».
- «لا أعير اهتمامًا لذلك».
- «ألا تشعرين بالراحة هناك؟».
- «أنا مرهقة جدًا، وأريد لجسـمي أن يستلقي على الفراش وأستريح».
- «حسنًا».

ننهـض معًا في آن واحد، ويتجمع رذاذ المطر وكرات الثلج من جديد وتتطاير تباعًـا، وتقبض على ذراعي بإحكام كأننا نبدأ حبنا للوهلة الأولى. نسـير علـى طريق في درب خيالنا ويجمعنـا التفاهم التام، ولا ندري كم اسـتغرقنا في المشـي حتـى وصلنا إلى الغرفـة التي اسـتأجرتها، وعندما فتحت الباب، شـاهدت على الباب قصاصتـين من الورق، إحداهما فاتورة المياه، والأخرى فاتورة الكهرباء، وسمعتها ترسل زفرة، وسألتها:

«لماذا تتنهدين؟».

تجيب: «أنت ما زلت مديناً بفاتورة المياه وفاتورة الكهرباء».

أمزق القصاصتين، وأقول: «لقد دفعتهما».

ندلف إلى داخل الغرفة الصغيرة التي تعد محتوياتها خليطا مشوشا، ويبدو أن فوضى الأشياء في الغرفة لم تلفت انتباهها، وتطرح جسمها على الفراش، وأنا أجلس على كرسي بجوار السرير. وبعد أن استلقت على السرير، ينفتح روب نومها، وكانت في غاية الإرهاق والتعب، وتغمض عينيها، ويبدو جسمها يطفو فوق الفراش. وبعد فترة وجيزة تفتح عينيها.

تسأل: «لماذا تجلس؟».

أجيب: «من أجل رعايتك وراحتك».

- «أطرح جسمك على السرير».
- «أشعر براحة في الجلوس».
- «أصعد إلى الفراش».
- «ما زلت أصر على الجلوس».
- «لماذا؟».
- «أشعر بالخجل».

تنهض من الفراش وتجلس، وتمد يدها نحوي، وأمد لها يدي، وتسحبني إلى الفراش. مستلقيان على ظهرينا جنبا إلى جنب فوق السرير، وتتعانق أيدينا، وسمعت صوت تنفسها المنتظم مثل موجة تتهادى على صفحة مياه بحيرة هادئة، وبعد هُنيهة تتكلم بصوت خفيض، كما أنني بدأت الكلام أيضًا. وتتدفق مشاعر غريبة في قلبي مرة أخرى، وتدرك نفسي أنني مستلق على الفراش مع امرأة مألوفة لدي، ولكن صوت كلامها غريب، مما جعلني أشعر بأنني أتقاسم الفراش مع امرأة لم تسبق لي معرفة

بها. وأخبرتها بمشــاعري على هذا النحــو، وذكرت أنها تتتابها مثل تلك المشــاعر الغريبة أيضًا، كأنها تستلقي فوق الفراش مع رجل غريب بالنسبة لها.

تدير جســمها على الفراش، وتقول: «نعدِّل وضع أجســامنا حتى يرى كل منا الآخر».

وألف جســمي أيضًا، وأحدق فيها، وتســألني: «هل تشــعر بتحسن بعض الشيء؟».

أجيب: «الآن أحسن إلى حد ما».

تتحســس وجهــي المصاب بيدهــا المبللة، وتقــول: «في ذاك اليوم الذي شــهد فراقنا، وعندما ودعتني عند سيارة التاكسي، ارتميــت في أحضانك، وأنت تفوهت ببعض الكلمات، هل مازلت تتذكرها؟».

أقول: «أتذكرها، وأنت ذكرت أنك مازلت تحبينني».

تطأطئ رأســها، وتقول: «نعم قلت هذه الكلمات، وأنت ذكرت بعض الكلمات أيضًا».

- «أنا قلت أحبك إلى الأبد».

* * *

تخاطبني قائلة: «استيقظت من النوم؟».

- «لم أنم».

- «سمعت صوت شخيرك».

- «لم أنم حقًا».

تقول: «حسنًا، أنت لم تنم».

تشد حزام روب النوم حول خصرها، وتخاطبني قائلة: «أريد الانصراف، ثلــة من الأصدقاء أعدوا لي جنازة مهيبة،

وأريد العودة واللحاق بهم في التو».

أطأطئ رأسي، وتمشي إلى المدخل، وتفتح الباب، وتدير رأسها آنذاك، وتحملق في وجهي، وتقول وهي فاقدة الهمة: «يانغ فيي، انصرف من هنا».

اليوم الثالث

تتجول نفسي في الخط الفاصل بين الحياة والموت. الثلج الأبيض أبلج، والمطر مظلم معتم، ويبدو أنني أسير في البكور وفي المساء في آن واحد.

قادتني قدماي مرات عديدة نحو تلك الغرفة التي استأجرتها، وأمس تركت أنا ولي تشينغ آثار لقاء بعد فراق طويل، واليوم لا أحتمل السير على مقربة منها، وحاولت - من عدة اتجاهات متباينة - التقدم نحوها، ولكن لا أستطيع الاقتراب منها في نهاية المطاف، ومن الظاهر أنني أمشي وسط الهدوء والسكون، وتلك الغرفة تراها العين وتقصر عنها اليد. ودار بخلدي عندما كنت طفلاً غريرًا أسحب يد والدي، وأحاول كل ما في استطاعتي أن نمشي تحت القمر، وعلى كل حال نترجل على طريق طويل جدًا، والمسافة بيننا وبين القمر لا تتغير أبدًا.

في تلك الأثناء، ينبثق تحت أقدامي قضيبان من قضبان السكة الحديدية يلتمعان ويتمددان إلى الأمام، ويظهران الحيرة والتردد كأنهما أضواء ساطعة ويفضيان إلى طريقين من الضلال. وبعد ذلك، رأيت بأم عيني مشهد ولادتي.

* * *

كانـــت ولادتي بين تينـــك القضيبين بعد مـــرور قطار يخترق ظلام الليل الدامس. وكان بكاء طفولتي في البداية تحت ســـماء مرصعة بالنجوم، وليس في خضم عاصفة هوجاء، ويسمع صوت بكائـــي الواهن عامل التحويل الشـــاب، كان يمشـــي على امتداد القضبان الحديدية، ويأتي من مكان بعيد بأقصى سرعة ويجعل القضبـــان تهتز، وبعد أن يضمني إلى صـــدره، يمر ذاك القطار أمامنا بسرعته الفائقة وتدوي صفارته. وعلى هذا النحو، أصبح عنـــدي أب بعد مرور قطار وقبل قدوم قطار آخر. وبعد انقضاء بضعة أيام، أصبح عندي اســـم يُطلق علي، أما اسم والدي فكان (يانغ جين بياو).

طريق وجودي في هذه الدنيا كان غير معقولاً، فلم تكن ولادتي في غرفة التوليد بالمستشـــفى، ولا في المنزل، بل كانت في دورة مياه ضيقة في قطار سائر على القضبان.

ومنذ واحد وأربعين عامًا خلت، كانت والدتي حُبلى في الشهر التاســـع، وأنا طفلها الثالث، واستقلت قطارًا متوجهًا إلى مسقط رأســـها لزيارة جدتها لأمها هناك. وعندما قطع القطار المسافة إلى هناك في عشـــر ساعات وأكثر ويدخل المحطة رويدًا رويدًا، شعرت بألم طفيف في بطنها ولم تُدرك أنني في بطنها قد عيل صبـــري، لأن الميقات المحدد لولادتي مازال أمامه عشـــرين يومًا ونيفًـــا، وكانت ولادة أخي الأكبر والأخت الكبرى قبل ولادتي، في الموعد المحدد، ودار بخلدها أنني سأحذو حذوهما، ولذا شعرت أنه يجب أن تغشى دورة المياه.

تهبـــط والدتي من ســـرير القطار إلـــى أديم الأرض، وتتحمل بطنهـــا المنتفخة، وتترنح في مشـــيتها وتتوجه إلى دورة المياه عند

ملتقـــى عربة الركاب بأخرى، وبعد أن توقف القطار، أحدقت بها الصعوبـــات في طريقها إلى دورة المياه، بســـبب أن بعض الركاب يحملون على ظهورهـــم حقائب كبيرة وصغيـــرة، وتأخذ حذرها وحيطتها في مواجهة تدافع الركاب وتلك الحقائب. تدور عجلات القطار ببطء عندما تدخل والدتـــي دورة المياه، وكان القطار في ذلك الحين بسيطًا، وقضاء الحاجة في المرحاض يجب على المرء فيـــه أن يجلـــس القرفصاء، فقد كان المرحـــاض عبارة عن فتحة واســـعة مســـتديرة يمكن أن ترى من خلالها صفوف من عوارض السكة الحديدية اللامعة. ولم تستطع والدتي جلوس القرفصاء، لأن وجـــودي فـــي بطنها أعاق ذلـــك، واضطـــرت لأن تركع على قدميها وألا تعير اهتمامًا للأوســـاخ على أرضية دورة المياه، وبعد أن خلعت بنطالها، وما كادت تســـتجمع قواها حتى شـــق رأســـي طريقه من داخل الرحم إلى الخارج. انزلقتُ من الفتحة المستديرة للمرحاض، والقطار الذي يتقدم إلى الأمام يقطع في طرفة عين الرابط الذي يجمعني بوالدتي وهو الحبل السري. إنها السرعة، السرعة المعاكســـة بين انزلاقي من تلك الفتحة وانطلاق القطار إلى الأمام فكت الوثاق بيني وبين والدتي، وفقدنا جميعًا السرعة.

والدتـــي تنبطح أرضًا من جراء ألم ممـــضّ أصابها فترة من الوقت، وبعد برهة تشـــعر بأن بطنهـــا خاوية، وتبحث عني بفزع وهلع، ثم أدركت أنني سقطت من تلك الفتحة المستديرة وتتحامل على نفسها بصعوبة بالغة وتنهض، وبعد أن تفتح باب دورة المياه، تبكي وتصرخ في وجـــه راكب كان في الخارج ينتظر دخول دورة المياه، وتقول:

«طفلي، طفلي...».

تسقط على الأرض في الحال، وذلك الراكب ينادي في عجالة ركاب العربة ويقول: «هنا سيدة سقطت في غيبوبة».

تهرول عاملة القطار أولا، ثم يتبعها مدير القطار. تكتشف العاملة - في المقام الأول - أن والدتي نصفها السفلي يغرق في الدم، ثم توجه نداءً عاجلاً لركاب القطار تطلب العاملين في هيئة طبية من بين الركاب الحضور فورًا إلى العربة رقم (11). كان هناك طبيبان وممرضة في صفوف الركاب جاؤوا إلى عربة والدتي التي تستلقي على ظهرها في ممر عربة الركاب، وتبكي بحرقة وتطلب الاستغاثة بلا انقطاع، ولا يفهم أحد كلامها، وتدخل في غيبوبة في الحال. ويحملونها وينقلونها إلى سرير القطار، ويضطلع الطبيبان والممرضة باجراءات إنقاذها، بينما القطار يمضي قدمًا إلى الأمام بالسرعة العالية.

في هذه الأثناء، كنت في الغرفة الصغيرة التي يمتلكها ذلك الشاب عامل التحويلة، والذي أصبح والدي بصورة فجائية، ويحملق في غاية الارتباك والقلق باللون الأحمر الأرجواني الذي يكتسي به جسمي من رأسي حتى أخمص قدمي، وأنا أبكي وأنتحب بصورة مستمرة، وتهتز مع بكائي قطعة الحبل السري التي ما زالت معلقة في بطني. ولذا يعتقد ذلك الشاب أن جسمي به ذيل، وكلما ضعف ووهن صوت بكائي، يدرك الشاب أنني أعاني من وطأة الجوع رويدًا رويدًا. كنا في منتصف الليل في ذاك الحين، وأبواب الدكاكين موصدة، ولا يوجد لبن في تلك الليلة. ويتذكر في خضم قلقه واضطرابه أن زوجة زميله في العمل عامل التحويلة (هاوتشيانغ شنيغ) أنجبت طفلة منذ ثلاثة

أيام، ثم يلفني في سـترته المحشـوة بالقطـن ويهرول إلى منزل زميله.

هاو تشـيانغ شنيغ يغط في نوم عميق، واستيقظ مذعورًا من جراء الطرق على البـاب، وبعد أن يفتح الباب يرى زميله يحمل في يده لفة، ويسمعه يقول بمشاعر القلق والهم:

«لبن، لبن، لبن..».

هاو تشيانغ شينغ الذي يستبد به النعاس، يفرك عينيه حينًا، ويسأل حينًا آخر: «أي لبن؟».

والدي يفتح سترته القطنية ويجعل زميله يراني أنخرط في بكاء شديد، وفي الوقت نفسه يسلمه اللفة وأنا في داخلها. هاو ينتفض ذعرًا كأنه تسلم حبة بطاطا حلوة ولسعت يده، وتبدو عليه أمارات الدهشة ويحملني إلى داخل الغرفة، وكانت زوجته وتُدعى (لي يوي جين) استيقظت من نومها أيضًا بسبب الجلبة والضوضاء، ويقول لهـا زوجها: «طفل زميلي في العمل يانـغ جين بياو»، ترى لي يوي جين جسـمي يغص باللون الأحمر الأرجوانـي وتدرك أنني وُلدت توًا، وتحتضنني وتسـحب رداء وتغطيني، وتهدأ نفسـي، وأمتص حليب الأم الذي يُعتبر حجر الأساس في هذه الدنيا.

يجلـس في خـارج الغرفة كل مـن والدي (يانغ جـين بياو)، وزميله الشـاب عامل التحويلة (هاوتشيانغ شينغ)، وكان والدي يبلغ واحداً وعشـرين عامًا فقط آنـذاك، ويكفكف عرق وجهه، ويسـرد بالتفصيل عملية الالتقاء بي، ويتفهم ذلك هاو تشـيانغ شـينغ، ويقول إن الجهل أصابه بالفزع توًا لأنه يعرف أن والدي ليـس عنده حتى صديقة، فكيف يخاطـر وينجب طفلا. والدي تصدر منه بضعة أصوات ضاحكة: هيه، هيه! كأنه أبله، ثم يعرب

عن مخاوفه من أنني ربما أكون مخلوقًا غريبًا، ويذكر أن جسدي به ذيل في الأمام وليس في الخلف.

عندمـــا كانت لي يـــوي جين ترضعني ثديها، ســـمعت رجلين أصبحـــا أبوين توًا يتجاذبان أطـــراف الحديث في الخارج، وبعد أن رضعت وشـــبعت وارتويت، وانخرطت فـــي النوم، تطرح على جسدي ملابس ابنتها التي خيطتها بنفسها، كما تأخذ صرة من الأقمشة البالية وتدلف إلى خارج الغرفة.

أعود إلى أحضان والدي. تأخذ لي يوي جين صرة الأقمشـــة المهترئـــة وتُعلم والدي كيف يغير لي حفاض الطفل، وأخبرته بأن يقص تلك الأقمشة ويجعلها حفاضات، وكلما كانت بالية، تصبح أفضل لأن الأقمشة البالية تكون ناعمة ورقيقة. وأخيرًا، أشارت إلى ذلك الذيل المعلق في بطني، وتقول:

«إنه الحبل السُـــري، تذهب إلى عيـــادة المحطة غدًا، وتطلب من الطبيب أن يقصه، ولا تقصه بنفسك خشية حدوث عدوى».

* * *

أمشـــي إلى الأمـــام على امتـــداد قضبان الســـكة الحديدية التي تشبه الأضواء الســـاطعة، وأبحث عن تلك الغرفة الصغيرة المتداعية بجوار تلك القضبـــان، والتي تضم بين أروقتها العديد مـــن قصص نشـــأتي. أرى أمامي المطر والثلـــج، وأمامها بنايات ســـامقة تتألف من عـــدة طوابق وتحتوي على عـــدد ضئيل من النوافذ المعتمة، وعندما كنت أتقدم نحوها، أشـــعر بأنها تتقهقر إلى الخلف، وأدركت أن ذلك العالم يرحل الآن رويدًا رويدًا.

أســـمع صوت أبي يزأر بالشـــكوى، كان صوتـــه بعيدًا هكذا، وحميمًا هكذا، وصوت شكواه بجوار أذني يقدم النزر اليسير من

أجل مساعدتي ويشبه تلك الطوابق في البنايات القصية، ولم أتمالك نفسي عن الضحك.

كان والدي يانغ جين بياو يعتقد بإصرار لفترة طويلة جدًا أن أبويّ اللذين أنحدر من صلبهما ودمهما قد تخليا عني على قضبان السكة الحديدية رغبة منهما في أن عجلات القطار تسحق عظامي، ومن ثم كان والدي يناجي نفسه دائمًا، ويقول: «أيوجد في هذه الدنيا أبوان بمثل هذه القسوة وعدم الرحمة؟».

هذا التفكير المتصلب جعل والدي يحبني كثيرًا، ولا أفارق ظله منذ أن غادرت قضبان السكة الحديد وارتميت في أحضانه. وفي البداية كبرت في جيب لبان صدره، وكان أول جيب خيطته لي يوي جين، ولونه أزرق، ثم خيط والدي بنفسه الجيوب الأخرى فيما بعد، وكان لونها أزرق أيضًا. وعندما يخرج من البيت قاصدًا الدوام، يخلط مسحوق اللبن بالماء ويسخنه، ثم يسكبه في زجاجة الرضاعة التي يدسها في لباس لبان صدره وتلتصق بقلبه النابض ويجعل حرارة جسمه تحافظ على سخونة زجاجة الرضاعة. وبعد ذلك، يحشرني في الجيب القماشي أمام صدره، ويحمل على كتفه بصورة مائلة إبريقًا يشبه نظيره المستخدم في الجيش، كما يحمل على ظهره صُرتين، إحداهما معبأة بالحفاضات النظيفة، والأخرى مجهزة لحفظ الحفاضات التي تحتوي على مفرزات جسمي.

والدي يذرع المكان جيئة وذهابًا عندما يحوّل خط القطار على السكة الحديدية، وأنا أتمايل يمنة ويسرة أمام صدره، وهذه أجمل هزة في هذه الدنيا، كما أنها أحلى نومة في مرحلة طفولتي،

وإذا لم أشعر بالجوع ربما أتمنى ألا أستيقظ من حضن والدي إلى الأبد، وعندما أستيقظ أنفجر باكيًا، ويعرف أنني جائع، ويمد يده ويتحسس زجاجة الرضاعة وحرارة جسم والدي. وفيما بعد، لم أعد أعرف البكاء والصراخ بعد أن أستيقظ من النوم بسبب شعوري بالجوع، بل أمد يدي وأتحسس زجاجة الرضاعة أمام صدر والدي، مما جعله مدهوشًا ومسرورًا مرة تلو مرة، وهرول إلى هاوتشيانغ شينغ، ولي يوي جين ويخبرهما أنني أذكى طفل في العالم.

وهناك وفاق كامل وتفاهم تام بين والدي ونموي وترعرعي، فهو يعرف ميقات تضوري جوعًا وشعوري بالظمأ. وعند شعوري بالعطش يفتح الإبريق ويرتشف رشفة ماء، ثم يصوب فمه أمام فمي، ويتدفق الماء بمهل داخل فمي. ويدعي والدي أمام لي يوي جين أنه يستطيع أن يميز الفرق الطفيف بين صوت شعوري بالجوع، وصوت شعوري بالظمأ. وظلت لي يوي جين بين مكذِّب ومصدِّق، فهي تستطيع فقط أن تقدر شعور ابنتها بالجوع والعطش حسب عقارب الساعة.

يمشي والدي على السكة الحديدية ويشم رائحة كريهة تفوح أمام صدره فترة من الوقت، ويعرف أنه يجب أن يغير حفاضي. ويجلس القرفصاء على مقربة من القضبان، ويضعني على أديم الأرض وسط دوي صافرة قطار يسير بأقصى سرعة، وينظف مؤخرتي بالورق الخشن ويشد على مؤخرتي حفاضًا نظيفًا ثم ينظف الحفاضات القذرة من البراز بالتراب بجوار القضبان، ثم يطويها ويحشرها في الصرة المخصصة لذلك. وبعد انتهاء الدوام وعودته إلى البيت، يضعني في السرير، ويغسل الحفاضات الوسخة وينظفها بالماء والصابون.

كان بيتنا عبارة عن غرفة صغيرة على بعد أكثر من عشـــرين مترًا من قضبان الســكة الحديدية، ويغص مدخله من أعلى إلى أســفل بالحفاضات التي تُجفف في الشمس مثل أوراق الشجر، وفي عبارة أُخرى، فإن بيتنا يشـــبه شجرة ناضرة تتفتق أوراقها الواحدة تلو الأخرى.

كانت نشأتي في خضم دوي قطار يسير بأقصى سرعة، وفي داخل غرفة صغيرة تتمايل وتهتز، ونما جســمي بعض الشـــيء، وأمضي قدمًا في النمو فوق ظهر والدي. والجيب القماشي أمام صدر والدي أصبح الجيب القماشـــي خلف ظهره، وهناك أشب عن الطوق رويدًا رويدًا.

والدي ذهنه متقد وأناملـــه بارعة، فقد تعلَّم تفصيل الملابس وحبـــك الثوب الصوفي. وفي الدوام لا يتمالك زملاؤه في العمل أنفســـهم وينخرطون في القهقهة والضحـــك عندما يرونه، لأنه يحملني على ظهره ويســـير على الســـكة الحديدية تارة، ويحيك كنـــزة صوف صغيرة لي تارة أُخـــرى، وأنامله حاذقة في الحياكة بمهارة ولا يستعين بعينيه.

بعد أن تعلمت المشـــي، يد والدي تســـحب يـــدي. وفي نهاية الأســـبوع، يأخذني والـــدي وندلف إلى الحديقـــة للتنزه والمرح، وهنـــاك يحرر والدي يدي وهو مطمئـــن ويقتفي أثري في مكان أركـــض إليه. ويجمعنا الوئام والانســـجام، وعندما نمشـــي على طريق صغيـــر داخل الحديقة، يمد يده نحوي وأتأثر تأثرًا بالغًا، وأمد يدي نحوه في الحال.

نعـــود أدراجنا إلى الغرفـــة الصغيرة بجوار قضبان الســـكة الحديدية، ووالدي شـــديد الحذر والانتباه تمامًا، فهو يطبخ في

الغرفــة، وأنا أريد اللعب واللهو خـــارج الغرفة، ويربطنا بالحبل، حيــث يربط طرف الحبل في قدمـــه، ويربط الطرف الآخر في قدمي. وأستطيع فقط الحراك أمام مدخل البيت، ويترامى إلى مسـامعي صراخ والدي ينطلق من داخل الغرفة محذرًا إياي في كل مـــرة أرى فيها القطار ينطلق ســـريعًا، ولا أتحمل ذلك، وألوذ بأذيال الفرار إلى الأمام، ويصرخ والدي قائلا:

«يانغ فيي، تعال هنا».

* * *

لاحت أمـــام عيني الغرفة الصغيرة التـــي أبحث عنها عندما قطعت شوطًا طويلاً وبعيدًا على القضيبين اللامعين. ولم تظهر الغرفـــة قبل لحظة، ثم ما لبثت أن ظهـــرت في مثل لمح البصر. ورأيت ســـنوات طفولتي، ووالدي الشاب، فضلا عن فتاة تتدلى ضفائرهـــا علـــى منكبيهـــا، وانصرفنا نحن الثلاثـــة من الغرفة الصغيرة. تقاسيم وجهي كانت مألوفة ومعروفة، وملامح والدي ما زالت ماثلة في الأذهان، وأمارات الفتاة مبهمة وغامضة.

* * *

اتســـمت ســـنوات طفولتـــي بالغبطة والســـرور مثـــل قهقهة الضحـــكات، ولـــم أدرك البتة أنني أدمر حيـــاة والدي. ومنذ أن ســـقطت على قضبان السكة الحديدية ضاق الخناق على طريق حيـــاة والدي. والدي ليس عنده صديقـــة، والزواج صعب المنال. وقدم له هاو تشـــيانغ شـــينغ وزوجته لي يوي جين، وهما أفضل أصدقائه، عددًا من الصديقات، وعلى الرغم من أنهما أخبرا تلك الصديقات بخلفيتي الماضية، مما يبرز للعيان أن والدي مخلص وموثوق فيه، بيد أنهن عندما شـــاهدن والدي للوهلة الأولى كان

يحيك كنزة صوف لي وليس يغير الحفاض، هذا المشــهد جعلهن يبتسمن ويضحكن لحظة، ثم يستدرن بأجسامهن وينصرفن.

عندمـــا كنت في الرابعة، ظهرت فتاة ضفائرها طويلة، وأكبر من والدي بثلاث ســنوات، ولم تر مشهد تغيير الحفاض وحياكة الكنـــزة، بل رأت طفــلاً محبوبًا يمكن أن تعتبـــره نموذجًا، وتمد يدها وتداعب شــعري وتتحســس وجهي، وبعد أن ناديتها بلقب «عمتي»، ضمتني إلى صدرها بســرور شــديد، وجعلتني أجلس على ســاقيها. وهذه التصرفات جعلت والدي يرى شــعاعًا من الأمل في الزواج بقلق وأعصابه متوترة.

بـــدأت بينهما مواعيــد الغرام، ولم أصطحبهمـــا عندما كانا يتقابلان، بل يتم إرســـالي إلى منزل الزوجين هاوتشـــيانغ شينغ، ولي يوي جين. وكانا يتقابلان بعد أن يسدل الليل سدوله ويمشيان على امتداد السكة الحديدية ببطء، ثم يرجعان أدراجهما بتمهل أيضًـــا. والدي إنســـان انطوائي وخجول، يصطحـــب تلك الفتاة ذهابًـــا وإيابًا، ولم يطلق والدي بعـــض كلماته، بيد أن صوته كان يتناثر وسط دوي السرعة العالية للقطار.

في البداية، كان لقاؤهما يســتمر وقتًا قصيرًا، حيث يسيران علـــى القضبان مرة أو مرتين ذهابًا وإيابًا، وبعد ذلك يأتي والدي إلى منزل هاوتشيانغ شينغ ويأخذني ونعود إلى بيتنا. ولكنهما - فيما بعد - كانا يسيران خمس أو ست مرات ذهابًا وإيابًا، وكانا يمشـــيان حتى انبلاج الفجر في بعض الأحايين، أما أنا فأتقاسم الفراش مع الطفلة (هاوشـــيا) الأكبـــر مني بثلاثة أيام، وتجمعنا وســـادة واحدة، وهاوتشـــيانغ شـــينغ غير قادر علـــى الاحتمال، فيســـتلقي على الفراش ويشخر. وليس هناك سوى لي يوي جين

تجلس بصبــر في خارج الغرفة تنتظر قدوم والدي، وتســألهما بصــورة عادية عن التقدم الذي أحرزتــه مواعيد الغرام بينهما، ثــم تطلب من والدي أن يحملني وينصرف. وفي تلك الأيام، كنت في المســاء دائمًا أنام على الســرير في منزل هاوتشيانغ شينغ، وأستيقظ في الصباح الباكر فوق فراشي في غرفتي الصغيرة.

اســتمر هذه الحال زهاء شــهرين، وشعرت لي يوي جين بأن والدي وتلك الفتاة يبدو أن علاقتهما لم تشــهد ثمة تقدمًا سوى إطالة زمن مشــيتهما على امتداد القضبان أكثر فأكثر. وبعد أن سألت والدي بالتفصيل عن تفاصيل اللقاءات بينهما، اكتشفت أن هناك مشكلة ما وعندما كانا يمشيان في منتصف الليل والسكون يعم الكون، شــعرت تلك الفتاة بالتعب وتسمرت أقدامها وقالت: «مع الســلامة»، والدي لسانه قطعة من الخشب وبطيء الكلام، وبعد أن يطأطئ رأسه، يلف جسمه وينصرف عنها، ويهرول إلى منزل هاوشيانغ شينغ ليأخذني ونعود بيتنا.

لي يوي جين تسأل والدي: «لماذا لم تودعها حتى بيتها؟».

يجيب والدي: «قالت لي، مع السلامة».

لي يوي جين تهز رأســها، وتتنفس الصعداء، وأخبرت والدي بأن الفتاة قالت «مع السلامة»، وهي تأمل في سويداء قلبها بأن تودعها وتصطحبها حتى بيتها، علائم عدم الفهم والإدراك تظهر على وجه والدي، وتقول بصورة حازمة وصارمة:

«أنت تودعها وتصطحبها حتى باب بيتها مساء غدٍ».

يزخر قلب والدي بالشكر والامتنان تجاه هاوشيانغ، ولي يوي جين اللذين يســاعدان والدي وأنا بعد أن ســقطت على قضبان الســكة الحديديــة. وينصــاع والدي لكلام لي يــوي جين، ففي

مســـاء اليوم التالي وبعد أن قالت تلك الفتاة «مع الســـلامة»، لم يستدر جسمه وينصرف، بل ودعها حتى باب بيتها بهدوء ودعة، وأمـــام مدخل بيتها وفي ضوء القمر في منتصف الليل قالت «مع السلامة» للمرة الثانية، وفي هذه المرة ترتسم على وجهها أمارات الغبطة والبهجة.

شهدت علاقتهما تقدمًا مباغتًا ومطردًا، ويتقابلان خلسة ولم يعودا ينتظـــران ظلمة الليل، وفي يوم الأحـــد يدلفان إلى داخل الحديقة جنبًا إلى جنب، وهما يمشـــيان باتـــزان وثقة بالنفس، ويتبـــادلان أحاديـــث الهوى بصورة رســـمية، ويجمعهما الشـــوق والحنـــين، ويبدأان اللقاء فـــي تلك الغرفة الصغيـــرة التي تهتز أركانها وتتمايل عندما يمر القطـــار بجوارها، وأرى ربما ارتمى كل منهما فـــي حضن الآخر وتبادلا القبلات الحارة، ولم تتجاوز تصرفاتهما أبعد من ذلك.

تطـــورت علاقتهما من موعد غرام إلى العشـــق، وكنت غائبًا عن ذلك المشـــهد. وكان ذلك رأي لي يوي جين التـي اعتقدت إذا حشـــرت نفســـي بينهما، بأن ذلك يعيق التطور الطبيعي لمشاعر الحب بينهما، ويجب علـــيّ الظهور على غرار الماء الجاري يكوّن المجاري. ولي يوي جين لديها يقين بأنه ما دامت تلك الفتاة تحب والـــدي حبًا حقيقيًا، فإنها من الطبيعي أن تتقبل وجودي. وكنت في أثناء تلك الفترة أعيش تقريبًا في منزل لي يوي جين، وأحب هذه الأســـرة وتربطني أواصـــر الصداقة الحميمـــة مع الطفلة هاوشيا، ولي يوي جين تُعد بمثابة والدتي.

عندمـــا يناقش والدي وتلـــك الفتاة زواجهمـــا، يجب عليهما مناقشـــة وجودي معهما. وعندما يقعان في حمأة الشـــوق يكون

نصيبي النسيان من جانبهما بصورة مؤقتة. بدأ والدي يسرد لها بالتفصيل قصتي التي بدأت منذ أن سمع بكائي وانتحابي قبل أربع سنوات وحملني من فوق القضبان، كما حكى لها الحوادث الكثيرة المشوّقة في نشأتي ونموي منذ أربعة أعوام، وعندما يتحدث عني أشعر بأن والدي المحظوظ حقًا، كما أنه والدي الفخور بنفسه. كما سرد العديد من القصص القصيرة حول ذكائي، وكان يعتقد بأنني أذكى طفل في العالم.

والدي لم يتحدث طويلاً على هذا النحو أبدًا، وبعد أن استرسل في كلامه بلا توقف لأكثر من ساعة، تقول تلك الفتاة التي ستصبح زوجته في المستقبل، بتروٍّ:

«لا يجوز أن تنسى هذا الطفل، يجب أن ترسله إلى دار الأيتام».

بُهت والدي فجأة، وتحجرت ملامح وجهه، وبدا عليه الهم والقلق، بعد أن كانت تعلوه أمارات السعادة الزاخرة، وظلت مثل تلك التعابير ترتسم على وجهه فترة من الزمن، ولم تتبدد مثل العواصف والأمطار. وسقط والدي في حبائل الصراع العاطفي، فهو يحب تلك الفتاة حبًا عميقًا وقتئذ، وطبعًا يحبني أيضًا، ويعد ذلك نوعين مختلفين من الحب، ويحتاج إلى اختيار أحدهما، ويتخلى عن الآخر.

في الواقع، فإن تلك الفتاة لم ترفض وجودي معها البتة، وعلى كل حال هي فتاة واقعية جدًا، وتبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، ويعتبر سنها كبيرا في ذلك العصر، والرجال الذين يمكن أن يقع اختيارهم عليها ليسوا كثيرين، وهي قابلت والدي وشعرت بأنه لا بأس به في كافة الجوانب، والشيء الوحيد المؤسف أنه

يتبنى لقيطًا. وتفكر أنها سـوف تتجـب أطفالاً، ووجودي داخل أروقة أسـرتها مـن المحتمل أن يكون شـيئًا مزعجًـا. ومن ثم، تفوهت بمثل تلك الكلمات، وحياتهما سـتكون أفضل بشكل كبير إذا لـم أكن موجودًا بينهمـا. وكان تفكيرهـا صائبًا، لأنهما قد ينجبـان طفلين أو أكثر، فضلاً عـن تبني طفل، ويمثل ذلك عبئًا ثقيلاً وضخمًا في حياة زوجين يعيشـان في ظروف مالية صعبة وعسـيرة. وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة، فهي ما زالت تتقبل وجـودي غير أنها ترى أن والدي يجب - في البداية - أن يرسلني إلى دار الأيتام. وكان ذلك كل ما تفوهت به من كلمات.

كان والدي عنيدًا ومكابرًا، ودخل تفكيره في طريق مسـدود في التو ولا يمكن الفكاك من ذلك، وقرر في مناحي نفسـه أنها لا تستطيع قبول وجودي. وربما كان صائبًا، وعلى الرغم من أنها تتقبلني كرهًا، ولكن ربما سـأكون بمثابة سبب مسبق للخلافات والمصاعب داخل هذه الأسـرة. آلام والدي لا تحتمل، فهو يشبه منشفة مبللة بالعواطف، ومسكتها أنا وهذه الفتاة بإحكام شديد وعصرنـا طرفيهـا بقوة حتـى جففنا ما بداخلهـا من عواطف ومشاعر.

فـي ذلك الحـين كان عمري أربـع سـنوات، والوحيد الذي لا يعـرف عن ذلك أي شـيء، كما لا أعرف تمييـز رؤية والدي نحـوي إذا كان تعبير عينيه من الفرحـة والبهجة قد تحول إلى تعبير من الشـفقة والرحمـة. ويبدو في تلك الأيـام أن والدي بـات يحبني أكثر. وأجيد المشـي ببراعة ومهـارة آنذاك، ولكن والـدي يحتضنني عندما ندلف إلى خـارج البيت كأنني مازلت أتعثـر في خطواتي. وعندما يتقدم إلـى الأمام يلصق وجهه في

وجهي. ووالدي يتمسك بالتقشــف الدائم، ويشتري لي قطعتين مــن الحلويات كل يوم، قطعة يقشــر ورقتها ويدســها في فمي، والأخرى يدسها في جيب ملابسي الصغير.

وعندما يعز عليه فراقي في عالم عواطفه، يشــعر في أعماق قلبه بأنه ينأى عني كلما مشينا، ووالدي البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا يحتاج إلى امرأة تقاسمه الحياة سواء في الجانب النفســي أو الفيزيولوجي. ويحبني أكثر آنذاك، ولكنه في حاجة ماســة إلى حب امرأة. وبعد أن يعيش نوبة العذاب الذاتي، يقرر اختيارها ويتخلى عني.

ذات يوم في البكور، وعندما استيقظت من نومي، رأيت والدي جالسًا على جانب السرير، ويحني ظهره ويقول بصوت خفيض: «يانغ فيي، نذهب ونركب القطار».

عشت أربع سنوات بجوار قضبان السكة الحديدية وسط دوي القطارات التي تسير بسرعة عالية، ولكن لم أركب القطار. وبعد أن ركبت القطار للمرة الأولى ألصق وجهي بزجاج نافذة القطار. وحينما شرع القطار بالتحرك، رأيت الركاب على رصيف المحطة يتراجعون إلى الخلف أكثر فأكثر، وألجمتني الدهشــة والذهول وصرخــت بصوت عــال. وبعد ذلــك، رأيت البيوت والمســاكن والشوارع تتراجع بســرعة، كما رأيت الحقول والبركات تتراجع بسرعة أيضًا، واكتشفت أنه كلما تراجعت الأشياء القريبة يكون تراجعها ســريعًا، وكلما تراجعت الأشــياء البعيدة يكون تراجعها بطيئًا. وسألت والدي:

«ما السبب في ذلك؟».

يجيب والدي وصوته يشوبه القلق والحزن: «لا أدري».

يحملني والدي وننزل من القطار في مدينة صغيرة، وكان ذلك وقت الظهيرة، ونتناول المعكرونة في دكان صغير قبالة محطة القطار. والدي يطلب لي سلطانية الشعيرية باللحم المشرط، وطلب لنفسه معكرونة الصلصة السادة. لا أستطيع أن آكل سلطانية الشعيرية الكبيرة، وما تبقى منها يأكله والدي، وبعد ذلك، يطلب والدي مني الجلوس، ويمشي في الشارع يسأل المارة عن مكان دار الأيتام. سأل ثلاثة أشخاص ذكروا أنهم ليسوا متأكدين إذا كان هذا المكان يوجد به دار أيتام أم لا، أما الشخص الرابع فيأخذ مهلة للتفكير ويخبره بالمكان المحدد لهذه الدار.

والدي يحملني ونسير في طريق طويل جدًا، ونصل إلى جانب جسر من البلاط الصخري، ويوجد تحته نهر (جي جيه)، وكان فصل الجفاف وقتئذ. ويسمع صوت غناء أطفال ينبعث من غرفة قبالة الجسر، ويعتقد أنها دار أيتام، وفي الحقيقة هناك رياض أطفال. يحملني والدي ونقف على رأس الجسر، وسمعت صوت غناء ينبثق من بناية قبالة الجسر وأخاطبه بسرور قائلاً:

«بابا، هناك أطفال كُثر».

والدي يحني رأسه ويجيل بصره في كافة الجهات، ويرى غابة صغيرة على مقربة من الجسر، وهناك بضعة أحجار ضخمة تتخلل الأعشاب الكثيفة والملتفة. وأضخم حجر يوجد في أحد الجوانب لونه أخضر وسطحه أملس، ويمسح والدي أعلاه بيديه، ويزيل التراب وبعض الحصى المتكسرة من فوقه مثل جلو آثار الصدأ من فوق لوح حديدي باستخدام ورق السنفرة، ويصقله حتى يلتمع ويشرق، ثم يحملني ويضعني فوق ذلك الحجر، ويستل من جيبه كمية كبيرة من الحلويات ويدسها في جيوبي، وأحملق

بفرح شـديد في تلك الحلويات، وما جعلني أكثر غبطة وابتهاجًا أن والدي اشترى أيضًا كمية كبيرة جدًا من البسكويت الذي يملأ جيوبـي الثلاثة الأخرى. وبعد ذلـك، يجلب والدي الإبريق الذي يحمله على ظهره، ويعلقه في رقبتي ويقف أمامي، وتحملق عيناه في الأعشاب الكثيفة على أديم الأرض، ويقول:

«انصرف».

أقول: «حسنًا».

يسـتدير والدي جسـمه وينصـرف ولا يجرؤ علـى أن يلف رأسه وينظر إلي، وسـار حتى وصل إلى منعطف، وفي الحقيقة لا يتحمـل، ويدور رأسـه ويرمقني بنظرة، ويرانـي أجلس على الحجر وأهز قدمي في سعادة وغبطة.

يركب والدي قطار العودة، ويرجع إلى مدينتنا في المساء. وبعد نزوله من القطار، لـم يذهب إلى غرفته الصغيرة، بل عرج على منـزل تلك الفتاة، وينادي عليها بـأن تخرج، وبعد ذلك يتوجهان إلى الحديقة في صمت مطبق، الفتاة تقتفي أثره في الخلف وقد اعتادت على أنه كثير الصمت.

عندما وصلنا إلـى الحديقة، كانت بوابتهـا موصدة. والدي يسـير على امتداد سـور الحديقة وهي تسـير وراءه، حتى دلفا إلى مكان ناء وهادئ، وتتسـمر قدماه، وينكس رأسـه ويحكي ما فعلـه في ذاك اليوم، وأخيـرًا يؤكد أنه تركنـي على مقربة من دار الأيتام. الفتاة تلجمها الدهشـة والذهول، ولا تجرؤ على أن تصدق أنه تخلى عني بهذه الطريقة، حتى شـعرت بالخوف إلى حـد ما. ثم أدركت أنه فعل ذلك مـن أجل حبها، وتحتضنه بقوة وتقبله بحرارة، وهو بدوره يحتضنها بشدة أيضًا. الحطب الجاف

يتوق إلى النار المتأججة، ويتفقان بعد التشاور وبفارغ الصبر على الاضطلاع بإجراءات تسجيل الزواج غدًا. وبعد أن هدأت حمأة جيشان العواطف، يقول والدي إنه يشعر بالإعياء، ويعود إلى الغرفة الصغيرة بجوار قضبان السكة الحديدية.

في ذاك المساء ظل والدي ساهرًا طوال الليل، وكانت هذه المرة الأولى التي نفترق فيها بعد أن حملني من فوق القضبان، وبدأ يكون نهبًا للمخاوف والقلق، ولا يعرف مكاني في هذه اللحظة، ولا يعرف هل اكتشف مسؤول دار الأيتام وجودي أم لا؟ وإذا لم يكتشف وجودي، فمن المحتمل أن أظل جالسًا فوق تلك الصخرة، ومن المحتمل أيضًا أن يدنو مني كلب عقور في جوف الليل.

وفي اليوم التالي، والدي قلبه مفعم بالأسى ويمشي مع تلك الفتاة في الشارع الذي يفضي إلى مكتب تسجيل الزواج، ولم تدرك تلك الفتاة أن قلب والدي يشهد تغيرات تقلب وجه الأرض، وشعرت فقط بأن أمارات التعب تبدو على وجهه، وبعد أن استفسرت عن ذلك باهتمام، عرفت أنه لم ينم طوال الليل، وتعتقد أن ذلك من جراء تأثره بالقلق، ولذا ترتسم بسمة حلوة على زاوية فمها.

يقول والدي بعد أن قطع نصف المسافة إنه يشعر بالإرهاق، ويجلس على جانب الرصيف، ويضع يديه على ركبتيه، ثم يدفن رأسه بين ذراعيه وينفجر في نوبة بكاء بحرقة. أخذت تلك الفتاة على حين غرة، تقف هناك ببلادة، وتشعر بالقلق بصورة غامضة. يبكي والدي فترة من الوقت، وبعد ذلك ينهض واقفًا بسرعة، ويقول:

«أريد العودة، أريدُ العودة، وأبحث عن يانغ فيي».

لم يدر بخلدي أن والدي تخلى عني، وأخبرني بكل المشاهد فيما بعد، ثم أبحث في أعماق ذكرياتي عن نُتف من تلك المشاهد. وأتذكر أنني كنت سعيدًا وأشعر بالاطمئنان في البداية، وأجلس فوق ذلك الحجر طوال ما بعد الظهر وأتناول البسكويت والحلويات، وأستمر في الأكل حتى عندما يمـــر أمامي أطفال رياض الأطفال، ويبدون إعجابهم بي بصورة مســتمرة، وســمعت هــؤلاء الأطفال يقولون لآبائهم: «نريد حلويات، نريد بســكويت». بعد ذلك، يغشــى الليل وســمعت نباح كلب في مكان ليس بعيدًا، وبدأت أشــعر بالخوف، ونزلــت من فوق ذلك الحجر، وتواريت عن الأنظار خلفه، ولا يزال الخوف يداهمني، ألملم أوراق الشــجر المتســاقطة على الأعشاب الكثيفة، ورقة ورقة وأغطي بها جســمي، وأغطي بها رأسي أيضًا، ولا أشــعر بالأمان. ويغالبني النوم في غطائي من أوراق الأشجار، وأســتيقظ في الصباح الباكر على صوت جلبــة وضوضاء هؤلاء الأطفال الذاهبين إلى رياض الأطفال، وأرى شــروق الشــمس من الشقوق بين تلك الأوراق، وأصعد من جديد إلى أعلى ذاك الحجر، وأجلس هناك انتظارًا لقــدوم والدي. انتظرت وقتًا طويلاً، ويبدو أن أناسًــا جاؤوا إليّ وتحدثوا معي، وتخونني الذاكرة ولا أتذكر ما دار بيننا من حديث. ليس عندي حلويات ولا بسكويت أيضًا، عندي فقط بعض الماء في الإبريق، وأســتطيع فقط أن أرتشــف رشفتَي مــاء إذا تضــورت جوعًا، وأفتقــر إلى الماء بعد ذلك. وأنا أشــعر بالجوع والعطش والإرهاق، وأهبط من أعلى الحجر وأستلقي على الأعشــاب الكثيفة خلف الحجر، كما سمعت نباح كلب مرة أخرى، وأغطي نفســي من رأسي إلى أخمص قدمي بأوراق الأشجار مرة أخرى، ثم رحت في نوم عميق.

يصل والدي إلى تلــك المدينة في الظهيرة، وبعد أن ينزل من القطـــار، يركض ويهرول علــى الطريق، وفي مــكان بعيد يركز نظراته، ولم ير شبح جسمي فوق الحجر. تتهادى خطوات هرولته تدريجيًا. وتتسمر قدماه في مكان ليس بعيدًا عن الحجر، وطار لبه هلعًا ويجيل بصره في كافة الأنحاء، وعندما يستبد به القلق والاضطراب، يسمع صوتاً ينطلق من منامي خلف الحجر، ويقول:

«لماذا لم يحضر والدي ويأخذني بعد؟».

أخبرني والدي فيما بعــد، بأنه عندما رأى لحافي من أوراق الشجر ضحك أولا، ثم ما لبث أن انخرط في البكاء. يزيح أوراق الشجر، ويحملني من داخل الأعشاب الكثيفة، وعندما استيقظت ورأيت والدي، أهتف في فرحة غامرة:

«جاء بابا، حضر والدي أخيرًا».

حياة والدي عادت إلى فلك حياتي. ومنذ ذلك الوقت، والدي يرفض الــزواج، طبعًا في البداية رفض تلــك الفتاة التي تتدلى ضفائرها علــى منكبيها، وكانت حزينة جدًا، واســتعصى عليها الفهم وهرولت إلى لي يوي جين تبكي بعد أن شــعرت بالحيف. وعرفــت لي يوي جين ما حــدث بينهما، وألقــت باللائمة على والدي، وقالت إنها وزوجها هاوتشــيانغ شينغ يرغبان في تبنيَّ، وتشــعر بأنني ابنها لأنني رضعت من ثديها. ويهز والدي رأســه بخجل ويعتــرف بأنه ارتكب خطأ. ولكــن عندما تطلب منه لي يوي جين أن يستعيد علاقته وانسجامه من جديد مع تلك الفتاة، يقرر والدي المتشــبث برأيه، أنه يســتطيع فقــط أن يكون لديه اختيار واحد أنا أم تلك الفتاة، ويقول:

«أريد يانغ فيي فقط».

والـــدي يلتـــزم بالصمت ولا يقـــدم جوابًا مهما أســـدت إليه لـــي يوي جين مـــن النصح، التي استشـــاطت غضبًا وشـــعرت بأنه لا حول ولا قوة لها، وذكرت أنها لم تعد تعير اهتمامًا لشؤون والدي.

رأيت تلك الفتاة ذات الضفائر الطويلة المسترسلة على ظهرها مرات عديدة بعد ذلك. والدي يســـحب يدي ونمشي في الشارع، ورأيتها مقبلة علينا بســـرور بالغ، وتســـحب يـــدي بقوة وأناديها «مربيتي». والدي يحني رأســـه دائمًا في ذلك الحين، ويســـحب يدي ونمشـــي بســـرعة في البداية، كانت تلك الفتاة تبتســـم في وجهي، ثم تظاهرت بعدم رؤيتنا بعد ذلك ولم تسمع صوتي. وبعد ثلاث ســـنوات، تزوجت قائد سرية في جيش التحرير أكبر منها بعشـــر سنوات ونيف، وسافرت إلى شـــمال الصين البعيد لتكون من أسر الجنود هناك. ومنذ ذلك الحين، قلب والدي لم تساوره الوســـاوس بشـــأن تربيتي وإعدادي، فقد أصبحت كل شيء في حياته، نتقاســـم متاعب الحياة حتى نعيـــش حياة قصيرة مؤقتة نتـــذوق فيها المعاناة أحيانًا، ونتمتع بالذكريـــات الطويلة أحيانًا. وهو يسجل على الحائط عملية نموي وترعرعي، ويطلب مني كل ستة شـــهور أن أقف وألصق جسمي في الحائط، ويرسم بالقلم الرصاص خطوطا عريضة فوق رأسي. وتنمو قامتي في المدرسة التمهيدية بســـرعة، ويرى على الحائط اتســـاع الفارق بين تلك الخطوط أكثر فأكثر، ويبتسم من سويداء قلبه.

قامتي تتاهـــز قامة والـــدي تقريبًا عندما كنـــت في الفرقة الأولى بالمدرســـة التمهيدية، وأبتسم دائمًا في وجه والدي وألوح لـــه بيدي، وهو يضحك: هيه، هيه! ويمشـــي بجـــواري، وأنصب قامتـــي عاليًا حتـــى أكون أطول منه عنـــد المقارنة. واظبت على

ذلك حتى الفرقة الثالثة بالمدرسة الإعدادية، وقامتي تزداد طولا أكثــر فأكثر، وتتضاءل قامة والدي يومًــا بعد يوم، ورأيت بجلاء شــعيرات بيضاء في قمة رأسه، ثم لفت انتباهي التجاعيد التي يغص بها وجهه، لقد أجهد والدي نفســه بصورة مفرطة، ويبدو عليه أنه أكبر من عمره الحقيقي بعشر سنوات.

لــم يعد والــدي عامل التحويلــة آنذاك، فقــد حلت المحولة الكهربائيــة محــل المحولة اليدوية في أتمتة الســكة الحديدية. وغيــر والدي عمله وأصبح عامل محطة، واســتغرق وقتًا طويلاً حتى تأقلم مع عمله الجديــد. ووالدي يحب العمل الذي يتحلى بالمســؤولية. ويركز جل اهتمامــه عندما كان يعمل عامل تحويلة على خط الســكة الحديدية، وإذا أخطأ في عملية التحويل تقع حادثــة مفجعة. ثم ما لبث أن أصابــه الترهل والتراخي بعد أن أصبح عامل محطة، وعمل بلا مســؤولية جعله يشعر دائما بأنه طاقة كبيرة في حيز ضيق.

* * *

الفرقة الصغيرة تنأى رويدًا رويدًا، وقضيبا السكة الحديدية يلتمعان ويمتدان ويبتعدان، وأنا ما زلت قابعاً في كياني نســجته حولي، أنغمس في المتعة حتى نســيت العودة، وشعرت بالإرهاق، وجلست على حجر. وجسدي يشبه شجرة ساكنة، وذاكرتي تركض بخطوات وئيدة في ذاك العالم البعيد الذي يشبه الماراثون.

* * *

يعيش والدي عيشــة التقشــف، ويتحمل مصاريف دراســتي من المدرســة الابتدائية إلى الجامعة، وعلى الرغم من أن حياتنا فقيرة، بيــد أنها لطيفة وهادئة وجميلــة، وحتى جاء يوم تبحث

أمي عني، وتأتي من مســافة ألف ميــل، وتزلزلت أركان حياتي الهادئة. كنت في الفرقة الرابعة بالجامعة آنذاك، ووالدتي تبحث عني مــن مدينة إلى أُخرى على امتداد الســكة الحديدية، وفي الواقع، فإنها بحثت عني منذ ســنوات خلت، وبعد أن أفاقت من الإغماء في القطار، وقطع القطــار زهاء مئتي كيلومتر، تذكرت أنهــا ولدتني قبيل نزولها في محطة القطار، ولا تدري تمامًا في أي محطة كانت ولادتي، وكلفت أحد الأشخاص البحث عني في ثــلاث محطات تجاوزها القطار، ولم يجد أثرًا لي. واعتقدت أن القطار قطع لحمــي إربًا إربًا، أو تضــورت جوعًا ولقيت حتفي على القضبان، أو التهمني كلب، وانفجرت في البكاء وهي كسيرة القلب وبائســة. وبعد ذلك، تخلت عن فكــرة البحث عني، ولكن ذؤابات الأمل ما زالت تشــغل قلبها دائمًا وأبدًا، وتأمل بأن يعثر عليّ رجل طيب ويقوم بتربيتي وإعالتي حتى أشــب عن الطوق، وبعد أن تقاعدت والدتي في الخامســة والخمســين، قررت أن تســافر إلى جنوب الصين بحثًا عني في ذاك العام، وإذا لم تعثر عليّ هــذه المرة، فمن المحتمل أن تتخلى عــن فكرة البحث عني إلى الأبد، وينســق التلفاز والصحــف هنا جهود البحث عني مع والدتي. وكانت ولادتي العجيبة والغريبة قصة طريفة حقًا، وبالغ التلفاز والصحف في تقديم قصة ولادتي، وكان مانشــيت إحدى الصحف بعنوان: «ولادة طفل في القطار».

ورأيت في الصحيفة صورة والدتي ودموعها تنثال، كما سمعت قصة تدفق دموعها في التلفاز، وكان ينتابني شعور مسبق آنذاك بــأن الطفل الذي تبحث عنــه هو أنا، لأن ما ذكرتــه من تاريخ الســنة والشــهر واليوم يوافق ذاك اليوم الذي وُلدت فيه، وعلى

كل حال، نبضــات قلبها لا تعرف الخوف كأن هذه القصة تتعلق بشــأن إنسان آخر. ولم يكن في الحسبان أن يكون عندي اهتمام للمقارنة وأعرف الاختلاف بين دموعها في الصورة التي نشرتها الصحيفة، ودموعها على شاشــة التلفاز، فقد كانت دموعها في الصحيفة ثابتة وتلتصق بخديها، أما دموعها على شاشة التلفاز فمتحركة وتســح من زاوية فمها. وأنا ووالدي الذي يُدعى (يانغ جين بياو) نتقاســم متاعب الحياة لمدة اثنتين وعشــرين ســنة، وتعودت نفســي على الأم التي تُدعى (لي يوي جين)، وتظهر الأم الأُخرى الغريبة بصورة فجائية، وتتدافع مشاعر غريبة في قلبي.

يقرأ والدي القصة التي ســردتها أمــي في الصحيفة آنذاك بدقة، كما يســمع قصتها في التلفاز بدقة أيضًا. وقرر أن الابن الذي تبحث عنــه هو أنا. ويعرف دار الضيافــة التي تقيم فيها والدتــي من أخبــار الصحيفة، وفي بكــور ذاك اليوم عرّج على مكتب محطة القطــار واتصل هاتفيًا بــدار الضيافة التي تقيم فيها، واســتقبلت المكالمة الهاتفية بكل ســهولة ويســر، وبعد أن يدقق في كافة التفاصيل، ســمع والدي بكاءها بحرقة، وتنهمر دموع والدي أيضًــا، ويتجاذبان أطراف الحديث في الهاتف لمدة ساعة وأكثر وصوتهما ينشج، ووالدتي تسأل عن أحوالي بصورة مستمرة، ووالدي يجيب بلا انقطاع، ثم يتفقان على الالتقاء بعد الظهر في الفندق الذي تقيم فيه. والدي متأثر بالغ الأثر، ويعود أدراجه، ويقول:

«جاءت أمك لزيارتك».

يذهب والدي إلى البنك ويسحب من دفتر التوفير ثلاثة آلاف يــوان، وهــذا المبلغ هو كل مدخراته، ويســحب يدي وندلف إلى

أكبر مركز مشـتريات في مدينتنا فتح أبوابه أمام الجمهور توًا، والدي يعتزم شراء ملابس غربية ذات ماركة مشهورة من أجلي. ويـرى والدي أنني يجب أن أرتدي ملابـس على غرار تلك التي يرتديهـا النجوم اللامعة التي تظهر على شاشـة التلفاز، وأقابل والدتي في كبرياء وكرامة، ويجعلها تشعر بأنه لم يعاملني معاملة سيئة طوال اثنين وعشـرين عامًا. يعيش والدي في هذه المدينة منذ سـنوات طويلة، ولكنه لم يبرح محيط محطة القطار بصورة أساسية، وتُعد هذه المرة الأولى التي يدخل فيها مركز المشتريات ذا التصميـم من طراز رفيـع وتتألف من سـتة طوابق، ويتطلع حواليه، ويدمدم، ويقول: «رائع جدًا، فخم جدًا».

الطابق الأول في مركز المشتريات يضم مستحضرات التجميل من جميع الماركات، والدي يأخذ نفسًـا بالقوة، ويخاطبني قائلاً: «تفوح رائحة زكية هنا».

والدي يتقدم إلى أمام كونتر المشتريات الذي يضم مستحضرات التجميل، ويسأل آنسة: «الملابس الغربية ذات الماركة الشهيرة في أي طابق؟».

تجيب الآنسة: «في الطابق الثاني».

والدي مفعم بالحماسة ويسحب يدي، ونخطو خطوات واسعة، ونسند أيدينا على السلم الكهربائي كأن والدي يلف ألوفاً مؤلفة مـن لفائف المال حول خصره، ونصل إلـى الطابق الثاني، ونجد أمامنـا دكان الماركات الأجنبية الشـهيرة، وعندما يدخل والدي هناك يلقي نظرة على أسـعار أربطة العنق في عدة صفوف عند مدخل الدكان، وتُصيبه الدهشة ويخاطبني قائلا:

«رباط العنق يُباع بمئتين وثمانين يوانًا».

أقول: «يا بابا، أخطأت في قراءة السعر، إنه ألفان وثمانمئة يوان».

ترتسم علائم الحزن وليست أمارات الدهشة على وجه والدي، ويحاصره الخجل والحياء، ويقف مشدوهًا هناك. وفي الأيام الماضية، وعلى الرغم من أنه يحيا الحياة الفقيرة ويعيش عيشة التقشف، بيد أنه كان لديه خداع الحواس دائمًا من أنه يمتلك كساء وفيراً وطعاماً كثيراً، وفي تلك اللحظة يشعر بصورة حقيقية بأنه فقير. ولا يجرؤ أن يدخل ذلك الدكان للماركات الأجنبية الشهيرة، ويتقدم إلى الآنسة المسؤولة عن المشتريات ويسألها وتنتابه مشاعر مركب النقص:

- «أين توجد الملابس الغربية رخيصة الثمن؟».
- «في الطابق الرابع».

يحني والدي رأسه ويتدلى ويتقدم نحو السلم الكهربائي للصعود إلى أعلي، وسمعت صوت زفراته ونحن نعتلي ذلك السلم، كما سمعته يقول بصوت خفيض في البداية بأنني لو لم أسقط من القطار، لكان الوضع أحسن، وحياتي ستكون أفضل بكثير مما هي عليه الآن. وقد عرف من الصحف والتلفاز أن والدتي الحقيقية تتمتع بمعاش نائب رئيس قسم، أما والدي الحقيقي فما زال مدير الشعبة في مخفر. وفي الواقع، فإن والدي الحقيقي هو موظف بسيط في تلك المدينة الواقعة شمال الصين، ولكن يرى نفسه أنه شخصية قوية تتحلى بالنفوذ.

يحتوي الطابق الرابع على ملابس الرجال من الماركات المحلية، أنفق والدي ألفين وستمئة يوان واشترى بزة غربية، وقميصًا، وربطة عنق، وحذاءً جلديًا، ثم ما لبث أن عادت إليه خداع

الحواس من الكساء الوفير والطعام الكثير، ويقف على درجات السلم الكهربائي الذي يهبط إلى أسفل رويدًا رويدًا ويفيض حماسة وحيوية، ويشرف من علٍ وينظر إلى إعلان معلق في الطابق الثاني فيه رجل أجنبي يرتدي بزة غربية وحذاء جلديًا، ويقول إنني أكثر أناقة من ذلك الرجل الأجنبي في الإعلان بعد أن ارتديت اللباس الغربي، ثم يتنهد ويتحسر، ولسان حاله يقول إن المرء يعتمد على الملابس لإظهار مكانته وأناقته حقًا.

في هذا اليوم في الساعة الثانية بعد الظهر، يرتدي والدي البزة النظامية للسكة الحديدية، وأنا أرتدي البزة الغربية والحذاء الجلدي، وعرجنا على دار الضيافة ذات النجوم الثلاث التي تقيم فيها والدتي الحقيقية. يتقدم والدي إلى الكونتر الأمامي ويسأل الفتاة هناك عن والدتي، وتخبره بأنها خرجت في الصباح ولم ترجع بعد، ومن المحتمل أنها ذهبت إلى التلفاز. ويبدو أن الفتاة التي تعمل في الكونتر الأمامي تعرف قصة والدتي الحقيقية، وترمقني بنظرة، وهي لا تعرف أنني بطل هذه القصة. جلسنا على الأريكة عند مدخل الردهة ننتظر قدوم والدتي الحقيقية. وبدأ لون الأريكة الأسود يتسخ ويبهت فعلاً، لأن الجلساء كُثر جدًا، ومؤخرتهم نالت كثيرًا من دهان الأريكة. أرتدي البزة الغربية وأصلح هندامي وأجلس بوقار، ويساورني القلق والخوف ومقطب الجبين، ووالدي يصلح لباسه ويجلس باحترام، وتتنابه مشاعر الهم والقلق وهو مقطب الجبين أيضًا، ويرتدي البزة النظامية الجديدة.

لم يمض وقت طويل، وتدخل امرأة في أواسط العمر، وتتجه نحونا وترمقنا بنظرة، وتعرَّفنا عليها ونهضنا في الحال،

وجذبنا انتباهها، وتسـمرت قدماها تحملق في وجهي. وتخبرها فتاة الكونتر الأمامي آنذاك بأننا ننتظرها وتشير إلينا بيدها اليُسرى. وتعرَّفت علينا والدتي الحقيقية، وعلى الرغم من أنها اتفقت مع والدي على الموعد المحدد بعد الظهر، ولكنها لم تتحمل الانتظار، وعرجت على محطة القطار في الصباح بحثًا عن والدي، وكنا في مركز المشتريات في ذلك الحين ولم تعثر علينا، وقابلت هاوتشيانغ شينغ الذي أخبرها بالتفصيل بأن (يانغ جين بياو) تولى رعايتي وإعالتي حتى كبرت، كما ذهبت إلى الجامعة التي درست فيها وأقامت في مسكن الطلاب، وسألت زملائي في الدراسة عن أحوالي بالتفصيل. والآن تدخل دار الضيافة وجسمها يرتعش، وتحدق في وجهي وجعلتني أشعر بأن نظراتها تخترق وجهي، تمشي حتى تصل أمامي، وتفتح ثغرها عدة مرات ولم تتفوه بحرف، وطفرت الدموع من عينيها، ثم أصدرت صوتًا بصعوبة بالغة، وسألتني:

«أأنت يانغ فيي؟».

أومئ برأسي.

وتسأل والدي: «أأنت يانغ جين بياو؟».

والدي يطأطئ رأسه أيضًا.

تنحرط في البكاء، تبكي تارة وتخاطبني تارة أُخرى، وتقول: «ملامحك تشبه أخاك الكبير كثيرًا، وقامتك أعلى من قامته».

تفرغ من تلك الكلمات، وتركع أمام والدي بصورة فجائية، وتقول: «صاحب الفضل، صاحب الفضل..».

والدي يسندها بسرعة وتجلس على الأريكة ذات اللون الأسود الباهت، وتبكي بحرقة بلا انقطاع، وتغمر الدموع وجه والدي

أيضًــا . والدتي الحقيقية تتقدم بالشــكر والامتنــان إلى والدي بصورة مســتمرة، وكل جملة شكر وامتنان تتبعها كلمات تعبر عن أنها لا تستطيع أن تشكر والدي على ما قدمه من جميل ومعروف كبيريــن، وعرفت أنه تخلى عن حيــاة الزوجية من أجلي، وتتكلم وفي عينيها دمع يترقرق:

«أنت قدمت تضحيات كبيــرة من أجل ابني، تضحيات كبيرة جدًا».

والدي لم يتعود على سماع تلك الكلمات ورؤية تلك التصرفات، ويحملق في وجهي ويقول: «يانغ فيي ابني أيضًا».

والدتــي الحقيقية تكفكف دموعها، وتقــول: «أجل، نعم، هو ابنك أيضًا، هو ابنك إلى الأبد».

بعد أن يسود الهدوء تدريجيًا، تمسك والدتي الحقيقية يدي، وتحدق فــي وجهي بعينــين مذهولتين، وتتحــدث معي بكلمات مفككة ومشوشــة، وفي كل مرة عندما أجيب على أسئلتها، تدير رأسها، وتخبر يانغ جين بياو بسرور بالغ:

«صوته يشبه صوت أخيه الأكبر تمامًا».

والدتي الحقيقية تثق ثقــة تامة بأنني ابنها الذي أنجبته في مرحاض قطار متحرك قبل اثنين وعشــرين عامًا، وذلك بفضل معالم وجهي وصوتي.

وفيما بعد، أثبتت نتيجة تقييم رابطة الدم في الحمض النووي (DNA) بالدليــل الحقيقي أنني ابنها . وبعد ذلك، جاء أقربائي الغربــاء مهرولين من تلك المدينة في شــمال الصين، جاء والدي الحقيقي، ووالدتي الحقيقية، وأخي الأكبر، وأختي الكبرى، كما جــاءت زوجة أخي الأكبــر، وزوج أختي الكبرى. وشــهد التلفاز

والصحف في مدينتنا جلبة وضوضاء بعد لم شمل أسرة «الطفل الذي وُلد في القطار»، وشاهدت نفسي في التلفاز مرتبكًا وقلقًا، أما في الصحف فكنت أبتسم على مضض.

واستمرت هذه الحملة والضوضاء لمدة يومين، وفي اليوم الثالث تحول الاهتمام في التلفاز والصحف إلى «حملة الرعد المفاجئ» التي تقوم بها الشرطة للقضاء على الأدب الإباحي. وذكرت الصحف أن الشرطة تضطلع بالتمشيط المباغت والصاعق لمراكز الاستحمام والممرات في مدينتنا تحت جنح الظلام، وألقت القبض على المخالفين للقانون وبلغ عددهم ثمانية وسبعين من المشتبه بهم في الدعارة والمومسات، وكان من بينهم مومس لم يُتوقع أنها رجل واسمه (لي)، تهندم في ملابس امرأة لممارسة الدعارة من أجل كسب المال، ويتحلى بالمهارة العالية جدًا في طرائق الدعارة، واستقبل أكثر من مئة زبون في أكثر من عام. ولم يكن في الحسبان افتضاح أمره من جانب الداعرين. وكان ذلك بؤرة الاهتمام في الأخبار، ثم انتقل الاهتمام في التلفاز والصحف من «ولادة طفل في القطار»، وتركز على ذلك الرجل المتنكر في زي النسوة ويمارس الدعارة الزائفة وكأنه فتاة، وأشار فقط إلى مهارته الحاذقة في ممارسة الدعارة، أما تفاصيل كيفية استغلال تلك المهارة في الدعارة، فقد أشار التلفاز إلى ذلك بصورة غامضة، والناس في مدينتنا يحلو لهم الحديث في هذا الموضوع، وخمنوا طرائق متعددة ومتنوعة تتسم بها تلك المهارة في ممارسة الرذيلة.

* * *

يحوم حولي المطر والثلج، ولكن لم يصلا إلى عيني وجسدي، وأعرف أنهما ينأيان ويبتعدان. لا أزال أجلس فوق حجر، ومازالت ذاكرتي تركض في عالم الفوضى والارتباك.

* * *

تخرجت في الجامعة بعد انقضاء شهرين من عودة أقربائي الغرباء إلى مدينتهم في شمال الصين. وعندما جمعنا اللقاء، أعرب والدي ووالدتي اللذان أنحدر من صلبهما ودمهما، عن أملهما في أن أعمل في المدينة التي يقطنان فيها بعد تخرجي. وقال والدي الحقيقي إنه يستطيع أن يعمل لمدة أربع سنوات في منصب رئيس شعبة بالمخفر، وبعدها ستتم إحالته إلى المعاش، وينتهز فرصة أنه ما زال يتمتع ببعض النفوذ والسلطة، ويجري اتصالات ببعض الجهات للحصول على عمل جيد. ووافق والدي يانغ جين بياوعلى ذلك بصورة كاملة، فقد كان يرى أنه رجل عادي بسيط لا حول ولا قوة له، ويفتقر إلى وسيلة لمساعدتي في الحصول على عمل يرضي طموحاتي، ويعتقد أن مستقبلي سيكون بلا حدود عندما أسافر إلى تلك المدينة في الشمال. وكان والدي الحقيقي قدم هذا الاقتراح آنذاك بحذر شديد خشية أن يثير غضب يانغ جين بياو، ويوضح مرارًا وتكرارًا أنه لا بأس أن أمكث هنا وأعمل، ويستطيع أن يفكر في وسيلة ويقيم علاقات هنا ويجعلني أحصل على عمل جيد. ولم يدر بخلده أن يانغ جين بياو يقبل اقتراحه بكل همة ويشكره بإخلاص على ما قدمه من تضحيات من أجلي، بل جعله في غاية الحرج، ويصحح يانغ جين بياو أقواله بعد أن رأى علامات الحيرة والارتباك تظهر على وجهه، ويقول:

«لا يجوز أن أقول شكرًا وامتنانًا، يانغ فيي هو ابنكما».

تتأثر والدتي الحقيقية تأثرًا بالغًا، وتمسح دموعها بمنأى عن الأنظار، وتخاطبني قائلة: «إنه رجل طيب، إنه رجل صالح حقًا».

يدرك والدي أن المدينة التي أسـافر إليها باردة جدًا، ويحيك من أجلي كنزة صوف سـميكة، ناهيك عـن بنطال صوفي. كما اشـترى لي معطفا أسـود من الجوخ، وحقيبة سـفر كبيرة جدًا وعبأها بملابس الفصول الأربعة، ثم يُفرغ منها الملابس القديمة، ويذهب للسوق ويشتري ملابس جديدة لي. ولا أعرف أنه اقترض بعض المال من صديقه هاو تشيانغ شينغ، ولي يوي جين من أجل شـراء ملابس جديدة لي. وفي بكور ذات يوم في فصل الصيف، أجرُّ حقيبة السـفر التي تكتظ بملابس الشتاء وفي داخلها البزة الغربية أيضًا، وأمشـي وراء يانغ جين بيـاو وندلف إلى محطة القطار، وبعد أن خرم التذكرة يسلمني إيَّاها ويوصني بالمحافظة عليها حيث هناك تفتيش على التذاكر داخل القطار. وعندما كنا ننتظر على رصيف المحطة، يحني والدي رأسه، ولم يتفوه بكلمة، وعندما ركبت القطار ويتحرك بخطوات وئيدة، رفع رأسه ويربت على كتفي، ويخاطبني قائلا:

«اكتب إليّ رسالة، واتصل بي هاتفيًا عندما يكون لديك متسع من الوقت حتى أشعر بالاطمئنان، وهذا وحده يكفي، ولا تجعلني فريسة للقلق من أجلك».

عندما كان القطار الذي ركبته يغادر المحطة، كان والدي يقف هنـاك يحدق في القطار ويلـوح بيده، وعلى الرغم من أن هناك ركابـاً كثراً على رصيف المحطة يذرعون المكان جيئة وذهابًا، بيد أنني أشعر بأن والدي يقف وحده هناك.

وأشعر دائمًا بالحزن عندما يدور بخلدي مشهد محطة القطار فـــي بكور أحد أيام فصل الصيف، وذلك بعد أن تلاشـــى وجوده في حياتي بهدوء. وعشـــت معه حتى ســـن الحادية والعشـــرين. واقتحمت حياته على حين غرة، وملأت عليه أقطار حياته تمامًا، وكان يجب أن يتمتع بالســـعادة، بيـــد أنه لم يتذوقها أبدًا. وبينما تحمل المشاق من أجل تربيتي وإعالتي، أنا تخليت عنه دون وعي فوق محطة القطار.

بدأت في تلـــك المدينة حياة غريبة وقصيـــرة. يذهب والدي الحقيقي إلـــى الدوام مبكـــرًا ويعود متأخرًا، وهـــو منهمك في العمل وحفلات العشـــاء. وأنا ووالدتي الحقيقية التي تقاعدت، لا نفتـــرق ليلاً نهاراً، وتصطحبني فـــي التجول بين المناظر التي تســـتحق المشـــاهدة في تلك المدينة، كما نعرج على بيوت عشرة من زملائها في العمل، وتبرز أمام عيونهم ابنها الذي فقدته لمدة اثنين وعشرين عامًا، ويشعرون بفرحة غامرة بعد لم الشمل بين الأم والابن، لكن مشـــاعر الاستغراب كانت الأكثر شيوعًا لديهم. ووالدتـــي الحقيقية، صاحبة الوجه البشـــوش، تحكي لهم قصة كيفية العثور علي، وعندما يتطـــرق حديثها إلى إثارة العواطف، يترقرق الدمع في عينيهـــا، وكنت مرتبكًا وحائرًا في البداية، ثم تعودت ببطء، وشعرت بأنني مثل سلعة ضاعت وتم العثور عليها، وأعارت أذنًا صاغية دون أن أشـــعر إلى حديث والدتي الحقيقية عن آلام الفقدان، وبهجة اللقاء بيننا.

كنـــت ضيفًا عزيزًا فـــي بداية إقامتي في الأســـرة الجديدة، ووالدي ووالدتي اللذان أنحدر من صلبهما ودمهما، وزوجة أخي الكبيـــر وزوج أختي الكبيرة يهتمـــون دائمًا بصحبتي والاطمئنان

علـــي، وأدركت بعد أســـبوعين أنني ضيف بلا دعـــوة. ونتزاحم جميعًا في شقة تتألف من ثلاث غرف يعيش فيها الوالدان وأخي الكبير وزوجته، وأختي الكبيرة وزوجها، أما أنا فأنام على سرير طواء في الردهة الضيقة، وفي المســـاء وقبـــل النوم، أطرح أولاً طاولة الطعام جانبًا بجوار الحائط، ثم أفرد السرير الطواء. وكل يوم في البكـــور، وعندما أغط في نومي، تأتي والدتي الحقيقية توقظني من نومي برفق شـــديد، وتطلب مني طي ســـريري في أسرع وقت ممكن، وأســـحب طاولة الطعام إلى مكانها الأصلي، وإلا لا يجـــد أفراد الأســـرة مكانًا يتناولون فيـــه طعام الإفطار. والدتي الحقيقية تبدي اعتذارها وأســـفها، وتواسيني وتقول إن وحـــدة عمل أخي الكبير ســـوف توزع عليه شـــقة قريبًا، كما أن وحـــدة عمل زوج أختي الكبيرة ســـتوزع عليه أيضًا شـــقة قريبًا، ويمكـــن أن يكون لي غرفة خاصة بعد أن ينتقلا إلى مســـكنهما الجديد.

وتشهد أسرتي الجديدة هذه الشـــجار والعراك دائمًا، حيث الشـــجار بين أخي الكبير وزوجته، وبـــين أختي الكبيرة وزوجها، وبين أبويّ الحقيقيين، وأحيانًا يقع العراك بين أفراد الأسرة كلها، وينجم عن ذلك المشـــهد الفوضوي الذي يجعلني لا أميز بوضوح الأطراف المتناحرة. وذات مرة حدث شـــجار بسببي عندما كنت على وشـــك الذهاب إلى وحدة عمل لأســـجل اسمي، وقال أخي الكبير إن نومي في الردهة يثير المشـــكلات، واقترح أن أستأجر غرفة في الخارج بعد الحصول على عمل وتقاضيّ راتباً، وحظي اقتراحه بتأييد أختـــي الكبيرة أيضًا. والدتي الحقيقية في ثورة غضب تشير إليهم بإصبعها وتصرخ في وجوههم قائلة:

«أنتم لديكم العمل وتتقاضون الراتب، فلماذا لا تستأجرون شقة في الخارج؟».

والدي الحقيقي يؤيد كلمات والدتي الحقيقية، ويقول إنهم يعملون منذ بضع سنوات خلت، ويدخرون بعض النقود في البنك، ويتعين عليهم استئجار شقة في الخارج. وبعد ذلك، نشب عراك بين الأبناء والوالدين، وأخي الأكبر وأختي الكبيرة يعددان زملاءهم في الدراسة الذين يكون أولياء أمورهم من ذوي السلطة والنفوذ وجهزوا لأبنائهم البيوت للمعيشة منذ زمن بعيد. والدي الحقيقي يغضب غضبًا شديدًا وقد بُهت لونه ووجهه، ويلعن أخي الكبير وأختي الكبيرة، ويصفهما بأنهما جاحدا الجميل والمعروف، ثم ما لبثت والدتي الحقيقية تسبهما وتصفهما بأنهما يفتقران إلى الضمير، وتقول إنهما الآن يعملان بفضل علاقة والدي الحقيقي. أقف في ركن وأرقب شجارهم الصاخب العاصف، وأشعر بالحزن والهم في سويداء قلبي على حين غرة. وبعد ذلك جاء الدور على المشاحنة بين أخي وزوجته وأختي وزوجها، الزوجتان تسبان زوجيهما بأنهما ليسا من ذوي الطموح والتطلعات، وتقولان إن زوج فلانة وفلانة في وحدة عمل كل منهما يتحلون بالكفاءة والمقدرة ولديهم شقة وسيارة ونقود، يأبى الزوجان الاعتراف بالضعف، ويقولان إن زوجتيهما تستطيعان الطلاق، وبعد الطلاق تبحثان عن الرجال الذين يملكون الشقق والسيارات والمال. تهرول أختي الكبيرة إلى الغرفة في التو وتكتب اتفاقية الطلاق، وقد حذت حذوها زوجة أخي الكبير، ويوقع على الاتفاقية كل من أخي الكبير وزوج أختي الكبيرة. وبعد ذلك ينفجران في بكاء صاخب، كما يعتزمان

القفز من المبنى السكني، يهرول زوج أختي الكبيرة إلى الشرفة ويحاول القفز، ثم أختي الكبيرة تركض إلى الشرفة أيضًا، يهدأ أخي الكبير وزوج أختي الكبيرة، الزوجان في الشرفة يسحبان الزوجتين ويحاولان شرح حجتيهما ويعتذران عن أخطائهما، وفي حضوري وأمامي يركع أحد الزوجين، أما الزوج الآخر فيضرب فمه. في هذه الأثناء، يدخل أبواي الحقيقيان إلى غرفتيهما، ويوصدان الباب، ويأويان إلى فراشهما، فقد اعتادا على مثل تلك المشاحنات.

بعد أن هبت العواصف والأمطار الرعدية على هذه الأسرة، أقف في الشرفة في هدأة جوف الليل، وأرقب المناظر الليلية الفخمة في تلك المدينة الواقعة في شمال الصين، ويخطر على بالي والدي يانغ جين بياو. ومنذ صغري حتى شببت عن الطوق، لم يسبني، ولم يضربني، وعندما أقترف خطأ يعنفني بكلمات قليلة وبرفق شديد، ثم يرسل زفرة كأنه ارتكب خطأ.

في بكور اليوم التالي، ساد السكون والهدوء الأسرة بعد أن هدأت العاصفة وكأن شيئًا لم يحدث. يتناول أفراد الأسرة طعام الإفطار ويذهبون إلى الدوام، أجلس أنا ووالدتي الحقيقية على مقربة من طاولة الطعام، وتشعر بتأنيب الضمير من جراء الشجار الذي نشب مساء أمس بسببي، كما أنها أكثر شعورًا بالظلم الذي يقع عليها. وتجأر بالشكوى بلا انقطاع، تشتكي من أن أخي الكبير وأختي الكبيرة يأكلان ويشربان بلا مقابل، ولا يدفعان تكاليف الطعام أبدًا، كما تجأر بالشكوى من والدي الحقيقي الذي بعد انتهاء الدوام يشارك في الكثير من حفلات العشاء والمآدب، ويعود إلى بيته ثملاً مساء كل يوم تقريبًا.

والدتي الحقيقية تثرثر وقتًا طويلا جدًا، وتشتكي من أن بيتها عبارة عن ركام من المشـكلات، وتقول إن معالجة شـؤون البيت على هذا النحو يشـعرها بالإرهاق والتعـب. وقد انتظرت حتى فرغت من كلامها، وأخبرتها بصوت خفيض:

«أريد العودة إلى البيت».

تشـعر بالارتباك والحيرة بعد أن سـمعت كلامي، ثم أدركت أن البيـت الذي أقصده ليس هنا، بل في جنوب الصين. وتسـح دموعها في صمت رهيب، ولم تنصحني بالعدول عن فكرة العودة إلى هناك، بل تكفكف دموعها بيدها وتقول:

«هل تعود إلى بيتي هنا مرة أخرى وتأتي لزيارتي؟».

أطأطئ رأسي.

تقول بحزن وألم شديدين: «تعرضت للتعسف والحيف خلال تلك الأيام التي قضيتها هنا».

لم أتفوه بحرف.

بعد أن عشـت سـبعة وعشـرين يومًا داخل هذه الأسـرة الجديدة، أركب القطار وأعود أدراجي إلى أسـرتي القديمة. ولم أخـرج من المحطة بعد أن نزلت مـن القطار، بل أجرجر حقيبة السفر وأعبر ممرًا تحت الأرض، وأجتاز ثلاثة أرصفة بحثًـا عن والدي الذي رأيت شـبحه فـي الرصيف رقم (4)، وعندما توجهت نحوه، كان يرشـد أحد الركاب بالتفصيل إلى الطريق الصحيح بعد أن أخطأ في تحديد الرصيف، وانتظرت حتى قال ذاك الراكب «شـكرًا»، ويلف جسـمه ويمشي، وبعد ذلك، أنادي:

«بابا».

والدي عندما يمشي يصبح جسمه متيبسًا بصورة فجائية، وأناديه مرة أخرى، ويستدير بجسمه ويحملق في وجهي بدهشة، كما ينظر بذهول إلى حقيبة السفر التي تجرها يدي، ويرى أن الملابس التي أرتديها هي الملابس نفسها عند مغادرتي، بالإضافة إلى حقيبة السفر، فكيف غادرت؟ وكيف رجعت أيضًا؟

أقول: «بابا، رجعت إليك».

والدي يدرك المعنى الذي أقصده بما تفوهت به من «رجعت إليك»، ويومئ برأسه قليلا، ويترقرق الدمع من عينيه، ويلف جسمه في عجالة، وينصرف، ويمضي قدمًا في عمله. أنظر إلى ساعة الرصيف وأعرف أنه مازال في وقت الدوام، أجرجر حقيبة السفر وأمشي حتى أصل إلى جوار السلم في الممر تحت الأرض، وأقف هناك أنظر إليه وهو يعمل بكل دقة متناهية، ويقوم بتوجيه وإرشاد نفر من الركاب إلى مكان العربة التي يستقلونها في القطار، كما يحمل حقيبة سفر راكب طاعن في السن ويساعده في ركوب القطار، وبعد أن يغادر هذا القطار رصيف المحطة، يرفع رأسه وينظر إلى الساعة ويعرف أنه قد حان وقت انتهاء الدوام، ويأتي إلى جواري ويحمل حقيبتي وينزل درجات السلم، وأمد يدي وأحاول أن أستعيد الحقيبة من يده، ولكنه يدفعني بقوة بيده اليسري كأنني ما زلت طفلا لا أستطيع حمل مثل تلك الحقيبة الكبيرة.

رجعت أدراجي إلى بيتي، وفي تلك الأثناء، تركنا الغرفة الصغيرة بجوار السكة الحديدية، ونقلنا إلى بناية مساكن عمال السكة الحديدية، وعلى الرغم من أننا نقطن في غرفتين، ولكن لا تسمع فيهما صوت شجار وعراك.

يشــعر والدي بالهدوء التام إزاء عودتــي المباغتة، ويقول إنه لا يعرف أنني أرجع هنا، ومن ثم لا يوجد طعام في البيت، وطلب مني الاستحمام، بينما يذهب إلى مطعم على مقربة من مسكننا ويشتري أربعة أصناف من الخضراوات. وهو قلما يغشى المطعم، وكانت هذه المرة الأولى التي يشتري فيها مثل تلك الخضار على حين غــرة. ولم ينطق بكلمــة تقريبًا أثناء تنــاول الطعام، وكان يلتقط الطعام بصورة مستمرة ويضعه في سلطانية طعامي. وأنا لم أتكلم كثيرًا أيضًا، وأخبرته فقط بأنني أشــعر بأن هذا البيت يناســب إقامتي، والآن من الســهل إلى حد ما أن يحصل طالب الجامعــة على عمل، وبحثي عــن عمل هنا لا يكون أقل عن ذاك العمل الذي قدمه لي والدي الحقيقي. والدي ينصت إلى كلامي تارة، ويومئ برأســه تارة أخرى. وعندما قلت أعتزم البحث عن عمل غدًا، بدأ يتكلم:

«علام كل هذه العجلة؟ استرح بضعة أيام».

أخبرني هاو تشيانغ شينغ فيما بعد، أنني بعد أن غلبني النوم في مســاء ذاك اليوم، وحضــر والدي إلى بيتــه، ودخل الغرفة وانثالت دموعه، وكانت تنهمر دموعه حينًا، ويتحدث إليه وزوجته لي يوي جين حينًا آخر، ويقول:

«رجع يانغ فيي، عاد ابني إلى أحضاني».

كان والــدي يعتقــد حتى آخــر لحظة في حياته أنه أحســن عمــل اضطلع به طــوال حياته هو تربية ابن اســمه (يانغ فيي) وإعالته. وقــد تقاعد عن العمل آنذاك، وأنا أعمل مدير قســم في تلك الشــركة، وادخرت بعض المال وأعتزم شراء شقة جديدة تتألف من غرفتين. وأســتغل الإجازة في نهاية الأسبوع، وأغشى

مــع والدي أكثر من عشــرة أحياء ســكنية صغيرة قيــد البناء والتعمير، وأعجبتني شــقة هناك، ونستعد لأن نبيع شقة والدي ذات الغرفتين في مســاكن الســكة الحديدية، وهي الشقة التي وُزعت عليه ومصدر رفاهيته، أضف إلى ذلك مدخراتي في تلك الأعــوام، ويمكن أن ما فــي جعبتنا من نقود يكفي لشــراء تلك الشقة الجديدة. وعلى الرغم من إخفاقي في الزواج جعله يتنهد ويتحســر دائمًا، بيد أن نجاحي في عملي جعله يشــعر بالسرور والرضى بصورة عميقة.

في تلك الأيام، أشــارك في عدد غير قليل من حفلات العشاء والمآدب في المســاء، وعندما أعود متأخرًا إلى البيت، أجد والدي طها طعامًــا لذيذًا وينتظر حضــوري، وإذا لم أرجــع إلى البيت، لا يتناول الطعام ولا ينام أيضًا. وبدأت أعتذر بقدر استطاعتي عن تلك الحفلات والمآدب في المساء، وأرجع إلى البيت وأتناول الطعام مع والدي، ونشــاهد التلفاز ســويًا. وفي إجازة العام، يرافقني في الســفر إلى الجبل الأصفــر[1]. وكان ذلك المرة الأولى وكذلك المرة الأخيرة التي يغادر بيته ويســافر للسياحة. والدي البالغ من العمر ســتين عامًا، قوي البنية والعافيــة، وعندما أصعد الجبل الأصفر تتقطع أنفاســي، وهو لا يزال أنيقًا خفيف الحركة مثل السُنونو[2]، وأحتاج إليه في أن يشد جسمي في الأماكن شديدة الانحدار.

أحيل هاو تشيانغ ولي يوي جين إلى التقاعد، وبعد أن تخرجت ابنتاهما في الجامعة في بكين، ســافرت إلــى الولايات المتحدة

(1) الجبل الأصفر يقع في جنوب مقاطعة آنهوي في شمال غرب الصين، ويعد من أهم المناطق الســياحية العشرة في الصين، وقد أدرجته منظمة اليونســكو في قائمة التراث العالمي في عام 1990. [المترجم]

(2) السُنونو أو الخطاف: طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل. [المترجم]

لإعداد الدراسات العليا، ثم مكثت هناك، وعملت هناك وتزوجت أمريكياً وأنجبت طفلين هجينين جميلين. وبعد تقاعدهما يستعدان للهجرة إلى الولايات المتحدة. وفي طور انتظارهما للحصول على تأشيرة الهجرة، كانا يأتيان لزيارة والدي دائمًا، وكان ذلك بمثابة أسعد لحظة في حياته، وأعرف أنهما جاءا لزيارتنا عندما أعود إلى البيت وأسـمع قهقهات الضحك تصطخب وتدوي، وعندما أظهر أمامهما، تشعر لي يوي جين بسعادة وتناديني:

«يا ابني».

كانـت لي يوي جين تناديني دائمًا بـ «يا بُنيّ»، وأشـعر دائمًا في أعماقي أنها أمي طوال نموي وكبري. وعندما كنت أمص إصبع يانغ جين بياو وأنا قابع في الجيب القماشي أمام صدره، كانت تأتي إلى غرفتنا الصغيرة بجوار السـكة الحديدية كل يوم تقريبًا، وترضعني مـن ثديها، وتخاطب والدي قائلة: حليب الأم أفضل من مسـحوق اللبن. وتختزن ذاكرتي صورتها بأنها نحيفة الجسـم دائمًا. ويقول والدي: إنها كانت سمينة، وأنا التهمت لبنها وصارت نحيلة، وأوافق ضمنيًا على مقولة والدي، ففي ذلك العصر من الفقر المدقع، كانت تعاني من سوء التغذية، وفي الوقت نفسه ترضع طفلا.

معرفتي بأحوال بيتهما ليست أقل من معرفتي بأحوال بيتي، فقد عشـت ردحًا طويلا من طفولتي فـي بيتهما. وعندما يكون والدي في ورديـة ليلية، أتناول الطعام وأنـام في بيتهما أيضًا. وتعاملني لي يوي جين مثل ابنتيهما هاوشياو تمامًا، وكأنها تعامل ابنها وبنتها. وعندما نأكل اللحـم بالمصادفة، تلتقط آخر قطعة في السـلطانية وتعطيني إيَّاها، ولا تعطيها لابنتها هاوشياو التي بكت ذات مرة، وقالت:

«يا ماما، أنا ابنتك من صلبك ودمك».

تقول لي يوي جين: «أعطيك المرة القادمة».

بيني وبين هاوشياو صداقة تكونت في مهد الطفولة، وعقدنا اتفاقًا سريًا أن نتزوج بعد أن نشبّ عن الطوق، وبذلك نستطيع أن نمكث سويًا دائمًا وأبدًا، وذكرت هاوشياو آنذاك:

«أنت ستكون أبًا، وأنا سأكون أما».

كان إدراكنا للزواج في ذلك الحين عبارة عن رابطة تجمع بين الأب والأم، ولكن بعد أن فهمنا المقولة الأكثر دقة، ومفادها أن تلك الرابطة يجب أن تكون بعد أن نصبح زوجا وزوجة، لم يعد أحد منا يذكر ذلك الاتفاق السري مرة أخرى، ونسيناه بنفس السرعة التي وافقنا عليه.

في الأيام التالية، لم أسافر مرة أُخرى إلى تلك الأسرة التي تقطن في مدينة شمال الصين، غير أنني أتصل بهم هاتفيًا في عيد رأس السنة أو في غيره من الأعياد، وتستقبل والدتي الحقيقية المكالمة الهاتفية، وبعد أن تسألني عن التطورات الأخيرة بالتفصيل في الهاتف، توصيني دائمًا بالاهتمام ورعاية يانغ جين بياو، وأخيرًا تتنهد شوقًا وتقول الجملة التالية:

«هو رجل صالح».

تعتل صحة والدي يانغ جين بياو بعد انقضاء شهرين من تقاعده، ويعزف عن تناول الطعام، وقد وهنت صحته بصورة مطردة، وطول اليوم ليس فيه إلا نفس يتردد. وأخفى عني حقيقة مرضه، ولم أعرف أنه يخوض صراعًا مع المرض، وكان يثق بأنه يبرأ من سقمه رويدًا رويدًا. وعندما كان يصيبه مرض في الماضي، لا يذهب إلى المستشفى، ولا يتناول الدواء، ويعول

على قــوة بنيانه وعافيته ويتحمل ويتجلد، وفي هذه المرة ما زال يثق بأنه قادر على النهوض والشــفاء. كنت مشــغولا في عملي وقتئـــذ، ولم يلفــت انتباهي منظر والدي الــذي يلتهمه الإرهاق والتعـــب يومًا بعد يوم، وفـــي ذات يوم اكتشــفت أن والدي بات نحيلاً ونحيفًا وجفّ عوده، وعرفت آنذاك أن المرض أصابه منذ نصف ســنة. وأجبرته على إجراء الكشف الطبي في المستشفى، وبعد إعداد التقرير الطبي وأخذته بيدي المرتعشـــة، عرفت أنه مصاب بمرض الورم اللمفاوي.

جحظت عيناي وأرى غوائل المـــرض المزمن تلتهم والدي إربًا إربًا، وأنا بلا حول ولا قوة. والمعالجة بالإشعاع، وإجراء العمليات، والعـــلاج بالكيماوي تتهافت على قوة بنيان والدي ويتآكل لدرجة أنه يترنح ويتمايل في مشــيته، ويســقط علـــى الأرض من جراء عاصفـــة ريح. وتتحمل هيئة الســـكة الحديدية جزءًا من نفقات عـــلاج والـــدي بصفته عامـــلاً متقاعـــدًا كان يعمل بهـــا. ولكن مصاريـــف العلاج ضخمة جـــدًا، ويجب علـــيّ أن أتحمل الجزء الأكبر منها، وأبيع شـــقة والدي في مســـاكن الســـكة الحديدية بهدوء وبلا ضجة. وتقدمت باستقالتي من عملي من أجل رعاية والدي، واشتريت حانوتًا صغيرًا على مقربة من المستشفى، وينام والدي في الغرفة الداخليـــة، وأنا أنام في الحانوت في الخارج، أبيع اللوازم اليوميـــة للزبائن الذين يذرعون المكان جيئة وذهابًا، وذلك من أجل الاستمرار في الحياة اليومية.

يشعر والدي بحزن شديد لأنني لم أتشاور معه بشأن استقالتي من العمل وبيع شـــقته، وعندما علم بالأمر الواقع، يتأوه ويصعد الزفرات دائمًا، ويقول وقلبه مفعم بالأسى:

«بعت الشقة، وتقدمت بالاستقالة من العمل، ماذا تعمل في المستقبل؟».

أقوم بمواساة والدي، وأنتظر حتى يبرأ من سقمه، وأعود إلى عملي في الشركة من جديد، وأدخر بعض المال، وأشتري شقة جديدة، وأجعل والدي ينعم بالراحة في خريف العمر. يهز والدي رأسه، ويقول هل ما زال هناك نقود تشتري شقة؟ أقول: لا يمكن أن ندفع كل ما نملكه من النقود، ويمكن شراء الشقة بالقروض التي نسددها بالتقسيط. ولايزال والدي يهز رأسه باستمرار ويقول لا أريد شراء شقة، ولا أريد الاقتراض. ألتزم الصمت ولم أنطق بكلمة، وقبل الارتفاع الهائل في أسعار الشقق، كان عندي خطة للشراء بالتقسيط ولكن والدي تنتابه المخاوف من اقتراض مبالغ كبيرة من البنك، واضطررت لأن أتخلى عن هذه الخطة.

يبدو أن حياتنا عادت إلى ما كانت عليه في الغرفة الصغيرة الآيلة للسقوط بالقرب من السكة الحديدية. وبعد أن نوصد باب الحانوت في المساء، نتكوم أنا ووالدي فوق الفراش ونغط في النوم. وأسمع تنهدات والدي وأنينه في المساء كل يوم، فهو يرسل الزفرات بسبب مستقبلي في الأيام القادمة، ويئن أنينًا بسبب آلام مرضه. وعندما تخف حدة آلام مرضه بعض الشيء، نتذكر سويًا ماضينا. ويزخر صوت والدي بالغبطة والفرحة آنذاك، ويسرد الكثير من الحكايات في طفولتي، ويقول عندما كنت صغيرًا وأريد النوم، أصر على أن أحظى باهتمامه ورعايته، وفي بعض الأحايين عندما يعدّل والدي وضعه في النوم ولا يستدير بظهره، أصرخ في التو مرة تلو مرة، وأقول:

«يا بابا، اهتم بي، يا بابا، اعتن بي..».

أخبرت والـــدي بأنني كنت أصغي إلى صوت شـــخيره دائمًا عندما أســتيقظ في منتصف الليل وأنـــا صغير غرير، ولكن لم أسمعه عدة مرات، وبكيت بخوف شديد خشية أنه ربما قد رحل عن دنيانا، وهززته بقوة حتى اســتيقظ من نومه، ورأيته جالسًا على السرير، وابتسمت ابتسامة تبللها الدموع، وقلت له: لا تمت أبدًا.

ذات يوم في المســاء لم يتنهد والدي، ولــم يئن أيضًا، بل راح يتكلم بصوت خفيض جدًا، وذكر كيف أنه ســمع بكائي وانتحابي على السكة الحديدية، وكيف حملني إلى بيت لي يوي جين وطلب منها أن ترضعني من ثديها، وأنا في الرابعة من عمري، أخبرني في ذاك المســاء أيضًا بأنــه تخلى عن فكرة الــزواج من أجلي، وعندما تطرق بحديثه إلى هذا الموضوع بكى بمرارة، ويحاســب نفسه عن أعماله تكرارًا ومرارًا، ويقول:

«كيف أستطيع أن أكون قاسي القلب هكذا ..».

كما أخبرتــه بأنني قد تخليت عنه عندما ســافرت إلى تلك الأســرة في مدينة شــمال الصين، وقلت: أصبحنا متعادلين لم ترجح كفة أحد منا. ويتحسس يدي في الظلام، ويقول: لا يمكن أن أعتبــر أنك تخليت عني عندما ســافرت إلــى منزل والديك اللذين تنحدر من صلبهما ودمهما.

ويبتسم ابتسامة رقيقة بعد أن يفرغ ما في جعبته من كلمات. ويتذكــر عندما رجع يبحــث عني أمام ذلــك الحجر الأخضر، وأوراق الشــجر تغطي جسدي كله بسبب البرد، ويقول: لا يوجد طفــل أكثر ذكاء منك فـــي هذا العالم. وكانــت ذاكرتي واضحة جلية على حين غرة في ذاك المســاء، وتذكــرت الحجر، والغابة

والأعشـــاب الكثيفة، كما تذكرت نباح الكلب الذي جعل فرائصي ترتعــد خوفًا ورعبًا. وقلت: ليس البــرد بل الخوف، حيث هناك كلب ينبح دائمًا.

ويقول: «لا غرو، إذن، أن تغطي رأسك بأوراق الشجر».

أضحك: هيــه، هيه، وهو يضحك أيضًــا ويحذو حذوي. ثم يخاطبني بهدوء، ويقول: «أنا لا أخاف الموت، لا أخشــاه إطلاقًا، وخوفي يكمن في عدم رؤيتك مرة أخرى».

وفي اليوم التالي، ينصرف والدي بلا اســتئذان، ويمشي في ســكون وهدوء تامين وبلا ضجة، ولم يترك حتى قصاصة ورق، وينأى بعيدًا عني ويجر خلفه حياة لم يبق منها شــيء يســتحق الذكر.

وفي الأيام المقبلة، لا أكف عن تعنيف نفســي بلا انقطاع من جــراء إهمالي، وقبل مغادرة والدي المنزل ببضعة أيام طلب مني أن أبحث له فــي الدولاب عن بذلته النظامية الجديدة للســكة الحديدية، ووضعها بجوار الوسادة. لم أعر اهتمامًا لهذه البادرة انطلاقًــا من اعتقــادي بأنه يرغب فــي أن يمتع نظــره بالبزة النظاميــة الجديدة التي ارتداها في المرحلة الأخيرة قبل إحالته إلــى المعاش، وأغفلت عادته منذ عدة ســنوات خلت وهي ارتداء تلك البزة النظامية الجديدة في كل مرة يكون عنده أمر مهم.

وقعت كارثة حريق في مدينتنا في ذاك اليوم الذي انصرف فيه والدي بلا اســتئذان، واندلع الحريق في سوق كبير على مسافة أقــل من كيلومتر من الحانوت الصغير الذي اشــتريته، ووصلني خبــر هذه الكارثة بعد الظهر، وكنت فريســة للهموم والهواجس والظنون في ذلك الحين لأن الوقت متأخر، ولم يرجع والدي إلى

البيت. والتمعت فكرة في ذهني حينئذ، وشـعرت بأنه ربما ذهب إلى ذلك السـوق. بيد أن عيد ميلادي سيحل بعد أكثر من شهر، ومن المرجح جدًا أن والدي انتهز فرصة أنه يسـتطيع أن يمشي ببطء، ودلف إلى هناك لشراء هدية عيد ميلادي.

أوصدت باب الحانوت، وهرولت إلى ذلك السـوق. وقد تغير لون السـوق من الفضي الرمادي إلى اللون الأسـود الفاحم مثل الفحم النباتي، وتتصاعـد أعمدة الدخان إلى أعلى، وتم إخماد النيران تقريبًا، ولا تزال حنفيات أكثر من عشـر سيارات إطفاء تضـخ أعمدة المياه العالية وتسـقط على السـوق الذي احترق. وقفت بضع سـيارات إسعاف في الشـارع، ناهيك عن عدد من سيارات الشـرطة. وتصل سـلالم الإطفاء إلى السوق، ويدخل رجال الإطفاء إلى السوق لإنقاذ الناس، ويحملون بعض الأفراد، وبعد أن ينقلوهم إلى سـيارة الإسـعاف يدوي بوقها وتمرق في الشارع بأقصى سرعة.

يتدافع الجمهور إلى تقاطع الطرق المحيطة بالسـوق من كل جهة، ويسـردون قصة اندلاع النيران، ويتكلمون في وقت واحد بسـبعة أفواه وثمانية ألسـنة، وبقيت بين ظهرانيهم أصغي إلى كلماتهـم المتقاطعة، يقول البعض إن الحريق شـب في السـاعة العاشرة صباحًا تقريبًا، بينما يقول آخرون إن النيران شبت وقت الظهيـرة. وأضطلع بحركة مكوكية بين صفوفهم، وأسـتمع إلى مناقشاتهم في أسباب حدوث حريق وتقديرهم لأعداد الجرحى والضحايا، حتى غشي الليل، وأرجع إلى الحانوت.

يذيع التلفاز في المساء خبر الكارثة والحريق بالسوق، وزعمت الأخبار الرسـمية أن الكارثة وقعت من جراء اندلاع النيران في

الدائرة الكهربائية في الساعة التاسعة ونصف الساعة صباحًا. وذكــر مذيع التلفاز أن الســوق كان - آنذاك - فتــح أبوابه توًا، والزبائن في داخله ليســوا كثيرين، وتم إخلاء السوق من معظم الزبائن في عجالة، ولم يبق هناك ســوى قلة قليلة لم يســعفها الوقــت أن تغادر موقع الحادث. أمــا بخصوص أعداد الجرحى والضحايا، فقد ذكر التلفاز أن ذلك قيد البحث والتحقيق.

لم يرجع والدي إلى البيت في مساء ذاك اليوم، وقلبي راجف واجف طوال الليل. ونشرة الأخبار في التلفاز في الصباح عرضت آخر أخبار كارثة الحريق في الســوق، وذكرت أن عدد الضحايا ســبعة، وأن المصابين واحد وعشرون، من بينهم اثنان إصابتهما بالغة. وبحلول الظهيرة، كرر التلفاز أســماء الضحايا والمصابين، ولا يوجد اسم والدي.

ولكن شبكة الإنترنت عرضت أخبارًا مختلفة، وذكر مستخدم على الشــبكة أن عدد الضحايا تجاوز الخمسين، ويقول آخر بل إن العــدد تجاوز المئة. وقلة قليلة انتقدت الحكومة على شــبكة الإنترنت لأنها أخفت حقيقة عدد الضحايا. وحصل البعض على تعريف عدد الضحايا فــي الحوادث من قبل لجنة الأمن التابعة لمجلس الدولــة الصيني، ومفاده إذا كان عــدد الضحايا يتراوح بين ثلاثة وتســعة يعتبر الحادث كبيرًا نســبيًا، أما إذا ارتفع إلى أكثر من عشــرة مصابــين فيعتبر حادثًا خطيــرًا، وإذا كان أكثر مــن ثلاثين مصابًــا يعتبر خطيرًا على وجــه الخصوص. ووجه البعض ضربة قاصمة للحكومة من خلال الشــبكة لأنها تتصلت من مسؤوليتها إزاء الكارثة، وإذا كان عدد المصابين سبعة بصورة محددة، وحتى لو كان هناك اثنان إصابتهما بالغة ويلقيان حتفهما،

فإن إجمالــي المصابين والضحايا يبلغ تســعة فقط، مما يجعل الحادث كبيرًا نسبيًا، ولا يلقي بظلاله القاتمة على وظيفة عمدة المدينة وأعضاء الأمانة العامة للمدينة.

وانتشرت الشائعات من كل حدب وصوب على شبكة الإنترنت، ويقول البعض إن أهالي هــؤلاء الضحايا الذين لم يتم الإفصاح عنهم، تلقوا تهديدًا، بينما يذكر البعض أن هؤلاء الأهالي تقاضوا مبالغ ضخمــة مقابل تكميــم أفواههم، كما قام البعض بنشــر أســماء الضحايا الذين تم التســتر عليهم، وما زال اسم والدي غير موجود بينهم.

لــم يرجع والدي إلى البيت لمــدة يومين، ورحت أبحث عنه. عرجــت - أولا- علــى محطة القطار أتنســم أخبــاره، وجال بخاطــري أنه ربما رآه بعض العاملين في محطة القطار، ولكن انقطعــت أخباره. لقد بات نحيــلا ونحيفًا وربما حتى معارفه لا يتعرفون عليه أيضًا. وســافرت إلى أسرة هاو تشيانغ شينغ، ولي يوي جين مرة أخرى، وقد عادا من مدينة غوانغتشــو توا، واجتازا بسهولة ويسر اختبار منح تأشيرة الهجرة في القنصلية الأمريكية هناك، وبعد عودتهما يبدأان بيع الشــقة التي عاشا فيها سنوات عديدة، ويعتزمان الإقامة مع ابنتيهما اللتين تفصل بينهم وبينهما البحار الشاســعة. ويشعران بحزن شديد عندما عرفا هذه الأخبار، ويتهد هاو تشيانغ شينغ، وتنهمر دموع لي يوي جين، وتقول:

«يا ابني، والدك لا يرغب في أن يثقل كاهلك بالمتاعب».

ويشــعران بــأن والدي من المرجــح جدًا أنه عــاد إلى قريته حيث مســقط رأسه وسنوات تربيته ونشــأته على غرار الأوراق

المتســاقطة تعود إلى جذورها، وطلبا مني أن أســافر إلى هناك وأبحث عنه.

أبيع الحانوت، وأســتقل حافلة المسافات الطويلة متوجهًا إلى مســقط رأس والدي. وقد سافرت هناك في طفولتي، ويكرهني جدي وجدتي جدًا، ويشــعران بأنني أشعت البلبلة والفوضى في حيــاة ابنهما. ووالدتي من أســرة تتألف من خمســة من الإخوة والأخــوات، علاقاتهم مع والدي ســيئة. وكان جــدي يعمل في الســكة الحديدية، وكانت الدولة تنتهج سياســة آنذاك مفادها أنــه إذا تقاعد جدي مبكرًا، يمكن أن يحل محله في العمل أحد أبنائــه، واختار جدي من بين أبنائه الســتة الطفل الأصغر وكان والدي. مما أثار غضب وحنق سائر الأبناء الخمسة، وربما لهذا السبب لم يصطحبني والدي مرة أُخرى إلى مسقط رأسه.

رحل جدي وجدتي عن دنيانا منذ عشر سنوات ونيف، ومازال الإخوة والأخوات الخمسة يقطنون هناك، ويعمل أولادهم وبناتهم خارج القرية منذ ســنوات عديدة، وتجــذرت جذورهم في مدن مختلفة.

أنزل من الحافلة في مركز المحافظة المزدحم، وأركب تاكسي يوصلني إلى قرية والدي، يســير التاكســي على طريق مسفلت وعريض ومســتو، وأتذكر في طفولتي عندما ركبت الســيارة مع والدي وحضرنا هنا، كنا نمشــي على طريق ترابي ووعر شديد الانحدار، وعندما يسير التاكسي ويتقدم إلى الأمام يهتز ويقفز. وتنهدت في قلبــي إعجابًا بالتغيرات الهائلة، وتوقف التاكســي آنذاك، وانقطع الطريق الإســفلتي بصــورة فجائية، وبدا للعيان مرة أخرى طريق ترابي وشــديد الانحدار، ويقول سائق التاكسي

إن القيادات العليا لا تأتي إلى مثل تلك المنطقة القاصية المنعزلة، ومن ثم انتهى طريق الإسفلت عند هذا الحد. السائق يحملق في أمارات الدهشة التي ارتسمت على وجهي، ويشرح السبب في ذلك قائلا إن الطرق في الريف يتم إصلاحها فقط بغرض أن تتفقدها القيادات السياسية. ويشير السائق إلى طريق التراب الضيق في الأمام، ويقول إن القادة لا يحضرون إلى هذا المكان الموحش المقفر الذي لا تطئه أقدام الطيور. وأردف قائلا إن القرية التي أقصدها على بُعد خمسة كيلومترات في الأمام.

وعندما سافرت إلى قرية والدي في المرة الثانية، وجدتها ليست تلك القرية التي زرتها في طفولتي، إنها القرية التي كانت تحتوي على غابة الأشجار، وغابة البامبو، ناهيك عن بضع بِرَك. وأنا ونفرٌ من أبناء الخال نأخذ النبلة ونصطاد عصفور الدوري في تينك الغابتين، كما نثني البنطال ونقف في البرك ونصطاد الجمبري، وتختزن ذاكرتي زهور السلجم الحقلي التي تشرق وتلمع تحت أشعة الشمس، وأصوات الرجال والنساء، والعجائز والصغار، والدجاج والإوز، والأبقار والغنم.. سيل متدفق لا ينقطع، بالإضافة إلى عدد من إناث الخنزير تركض على الممر الترابي. أما القرية الآن فموحشة تسري فيها برودة العدم، والحقول جرداء وصفراء، والتهمت الفؤوس الأشجار والبامبو، وجفت المياه في البرك. والشباب اليافعون في القرية يعملون خارجها، ورأيت فقط بعضًا من العجائز يجلسن أمام حجراتهن، بالإضافة إلى ثلة من الأطفال يترنحون في مشيتهم، وقد غابت عن ذهني صورة هؤلاء الإخوة والأخوات الخمسة، وسألت رجلا طاعنا في السن أحدب، ويجلس أمام الباب ويدخن غليونه،

عن مكان إقامة أسرة والدي (يانغ جين بياو)، يغمغم باسم (يانغ جين بياو) عدة مرات، ويقدح زناد ذهنه، وينادي مسنًا يجلس أمام الغرفة المقابلة المائلة ويقشر الفول، ويقول:

«ضيف يبحث عنك».

ينهض ذلك الرجل المسن واقفًا، ويحدق في وجهي، وأنا أتقدم نحوه، ويمسح يديه في ملابسه، ويبدو أنه يستعد لمصافحتي. ومشيت حتى بلغت أمامه، وأخبرته بأنني (يانغ فيي)، ولم تظهر ملامحه ثمة بادرة رد فعل، وأقول أنا ابن يانغ جين بياو. وبعد أن يتفوه بالحرف «آه» للاستغراب، يفتح فمه الذي يخلو من القواطع وينادي إخوته وأخواته:

«حضر نجل يانغ جين بياو!».

ثم يخاطبني قائلا: «لقد كبرت وقامتك عالية، ولم أتعرَّف عليك البتة».

يحضر سائر الإخوة المسنين الأربعة تباعًا. وأرى الإخوة الخمسة يرتدون ملابس من قماش الألياف الكيماوية، وعندما يقفون معًا لم أتوقع أن أشكالهم متقاربة ووجوههم متشابهة، بيد أن أطوال قاماتهم متفاوتة مثل الأصابع الخمسة في راحة الكف.

ويشعرون بفرحة غامرة عند رؤيتي، وينقعون أوراق الشاي في الماء المغلي ويقدمون السجائر لاستضافتي، أتناول فنجان الشاي، وأومئ برأسي تجاه السجائر وأقول لا أدخن. وينهمكون في طهي الطعام ويشترون الخمر، وأرى عقارب الساعة لم تبلغ بعد الساعة الثالثة بعد الظهر، وأقول: الآن مازال الوقت مبكرًا إلى حد ما، وأنتم تطبخون، ويردون: ليس مبكرًا.

انصرمت ســـنوات كثيرة على هذا النحو، وهم لا يحســـدون والـــدي، ولا يبغضونه مرة أخرى، فقد علموا أنه مصاب بمرض عضال وغادر البيت ولا نعرف مكانه، وتنهمر الدموع من عيونهم، ويكفكفونها بظاهر أيديهم لأن أصابعهم خشنة جدًا. وأقول إنني أبحـــث عن والدي طول الوقت، ودار بخلـــدي أنه ربما عاد هنا، رجع إلى مسقط رأسه مثل الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها. ومن ثم حضرت إليكم، ويطأطئون رؤوســـهم، ويقولون إن والدي لم يرجع إلى قريته.

* * *

وقفت وسط السكون والهدوء، وغادرت ذلك الجحر، وأمشي وسط الســـكون والهدوء أيضًا. لا يزال يسقط المطر والثلج على التوالي، ومازال جســـدي لم يبللـــه ماء المطر ولا الثلج، بيد أنهما يحاصراني، وعندما أنصرف، المطـــر والثلج ينفصلان، وعندما أدير رأسي يندمجان.

وأسير على درب الذاكرة متوجهًا نحو لي يوي جين.

* * *

تـــودع (لي يوي جين) دنيانا عندما رجعت أدراجي إلى المدينة قادمًا من قرية والدي.. وقد صدمتها سيارة ماركة (بي.إم.دبليو) تسير بسرعة فائقة وطارت في الهواء، ثم سقطت سقوطًا مروعًا على الأرض في الشـــارع. كما ســـحقتها شـــاحنة وسيارة أعمال تجاريـــة كانتا في الخلف. لقد تركتُ المدينة لمدة ثلاثة أيام فقط، ولقيَتْ والدتي التي تتوسد قلبي مصرعها.

هاوشـــيا علـــى متن طائرة فـــي طريق عودتها إلى أســـرتها، وهاوتشـــيانغ شـــينغ تلقّى ضربة قاصمة فجأة وثبطت عزيمته.

وعندمـــا عرجت على بيته، كان هناك ثلة من الرهبان يضطلعون بمراسم المذهب البوذي ويقيمون جنازًا بوذيًا لتعدية روح الميت إلى شاطئ الخلاص، وتتصاعد أعمدة الدخان من الغرفة، وتكتسي الطاولة بالقماش الأصفــر، وفوقها فواكه وكعك، بالإضافة إلى لوحــة جنائزية مكتوب عليها اســم (لي يوي جين). ويقف هؤلاء الرهبان أمام الطاولة، ويغمضون عيونهم إغماضة طفيفة ويتلون الكتاب المقدس، وصوتهم يشبه طنين سراب من البعوض. يجلس هاوتشيانغ شينغ ونظراته ذاهلة، وأنا أجلس على كرسي بجواره.

وربمـــا يعلم الرهبان أن لي يوي جين كانت تســتعد للســفر إلى الولايــات المتحدة، وبعد تلاوة الكتاب المقدس، يخبرون هاوتشــيانغ شــينغ بأنه عندمـــا يتلون الكتاب المقدس تتعــدى روح لي يوي جين ركبتـــه، كما تتعدى منكبيه، وتدوس علـــى القدم اليمنى وتصعد إلى السماء. ويقول الرهبان إن مراسم الجنازة البوذية تتكلف ثلاثة آلاف يوان صيني، وإذا زدنا خمســمائة يوان يمكن أن نجعل لي يوي جين تتقمص الأرواح الأمريكية. هاو تشيانغ شينغ يومئ برأسه مصعوقًا، ونفــر من الرهبـــان يغمضون عيونهم قليلا مرة أخــرى، ويواصلون تلاوة الكتاب المقــدس. وكانت التلاوة قصيرة هذه المرة. وســمعت كلمـــة أمريكا فـــي جلبة تلاوة الرهبان المبهمة الذيـــن قالوها باللغة الإنجليزية (USA)، وليس باللغة الصينية. وبعد ذلك، ذكر الرهبان أن لـــي يوي جـــين وطئت أقدامهـــا الطريق المفضي إلـــى الولايات المتحدة، وسوف تصل هناك بسرعة جدًا، وأسرع من طائرة البوينج.

هاو تشيانغ شينغ لم يتعرف علي عندما رآني، وجلست بجواره طويـــلا حتى أدرك من أنا، ويبكي زوجته التي ارتحلت إلى العالم الآخر، ويشد يدي ويقول:

«يانغ فيي، اذهب وألق نظرة على أمك، اذهب وألق نظرة على أمك..».

قبل وفـــاة لي يوي جـــين بثلاثة أيام، اكتشـــفت فضيحة في مدينتنا، ويتوافق ذلك الصباح الباكر في اليوم الذي سافرت فيه إلى القرية بحثًا عـــن والدي، وكانت في طريق عودتها إلى بيتها بعد أن اشترت خضراوات من سوق المحاصيل الزراعية، وعندما كانت تمشي على الجسر، رأت كوكبة من الأطفال الرضع يطفون على صفحة مياه النهر. في البداية اعتقدت أنهم ربما أســـماك نافقة، ثم شـــعرت بالغرابة حيث لم تر في حياتها أســـماكاً على هذا النحو، أســـماك لها أذرع وسيقان. وشعرت بأنها طاعنة في الســـن وبصرها بصر شـــيخوخة، ثم تنادي شابين وتطلب منهما أن يدققـــا النظر فـــي معرفة ماذا يطفو على ميـــاه النهر! يقول الشـــابان إن ذلك لا يشبه السمك، بل يشبه أطفالاً رضعاً فاضت أرواحهم، وتطفو أجسادهم مختلطة بأوراق الأشجار والأعشاب المتوعة ويدفعها التيـــار إلى الأمام، بالإضافة إلى بضعة أطفال رضع تطفو أجســـادهم في الظلال تحت الجسر، ثم تغادر هذه الظلال إلى أشعة الشمس اللامعة على سطح الماء. وعندما كانت تمشي على ضفة النهر وشـــاهدت بعينيها هؤلاء الأطفال الموتى يطفون على سطح الماء تعثرت قدمها، ثم رأت ثلاثة منهم وصلوا إلى طريق مسدود على الضفة.

لـــي يوي جين الصادقة المخلصة لـــم ترجع إلى بيتها، وتحمل سلة الخضراوات وتذهب مباشرة إلى دار الصحيفة. حرس الدار يمنعهـــا من الدخول بعد أن رأى الســـلة في يدهـــا، واعتقد أنها جاءت شـــاكية أو طلبًا للمســـاعدة، ويخبرها بأن تقديم الشكوى

وطلب المساعدة يجب أن يكونا في مكتب خطابات الالتماس في الإدارة البلدية. تعترض لي يوي جين طريق اثنين من الصحافيين جاءا للدوام توًا، وأخبرتهما بظهور أطفال رضع موتى في النهر، ثم يهرولان إلى موقع الحادث بعد أن سمعا كلامها، ويغص أعلى الجسر وضفة النهر بالجمهور في ذلك الحين، وهناك شخص يستخدم قصبة بامبو وينتشل عددا من هؤلاء الأطفال إلى ضفة النهر.

وشهدت فترة الصباح كلها، الصحافيان وأكثر من عشرة من أهالي المدينة يعثرون هناك على سبعة وعشرين وليدًا رضيعًا، من بينهم سبعة تعلق في أقدامهم علامة المستشفى في مدينتنا، بينما تسعة عشر آخرون أقدامهم خاوية من تلك العلامة. يلتقط الصحافيان صورًا لهؤلاء الأطفال الأموات باستخدام الهاتف النقال، ثم يغشيان المستشفى، ويستقبلهما مدير المستشفى بحماسة بالغة، ويعتقد أنهما يقومان بالتغطية الإعلامية ويجريان حديثًا صحافيًا معه، لأن المستشفى طرحت سياسة جديدة لإيجاد حل لصعوبة وغلاء زيارة الطبيب المعالج من أجل تخفيف حدة الانتقاد للمستشفى في المجتمع. وبعد أن شاهد مدير المستشفى صور الرضع الموتى في هاتفهما النقال، تلاشت الابتسامة من وجهه في الحال، وقال إنه يذهب إلى المدينة في التو لعقد اجتماع، وطلب من نائبه أن يعالج هذه المشكلة مع الصحافيين. وعندما يشاهد نائب مدير المستشفى تلك الصور، يقول إنه يذهب إلى مكتب الصحة فورًا لعقد اجتماع هناك، وطلب من مدير إدارة المستشفى أن يقابلهما. مدير إدارة المستشفى تبدو عليه علامات الضجر، وبعد أن يرى صور الرضع الأموات يميز العلامة في

أعلى أقدامهم، ثم يقول إن ثمانية من الأطفال الرضع الذين تعلق علامة في أقدامهم لقوا حتفهم حيث لم ينفع فيهم علاج أو دواء، وأوليـــاء أمورهم عجزوا عن تحمل نفقات العلاج ولاذوا بالفرار. مدير الإدارة مثقل بالهموم والمشكلات، ويقول: هناك الكثير من أهالي المرضى يلــوذون بالفرار أيضًا لأنهم لا يدفعون مصاريف العلاج. وتتكبد المستشــفى خسائر بسبب ذلك، وتقدر بأكثر من مليون يوان، وشـــرح مدير الإدارة أن الرضع الأموات الذين تخلو أقدامهم من العلامة وعددهم تسعة عشر ماتوا أجنّة في الشهر الســادس تقريبًا بســبب الإجهاض تنفيذًا لخطة تحديد النسل بالقــوة، كما لفــت انتباه هذين الصحافيين بغطرســة، وذكر أن خطة تحديد النسل تُعد سياســة دولة. وأخيرًا، زعم أن الرضع الأموات البالغ عددهم تسعة وعشرين هم نفايات العلاج الطبي، ولا يرى أن المستشــفي ارتكبت خطأ، وقــال: يجب التخلص من النفايات.

تتلقى الصحف في مدينتنا توجيهات القيادة العليا، وتســحب التقاريــر التي كتبها الصحافيان اللذان يشــعران بالحنق، وكانا يعتزمان نشــر الصور والمقالات الصحافية على شبكة الإنترنت، وتهييــج الرأي العام فــي المجتمع. وصوت النقد على الشــبكة العنكبوتيــة يطير إلى مدينتنا مثل تطاير شــظايا قذيفة بصورة مركــزة. في هــذه الأثناء، اعترف المستشــفى بالخطأ، وذكر أن المعالجــة لنفايات العلاج الطبي ليســت جيــدة، وتمت معاقبة المســؤولين في هذا الشــأن، وعندمــا ذكر المستشــفى مرة تلو الأخرى أن الأطفال الرضع يعتبــرون نفايات العلاج الطبي أثار غضب مستخدمي الإنترنت، وانطلقت شظايا قذيفة الاستهجان

بشكل أكبر من كل حدب وصوب في الجهة المقابلة، وانبرى المتحدث الإعلامي لإدارة البلدية بالتعليق على هذا الحادث، وأكد أن المعالجة الصحيحة والسليمة لتسعة وعشرين طفلا من النفايات الطبية تكون بمعاملتهم معاملة إنسانية، ودفنهم بعد حرق أجسادهم.

ذهبت إلى مستودع الجثث في المستشفى حتى ألقي نظرة على جثة لي يوي جين، وعندما دخلت هناك كانت تزخر بباقات الورود في الجهات الأربع، حيث معلّق ومكتوب عليها: «ننعى بحزن شديد ليو شين تشينغ». ولا أعرف من هو ليو شين تشينغ الذي أرسل إليه أناس كثر باقات الورود. ومن الجلي، أن ذاك الرجل إما ثري وإما صاحب منزلة نبيلة. ولم أر لي يوي جين. وباقات الورود في الجهات الأربع جعلت حجرة مستودع الجثث تبدو خاوية على عروشها، وقلبي تساوره الريبة والشك إذا كنت دخلت المكان بالخطأ أم لا.

في هذه الأثناء اكتشفت غرفة صغيرة جانبًا، ودخلت من الباب، ورأيت قطعة قماش بيضاء كبيرة جدًا تغطي أديم الأرض، والتقعر البارز من القماش الأبيض جعلني أشعر بأن تحته جثة. أجلس القرفصاء وأسحب القماش الأبيض، ورأيت لي يوي جين ترتدي ملابس بيضاء من رأسها إلى أخمص قدميها، وثلة من الرضع الأموات على الأرض. تتمدد جثتها في منتصف الحجرة ويحيطها هؤلاء الرضع من الجهات الأربع الواحد تلو الآخر، وكأنها أصبحت أمًا لهم.

الأم التي شهدت سنوات تربيتي وترعرعي، جثتها مستلقية هناك، وتتحدر الدموع على الخدين، ولا تزال ملامحها المألوفة

لدي ترتسم على وجهها وهي ميتة، تتسمر نظراتي بحزن شديد على تلك الملامح الساكنة الهادئة، أمسح دموعي، وقلبي يردد في أعماقه كلمة «ماما».

وقع انهيار أرضي وانخسـفت الأرض في مدينتنا في مسـاء ذاك اليـوم. ففـي الليل البهيم يسـمع الأطبـاء والممرضات في الـدوام الليلـي والمرضى صوتًا يحدث هديرًا ودويًا، كما سـمعه قاطنـو المباني المتاخمة، واعتقدوا أنه زلـزال، ويهرولون ويفرون إلى الخارج الواحد تلو الآخر، ثم اكتشـفوا أن مسـتودع الجثث اندثـر من الوجـود، وظهرت مكانه حفرة مسـتديرة كبيرة جدًا. وأصاب الناس الهلع والفزع من جراء ظهور هذه الحفرة الناجمة عـن الانهيار بصورة فجائيـة، ولا يجرؤ الناس في المستشـفى، ولا قاطنو البنايات السكنية المتاخمة المكوث في بيوتهم، ويتدافعون إلى الشـارع، ولم يبق هناك سـوى المرضى مـن ذوي الأمراض المستعصية يستلقون على فراش المرض، ويستسلمون للقدر.

البشر في الشوارع لم يهدأ روعهم بعد، ويعربون عن امتنانهم للسماء، ويقولون إن السـماء لها عيون تحمينا، والسماء نسفت مسـتودع جثث الموتى، وعلى كل حال نتوسـل إليها ألا تخسـف بالمباني السكنية المجاورة، وإذا تحركت هذه الحفرة الناجمة عن الانهيار الأرضي عشـرات الأمتار، فإن تلك المباني تنهار سـواء كانت في الشـرق أو الجنوب أو الغرب أو الشمال، وأعداد الموتى والمصابين لا تُحصى، وثلة من الناس يدمدمون: «الشكر والامتنان للسماء»، وهناك عجوز تتدفق دموعه كالشلال، ويقول:

«أيتها السـماء أنت رحيمة حقًا، افعلي كما تشـائين بتحطيم ما يجب تحطيمه، ولا تهدمي ما لا يجوز هدمه».

وبعد أن سادت مشاعر الخوف والفزع طوال الليل، بدأت تهدأ رويدًا رويـدًا، وأعلنت الإدارة البلديـة أن قطر الحفرة الناجمة عـن الانهيار الأرضي يبلغ ثلاثين مترًا، وسـبب الانهيار أنه بعد أن تجمعت المياه الجوفية بصورة مفرطة، تشـكل هناك هيكل جيولوجـي معلق في الهواء. خمسـة من موظفـي جهاز مراقبة البيئة الجيولوجية يلقون حبلا إلى قاع تلك الحفرة، ثم يسحبونه بعد أكثر من سـاعة، وذكروا أن حجرة مسـتودع الجثث مازالت سليمة تمامًا، غير أن السقف يعاني من سبعة شقوق.

سـيل متدفق من أهالي المدينة يهرولـون إلى موقع الحادث، ويقفون علـى مقربة من المـكان الأصلي لحجـرة جثث الموتى، ويمتعون عيونهم بمنظر الحفـرة الناجمة عن الانهيار الأرضي، ويتهـدون فـي عجب أن الحفرة مسـتديرة حقًا وتشـبه تمامًا نظرتها المرسومة بالفرجار مسبقًا، إنها مستديرة مثل الآبار في الماضي.

وبعد انقضاء يومين، يتذكر أحد الأشـخاص أن لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا كانوا في حجرة جثث الموتى عندما وقع الانهيار الأرضي، ولكن الموظفين الخمسـة من جهاز مراقبة البيئـة الجيولوجية الذين فحصوا قاع حجرة جثث الموتى، ذكروا أنها خاوية من الجثث. لي يوي جين وهؤلاء الرضع فقدوا بصورة تثير العجب والدهشة.

يقـوم صحافي بالتغطية الإعلامية للحادث، ويسـأل العامل النظامي المسـؤول عن تنظيف حجرة جثث الموتى، ويقول الأخير إن تلـك الجثث كانت ما زالت ملقاة فـي تلك الحجرة الصغيرة عندما انتهى من الدوام في أصيل ذاك اليوم. وسـأله الصحافي

أيضًا: هل تم حرق تلك الجثث أم لا؟ وينفي ذلك بصورة قاطعة، ويقول إن مؤسسة الخدمات الجنائزية لا تعمل في المساء، ومن ثم لم تحرقها. كما عرج الصحافي أيضًا على إدارة المستشفى، ولا يدري الموظفون هناك السبب في اختفاء لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا. وقالوا: رأينا أشباحًا، ومن غير المعقول أن الجثث تصعد من تلك الحفرة إلى الخارج وتتجول في الشارع.

هاوشيا، التي نزلت من الطائرة توًا وتئن تحت وطأة الحزن والألم وفرق التوقيت، تسند والدها بذراعها الذي تبدو عليه تعابير اللب الشارد، وتغشى المستشفى، وتسأل عن مصير أمها، ويقول موظفو المستشفى إنهم لا يعلمون شيئًا عن ذلك.

ينتشر في مدينتنا خبر فقدان لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا بصورة تثير العجب والدهشة، ثم ما لبثت الصفحات الرئيسة في العديد من الشبكات الإلكترونية أن أذاعت الخبر نفسه، وتتسع دائرة الاهتمام بالحادث كلما أثيرت حوله الجلبة والضوضاء، وانتشرت الإشاعات في كافة تلك الشبكات، وأبدى البعض ارتيابه من أن الحادث ربما ينطوي على أسباب تم إخفاؤها عن أعين الجمهور. وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام في مدينتنا تلقت توجيهات مفادها أنها جميعًا بلا استثناء لا تنشر أخبارًا حول هذا الحادث، ولكن وسائل الإعلام في المناطق الأخرى استخدمت العناوين الرئيسة في نشر خبر هذا الحادث المثير للعجب والدهشة. وعدد غير قليل من الصحافيين في تلك المناطق يسافرون إلى منطقتنا ويركبون وسائل المواصلات المختلفة من طائرة وسيارة وقطار، ويستعدون ويتجهزون لتقديم تقارير صحافية طويلة وواسعة النطاق حول هذا الحادث.

تعقــد الإدارة البلدية مؤتمرًا صحافيًا عاجلا، وصرح موظف في مكتب الإدارة الشعبية بأن جثث لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا في حجرة جثث الموتى تم نقلها إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية بعد الظهر قبل وقوع الانهيار الأرضي لحرقها. ويواصل الصحافي أسئلته: هل تم إعلام أهالي الأموات قبل حرق جثثهم أم لا؟ يقول الموظف: لم نســتطع الاتصال بأهالي هؤلاء الأطفال والبالغ عددهم ســبعة وعشرين. كما يســأل الصحافي أهل لي يوي جين مرة أخري. ويشعر الموظف بالارتباك والحيرة فترة من الزمن، وبعد ذلك يعلن انتهاء المؤتمر الصحافي، ويقول: «شكرًا لكم جميعًا».

في أصيل ذاك اليوم، يرســل موظف مكتب الإدارة الشــعبية ومندوب المستشــفى علبة رفات لي يوي جين إلى أهلها، ويقولان إنــه لا يمكن الحفاظ على جثتها بســبب الجو الحار، ولذا قاما بنفســيهما بحرقها. هاوشــيا مازالت بكامل وعيها ولم تنم منذ ثلاثين ساعة ونيفًا، وتشعر بالضجر والحنق، وتصرخ قائلة: «نحن الآن في فصل الربيع».

ذلك العامل النظامي في المستشفى المسؤول عن حجرة جثث الموتى يسحب أقواله، ويخبر الصحافيين الذين جاؤوا من المناطق الأخرى، بأن جثث لي يوي جين وســبعة وعشــرين طفلا رضيعًا تم نقلها إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية للحرق في الظهر قبل وقوع الانهيار الأرضي، وأضاف أنه بنفســه ســاعدهم في نقل الجثث إلى عربة الموتى. وهناك شخص زعم أنه يعمل في البنك ونشــر خبرًا على الإنترنت جاء فيه أن ذلك العامل النظامي في المستشــفى أودع في حسابه الخاص في ذاك اليوم خمسة آلاف

يوان، وأبدى ذلك الشخص ارتيابه من أن ذلك العامل أخذ هذا المبلغ مقابل سحب أقواله.

طلبت الإدارة البلدية من الصحافيين الذين جاؤوا سرعة التوجه إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية لمشاهدة العلب الصغيرة لرفات سبعة وعشرين طفلا رضيعًا مرصوصة في رتل واحد، وذلك حتى تبرز للعيان أن جثث هؤلاء الأطفال تم حرقها، وأنها تعتزم الاضطلاع بإجراءات الدفن المناسبة، وذلك من أجل القضاء على الشائعات المتفشية على شبكة الإنترنت. ولكن ما إن يتم القضاء على موجة شائعات، حتى تصعد موجة أخرى. وفي اليوم التالي، كان هناك شخص لديه أخبار تفيد بأن رماد عظام لي يوي جين وهؤلاء الأطفال قد حسمت من رماد الجثث الأخرى التي حرقت في ذاك اليوم. وانتشر هذا الخبر انتشارًا سريعًا، وبعد أن سمع أقارب الموتى الذين حُرقت جثثهم في ذلك اليوم، فتحوا علب رماد العظام الواحدة تلو الأخرى، وكان لرد الفعل المنتشر على نطاق واسع أن رماد العظام يقل وزنه كثيرًا جدًا، وذلك على الرغم من أنه لا يوجد أحد منهم يعرف وزن رماد العظم في العادة، وهناك أناس راحوا يسألون الآخرين عن وزن رماد العظم الذين يطأطئون رؤوسهم باستمرار ويقولون لم نفتح علب رماد عظام أقاربنا أبدًا ولا نعرف وزنها. وهناك صحافي غشي مؤسسة الخدمات الجنائزية على وجه الخصوص آملا بأن يتحلى موظفوها بالجسارة ويتخلون عن صمتهم ويثبتون بالأدلة حقيقة ما حدث فعلا. جميع العاملين في تلك المؤسسة يدحضون ذلك ويعتبرونه زلة لسان، أما قيادة المؤسسة فقد شجبت بشدة الشائعات المنتشرة على شبكة الإنترنت، ويهزأ

شـــخص على شـــبكة الإنترنت قائلاً: إن مكافـــآت العاملين في مؤسســـة الخدمات الجنائزية تضاعفت في هذا الشهر أكثر من مرتين عن ذي قبل.

* * *

أنتشـــل نفســـي من ذاكرتي الثقيلة المعقدة كأنني أجتاز غابة من الجبال المتراكمة. تتمدد نفســـي طلبًـــا للراحة، وينوء فكري بالإرهاق والإعياء، ولا يزال جسدي يتقدم إلى الأمام، وأسير في الأزلية اللانهائية، وفي الفراغ المجهول. لا طير يحلق في السماء، ولا ســـمكة تطوف في الماء، ولا كائنات حيـــة تنمو في الأراضي الشاسعة.

اليوم الرابع

أواصـــل تجوالي بين البكور والمســـاء. ليس عندي علبة رفات العظام، ولا أمتلك قبـــرا، وعاجز عن الوصول إلى أرض الراحة الأبديـــة. لا توجد كرات الثلج، ولا ماء المطر، ورأيت فقط الهواء المتحرك من بقعة إلى بقعة مثل ريح تذرع المكان جيئة وذهابا.

تمر بجواري امرأة شابة يبدو أنها تتجول هناك، وألفّ رأسي وأنظر إليها، وهي تدير رأســها، وتحدق في وجهي. ثم تمشـــي وتعود إلي، وتتفرس في معالم وجهي بوعي، وصوتها مثل الدخان ينتقل من مكان إلى آخر، وتسألني قائلة:

«في أي مكان رأيتك؟».

وكان ذلك بمثابة سؤالي أيضا. وتسمَّر نظري في وجهها الذي يبدو أنه تربطني به معرفة ســابقة، ويتطاير شعرها في الهواء، ولكن لا أشعر بأن الريح يداعب خصلات شعرها، ولفت انتباهي ظهور بقعة دم باقية في أذنها.

وتردف قائلة: «رأيتك من قبل».

ســؤالها يتحول إلى يقين، وجههـــا في ذاكرتي غريب، ما لبث أن يصبح مألوفا. ولا أدخر وســـعا في استعادة الذكريات، ولكن ذاكرتي متعبة ومرهقة أكثر فأكثر مثل الصعود إلى الجبل.

وتلفت انتباهي، وتقول: «كنت تستأجر غرفة».

ذاكرتـــي تهبط برفق شـــديد من قمة الجبـــل، وتتحلى برؤية واسعةالنطاق.

* * *

قبل سنة ونصف السـنة، عندما انتقلت واستأجرت الغرفة، كان يقطن بجواري عاشـقان في شـرخ الشباب، ولون شعريهما زاهي الألـوان، يدلفان إلى الـدوام مبكرا، ويعـودان أدراجهما متأخرين، ولا أعرف اسميهما، كما لا أعرف ماذا يعملان؟ وهما يغيران لون شـعريهما مرة كل أسـبوع تقريبا بين اللون الصفر، والأخضـر، والأحمـر، والأرجواني، إلى اللـون المختلط، ولم أر اللون الأسـود. وكانت درجة اللون متشـابهة عندما يغيران لون شـعريهما،ويزعمان أن في ذلك جمالاً وحلاوة لدى العاشـقين. وعرفت بعد شـهر أنهما يعملان في كوافير، وذكر صاحبه أنهما لا يقصان شعر الزبائن، بل يقومان بغسل شعورهم في الكوافير. وهما ينقلان مسـكنهما ويرحلان بعد انقضاء ثلاثة شـهور من تأجير الغرفة.

ينقـلان في الغرفة المجاورة لي، وأقوالهما وأفعالهما واضحة وجلية ومسموعة، والجدار الفصال بيني وبينهما يمنع العين من الرؤية فقط، ولكن لا يعيق الأذن عن السـمع. وعندما يمارسان شـهوة الحب، يدوّي صوت صرير ذلك السرير بصورة مستمرة، كما تسـمع لهاث الأنفاس، ويبـدو أن الحجرة المجاورة لي تدوّي فيها أصوات صاخبة وهائجة كل مساء تقريبا.

وينشب الشجار بينهما دائما لأنهما يعيشان في ظروف مالية صعبة. وذات مرة سـمعت الفتاة تبكي وتنتحب تارة، وتتكلم تارة أخـرى، وتقـول إنها لا ترغب تماما في العيش مع هذا الشـاب

المسـكين الفقير، وإنهـا تريد أن تتزوج ثريا مـن الجيل الثاني، ولا تشـتغل العمل الشاق، وتمكث في البيت تلعب الماجيانغ[1] كل يوم. أما الشاب فيقول إنه يرغب عن العيش معها في أيام فقيرة، وإنه يسعى إلى التعرف على امرأة ثرية، ويعيش في فيلا، ويقود دراجة سـباق. ويصف كل منهما تطلعاته نحو الثروة والجاه من أجـل أن يحط من قدر الآخر، ويقسـم بكل صـدق وعزم على الفـراق غدا، ويسـعى كل واحد منهما نحو مسـتقبله العظيم. ولكـن في اليـوم التالي كأن لم يحدث بينهما شـيء، ويخرجان مـن غرفتهما المسـتأجرة وأياديهما متعانقـة وتربطهما أواصر الصداقـة الحميمة، ويدلفان إلـى الكوافير ويضطلعان بعملهما المرهق المتعب الذي يدر عليهما النزر اليسير من المال.

وحدث بينهما الشـجار الأكثر عنفا وحدة عندما ضرب ذلك الشـاب الفتاة عشـيقته. في البداية، سـمعت تلك الفتاة تسرد قصتهـا مع زميلتها عندما خرجا إلـى العمل، ويبدو أنهما جاءا من قرية واحدة، وتعمل زميلتها في ملهى ليلي كمضيفة تسـتقبل الزبائـن في كونتر الملهـى وتصطحبهم للتسـلية واللهو والمرح، وعندما يقع الزبائن في حبائلها، تغادر الكونتر وتكسب ألف يوان في المرة الواحدة، ويمكن أن تكسـب ألفَي يـوان إذا اصطحبت الزبون إلى غرفته، وتتقاسم النقود مع الملهى الليلي الذي يحصل على 40 ٪، وهي تستأثر بالباقي 60 ٪. وعلى هذا النحو، تكسب ما يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألفا في كل شهر. وقد عملت أكثر من

(1) من ألعاب التسـلية والترفيه في الصين، وتشـبه الدومينو، وهي عبارة عن قطع مسـتطيلة الشـكل مصنوعة من البامبو أو الحجر أو البلاستيك، منقوش فوقها تصميمات زخرفية وكلمات مطبوعة. [المترجم]

ثلاث سنوات، وتربطها علاقات مع بعض الزوار الدائمين الذين يتصلــون بها هاتفيا دائما ويطلبون منهــا أن تزورهم وترافقهم، ومن ثم، النقود التي تكسبها لا تتقاسمها مع الملهى، والآن تكسب ما يتراوح بين ستين وسبعين ألفا في الشهر. وتقول تلك الفتاة إن زميلتها تريد أن تتقدم للعمل كآنســة في الملهى، وقد اتفقت على ذلك مع مدير الملهى، وتعتزم أن تصطحبها معها إلى هناك غدا.

تلك الفتاة تســأل عشــيقها الشاب: «هل تســمح لي بالعمل هناك؟».

لم يفه ذلك الشــاب بحرف. أمــا تلك الفتاة فتقول إنها تبغي العمل كآنسة في الملهى الليلي حتى تتمكن من كسب المال الكثير، ويمكن لعشيقها الشاب ألا يعمل، وهي تقوم على إعالته. وتردف قائلــة: بعد أن أعمــل هناك بضع ســنوات، أعــود إلى الحياة الشــريفة، وأعود إلى مسقط رأسي مع عشيقي، ونشتري شقة، ونديرِ حانوتا صغيرا.

الفتاة تسأل عشيقها الشاب مرة أخرى:

«هل توافق على أن أعمل في الملهى الليلي؟».

«تتعرضين للإصابة بالمرض التناسلي (الإيدز) بالتأكيد».

«مســتحيل، أموت جوعا، ولا أوافق على أن تعملي آنســة في الملهى الليلي».

«أنت يمكن أن تموت جوعا، أما أنا فلا».

«أقول مستحيل بكل ما تحمل الكلمة من معنى».

«عــلام كل هذا الإصرار؟ بالإضافة إلى أننــا لم نتزوج بعد، ويمكن أن يجمعنا الطلاق قبل الزواج».

«لا يجوز أن تتفوهي بمثل تلك الكلمات مرة أخرى».

«كل ما أريد قوله إن زميلتي لها صديق وافق على أن تعمل في الملهى، فلماذا أنت لا توافق؟».

«صديقها ليس إنسانا، هو حيوان».

«صديقها ليس حيوانا، ففي ذات مرة عضها أحد الزبائن وأصابها بجرح، وذهب صديقها إلى عقر دار ذلك الزبون ولعنه بأنه شرير، كما ضربه ضربا مبرحا».

«يوافق لصديقته على ممارسة الرذيلة، إذا لم يكن حيوانا، فماذا يكون؟ كما يسب الآخرين بأنهم أشرار، وهو نفسه شرير».

«لقد قاسيت شظف العيش، وأرغب عن العيش في أيام الفقر مرة أخرى. وزميلتي تستخدم iPhone 3 عندما تم طرحه في الأسواق، كما غيرت هاتفها الخلوي فور ظهور iphone s3، وفي العام الماضي غيرت هاتفها iphone 4، وتستخدم الآن الهاتف iphone s4. وأنا أستخدم هذا المحمول البالي ولا أحد يشتريه حتى بمئتي يوان.

«سوف أشتري لك iphone s4 فيما بعد».

«نقودك لا تكفي لشراء الطعام، وإذا انتظرتك حتى تشتري لي ذلك المحمول، فسيكون هناك «iphone s40.

«أشتري لك الهاتف الخلوي iphone s4 بالتأكيد».

«أنت تهذي بالكلام، أم تقول كلاما معقولا؟».

«أتكلم بعقلانية».

«لا أعيرك اهتماما، أذهب إلى الملهى الليلي غدا».

ثم سمعت صوت فرقعة صفعة على خدها.

تبكي وتصرخ: «أنت تضربني، أنت أشبعتني ضربا حتى الموت».

كما يبكي عاشقها الشاب، ويقول: «أسفا ومعذرة، أنا آسف».

تبكي وتشتكي بحزن شديد، وتقول: «لم يدر بخلدي أن تضربيني، أنت فقير هكذا، وأعيش معك لأنك تعاملني معاملة حسنة. أنت تضربيني، أنت إنسان خبيث!».

ينشج ويقول: «آسف، أنا آسف».

كما سمعت صوت فرقعة صفعة على الخد، وشعرت بأن ذلك الشاب يضرب وجهه، وبعد ذلك، يدوي صوت ارتطام الرأس بالحائط.

تبكي بحرقة وتتوسل إليه: «لا تضرب رأسك في الحائط، لا تفعل ذلك، أتوسل إليك، أتوسل إليك، لا أذهب إلى الملهى الليلي حتى إذا مت جوعا».

* * *

تتوقف ذاكرتي عند هذا الحد. وأرى أمامي امرأة تدل تعابير وجهها على أنها تعيش وحيدة، وأومئ برأسي، وأقول: «لقد رأيتك من قبل، عندما كنت أستأجر غرفة».

تبتسم ابتسامة خفيفة، ويلتمع في عيونها الحزن والقلق، وتسألني: «كم يوما مضى على حضورك إلى هنا؟».

أطأطئ رأسي، وأقول: «ثلاثة أيام، وربما أربعة أيام».

تُحني رأسها، وتقول: «حضرت إلى هنا منذ عشرين يوما ونيفا».

وسألتها:

«هل عندك قبر؟».

«ليس عندي قبر».

«وأنت هل عندك قبر؟».

«ليس عندي قبر أيضا».

ترفع رأسها وتحملق في وجهي بدقة، وتسألني:

«هل تحركت عيناك وأنفك من مكانهما من قبل؟».

«ما تحركت أذني أيضا».

«يبدو من الظاهر أن ذقنك لم تتحرك من مكانها».

ترى شريطا قماشيا أسود معلقا على ذراعي الأيسر، وتقول: «أنت تعلق شريطا قماشيا أسود وتنعى نفسك إلى الناس».

تلجمني الدهشة قليلا، وأفكر كيف عرفت أن الشريط القماشي الأسود علقته على ذراعي بغرض الحداد على وفاتي؟

تقول: «هناك أناس أيضا ينعون أنفسهم ويعلقون شرائط قماشية سوداء». أسألها: «في أي مكان؟».

تقول: «أصطحبك ونذهب سويا، والناس الذين يعيشون هناك يفتقرون جميعا إلى قبر».

ترافقني ونغشى مكانا مجهولا. أعرف اسمها، وهي لم تخبرني باسمها، بل ذاكرتي تبحث عنه في عالم الممات ذلك.

* * *

هناك فتاة يافعة تدعى (ليوميي) قفزت من بناية سامقة وانتحرت بعد أن أصابها الحزن والكآبة واليأس لأن صديقها قدّم لها هدية في عيد ميلادها عبارة عن هاتف خلوي iphone s4 مغشوش، ليس حقيقيا. وكان ذلك خبرا ذائعا في كافة الأنحاء منذ أكثر من عشرين يوما.

ونشرت عدة صحف في مدينتنا تقارير عن انتحار (ليوميي) على مدى ثلاثة أيام متتالية، وزعمت تلك الصحف أن تقاريرها في هذا الشأن عميقة الغور. وكشف الصحافيون النقاب عن

قصص ليست قليلة في حياة ليوميي التي تعرفت على صديق عندما كانت تعمل في الكوافير، ويضطلعان بعملين مستقرين في غضون ثلاث سنوات، هما: عامل غسيل الشعر في الكوافير، ونادل في مطعم، كما اشتغلا بالعديد من الأعمال غير المستقرة، وقاما بتغيير مسكنهما خمس مرات، وكان الإيجار رخيصا أكثر فأكثر، وكان مسكنهما الأخير في حجرة تحت الأرض، كانت ملجأ للأشرار تم بناؤه في فترة الثورة الثقافية (1966 - 1976)، وبعد التخلي عنه أصبح ذلك الملجأ أضخم مسكن تحت الأرض في مدينتنا. وأضافت الصحف أن ملجأ الأشرار في مدينتنا يقطنه أكثر من عشرين ألف فرد على الأقل، أطلق عليهم أنهم ينحدرون من فصيلة الفئران، وأنهم يشبهون الفئران ينطلقون من تحت الأرض، وبعد أن يعملوا طوال اليوم، يرجعون إلى تحت الأرض. ونشرت الصحف صورة لمكان إقامة ليوميي وصديقها تحت الأرض، ولا يفصلها عن الجار سوى ستارة قماشة. وأشارت الصحف إلى أن هؤلاء البشر الذين ينتمون إلى فصيلة الفئران يطهون الطعام ويذهبون إلى المرحاض في ملجأ الأشرار، وتكدست هناك القاذورات والأوساخ بلا حدود، ويشعر المرء بأن الهواء أصبح فاسدا، ولم يعد صالحا للبشر.

واكتشف الصحافيون سجل (ليوميي) اليومي في الفضاء الافتراضي على شبكة الفيسبوك الصينية كيوكيو (QQ)، وتدعى (شيوميي) في هذا الفضاء الافتراضي. وسردت ليوميي في سجلها اليومي قبل انتحارها بخمسة أيام قصة صديقها يهدي إليها هدية عيد ميلادها. ويقول صديقها إنه أنفق أكثر من خمسة آلاف يوان من أجل شراء iphone s4 لصديقته التي

شعرت بالبهجة والغبطة لمدة يوم واحد فقط، وتناولا طعام العشاء في مطعم الجائلين في العراء. وفي اليوم التالي، يسافر الشاب العاشق إلى مسقط رأسه لزيارة والده المريض. والتقت صديقته بزميلتها التي تستخدم الهاتف الخلوي الحقيقي iphone s4، وعقدت مقارنة بين هاتفها المغشوش ونظيره الحقيقي لدى زميلتها، كما أن هاتفها خفيف الوزن بجلاء أيضا، غير أن درجة وضوح الشاشة لا بأس به، وأدركت آنذاك أن صديقها قد خدعها، وأهدى لها هاتفا خلويا ثمنه أقل من ألف يوان. وهناك صديق على شبكة الإنترنت من أرباب الصناعة، كتب رسالة فيما بعد على السجل اليومي للفتاة (شومي) جاء فيها: «إذا تحدثنا عن نسبة الوضوح العالية لشاشة العرض، يجب أن يكون المنتج من ماركة شارب». واحتكم هذا الصديق إلى نسبة الوضوح لتصحيح ما ذكرته الفتاة عن درجة وضوح الشاشة، كما صحح أقوالها حول الهاتف الخلوي المغشوش، وقال إذا كانت شاشة العرض من ماركة شارب، فإن ذلك يجب أن نطلق عليه هاتف من نسخة طبق الأصل، وثمنه يجب أن يكون أكثر من ألف يوان.

الفتاة (شومي) لا تستطيع الاتصال بصديقها بعد أن تعطل هاتفه الخلوي بسبب القروض، واضطرت لأن تغشى مركز اتصالات الإنترنت، وتبحث عن صديقها وترسل رسالة صوتية باسمه في الفضاء الافتراضي على شبكة (كيوكيو) لمدة خمسة أيام متتالية، وتطلب منه العودة على جناح السرعة. وفي اليوم الخامس، مازال صديقها لم يظهر في الفضاء الافتراضي، وتلعنه بأنه زوج الفاسقة المرتعشة، ثم تعلن أنها ترغب عن الحياة، كما أعلنت على الملأ أنها تستعد للانتحار، وذكرت الميقات والمكان

اللذيـن يشـهدان انتحارها. وحـددت الموعد فـي ظهيرة اليوم التالي، أما المكان فقد حددته -بادئ ذي بدء- فوق أعلى الجسر، وكانت تخطط للانتحار قفزا في النهر. وهناك صديق على شبكة الإنترنت أسـدى النصح لها بألا تنتحر غرقا في النهر، وأضاف أننا في فصل الشتاء قارس البرودة، ومياه النهر باردة ومتجمدة وتخترق العظام، ويجب البحث عن مكان دافئ للانتحار، وأردف أن الإنسـان الذي ينتحـر يجب أن يعامل نفسـه معاملة طيبة. وسألت ذلك الصديق كيف يكون الانتحار دافئا ولطيفا؟ ويقترح عليها أن تشـتري علبتين من الحبوب المنومة وتبتلعهما في نفس واحد، وتلف جسدها باللحاف، وتغط في أحلام سعيدة، ثم تودع دنيانـا. وذكر أصدقاء آخرون على الشـبكة أن ذلك هراء وكلام فارغ، والمستشـفى تعطيها فقط أكثر من عشـرة حبوب منومة، أما إذا كانت تريـد أن تبتلع علبتين، فإن ميقات الانتحار يتأجل إلى نصف سنة على الأقل. وذكرت أنها لا تؤجل موعد الانتحار، وقررت أن ترتدي الملابس المخملية وتنتحر قفزا من أعلى مبنى، وقررت أن مكان الانتحار هو سـقف البناية السـكنية التي تقع قبالة مخرج المكان الذي تسـكن فيه تحت الأرض، وقالت: هناك صديقان على شـبكة الإنترنت يقطنان خلف هذا الحي السكني ويطلبـان منها عدم الانتحار أمام بوابـة منزلهما، لأن انتحارها هناك سيجلب لهما النحس والحظ المنكود. واقترح أحدهما أنها تفكر بطريقة وتصعد قمة البناية السامقة للإدارة البلدية، وتقفز إلى أسـفل، وقـال إن ذلك يعد انتحارا عظيمـا. وذكر أصدقاء آخرون على الإنترنت أن ذلك مستحيل لأن البوليس المسلح يقوم بحراسـة الإدارة البلديـة، وقد يرى أنها جاءت شـاكية أو طلبا

للمساعدة ويحتجزها ويقيد حريتها. وفي نهاية المطاف، اختارت بنايـة قصر (بينغ فيي)، وهي المبنى التجاري، ويتألف من ثمانية وخمسـين طابقا، ويعد علامة بارزة في التخطيط المعماري في مدينتنـا، ولم يعارض ذلك أي صديق علـى الإنترنت، بل هناك أصدقاء امتدحوا هـذه الطريقة ووصفوها بأنهـا جيدة، وقبل الموعد الذي حددته تستطيع أن تقف عاليا وتنظر إلى بعيد، وفي الفضاء الافتراضي كتبت آخر كلمة لصديقها، وقالت: أكرهك.

الفتاة (شوميي) حددت موعد انتحارها بعد الظهر. وفي هذه الأثناء، وصلت توا إلى بناية قصر (بينغ فيي)، وأحمل في جيبي شـهادة التخرج الجامعية، وشهادة درجة الليسانس. وعثرت في شبكة الإنترنت على عدد من الشركات في تلك البناية التي تعمل في مجال التدريس الإضافي، ورحت أبحث عن فرصة عمل في إحدى تلك الشركات.

يتدافع ويتزاحم الناس أمام بناية قصر (بينغ فيي)، كما هرولت إلى هناك سـيارة الشـرطة وسـيارة الإطفاء، والناس جميعهم هناك يفتحون أفواههم قليلا ويتطلعون إلى تلك البناية السامقة. والسماء صافية زرقاء بعد سـقوط كميات كبيرة من الثلج لأول مرة في هذا الشـتاء، وأشعة الشمس تجعل أكوام الثلج المتراكمة تشـرق وتتلألأ. أقف هناك، وأرفع رأسي عاليا، وأرنو إلى شبح إنسان صغير يقف على الحائط الخارجي المكشوف لتلك البناية التي تتألف من ثلاثين طابقا. وبعد فترة وجيزة، أشـعة الشمس توجع عيني، وأحني رأسـي، وأفرك عيني. وشاهدت أناسا كثرا يحذون حذوي، حيث يرفعون رؤوسـهم فترة وجيزة، ثم ينكسون رؤوسـهم، ويفركون عيونهم، ثم يرفعون رؤوسـهم ويتطلعون إلى

أعلى فترة قصيرة. وسـمعت مناقشة صاخبة جاء فيها أن هذه الفتاة تقف هناك لمدة أكثر من ساعتين.

ويسأل أحدهم: «لماذا تقف هناك هذه الفتاة؟».

يجيب أحد الأشخاص: «تستعد للانتحار».

«لماذا تنتحر؟».

«ترغب عن الحياة».

«لماذا لا تريد الحياة؟».

«أنت أحمق وأبله؛ كيف تسأل هذا السؤال، هناك كثرة كاثرة ترغب عن الحياة في هذه السنين».

يتدافع ويتزاحم بين الناس هناك تجار صغار، والباعة المتجولون يذرعون المكان جيئة وذهابا، ويروجون بضاعتهم من محفظة جيب جلدية، وحقيبة يد جلدية، بالإضافة إلى العقود والشالات وغيرها من البضائع غير الأصلية وذات الماركات المغشوشة. كما هناك تجار يروجون بضاعة «مرهم السعادة والبهجة».

وهناك من يروج منتجات عجيبة، ويقول بصوت خفيض: من يريد أن يشتري جهاز تنصت؟ ويسأل سائل: ما فائدة جهاز التنصت؟ وكانت الإجابة أن هذا الجهاز يمكنك من التلصص على زوجتك إذا كانت خليلة لأناس آخرين. وهناك من يروج نظارات شمسية، ويقول بصوت عال: النظارة بعشرة يوانات، كما يصيح بكلام مقفّى: النظارة تري من علِ، وترى من جلي، ولا تخشى الشمس التي تفسد الحلي. بعض الأشخاص يشترون نظارات ويضعونها على عيونهم ويرفعون رؤوسهم، ويتطلعون باستمرار إلى شبح الفتاة الصغيرة فوق

قصر (بينغ فيي)، وترامى إلى مسامعي أنهم يقولون: رجل شرطي يطل برأسه من نافذة بالقرب من تلك الفتاة. كما سمعتهم يقولون إن الشرطة تقوم الآن بتهيئة ذهن الفتاة حتى لا تقبل على الانتحار. وبعد فترة وجيزة يصرخ هؤلاء الناس الذين يضعون على عيونهم النظارات الشمسية من ذوات العشرة يوانات،ويقولون: رجل الشرطة يمد يده، والفتاة تمد يدها أيضا، لقد نجحت الشرطة في عملها المعنوي. وبعد ذلك، يدوي صوت منتظم من صرخة الخوف (آه)، ثم يتبعه هدوء وسكون، وفي الحال سمعت صوت ارتطام تلك الفتاة بأديم الأرض يدوي ويحدث هديراً.

كان المشهد الأخير للفتاة (ليوميي) في ذلك العالم الذي عاشت فيه حيث يتدفق شلال الدم من ثغرها وأذنيها، وقوة الارتطام الهائلة مزقت بنطالها الكاوبوي.

تقول الفتاة المنتحرة: «ما زال اسمي (شيوميي)، أين كنت آنذاك؟».

أومئ برأسي.

وتقول: «هناك أناس يقولون إن موتي يبث الخوف في نفوس الآخرين؟ ويقولون إن وجهي يغص بالدم».

ثم تسأل:

«أليس كذلك؟».

«من قال ذلك؟».

«شخص آت من الخلف».

لم أفه بحرف.

«هل أجعل الناس يشعرون بالخوف الشديد؟».

أطأطئ رأسي، وأقول:

«عندمـــا رأيتك كنت وديعة ولطيفة جدا كأنك تغطين في نوم عميق».

«هل رأيت الدم؟».

يصيبنـــي التردد برهة، وأرغب عن الإشـــارة إلى تلك الدماء، وأقول:

«رأيت بنطالك الكاوبوي يتمزق».

تصدر برفق شديد صوت آه، وتقول:

«لم يخبرني بذلك».

«من الذي لم يخبرك بذلك؟».

«ذاك الرجل الذي آتى من الخلف».

أهز رأسي.

تدمدم وتقول:

«تمزق بنطالي الكاوبوي».

ثم تسألني:

«ما شكل البنطال بعد تمزقه؟».

«إربا، إربا».

«ما شكل إربا إربا».

فكرت برهة، ثم أخبرتها:

«يشبه شرائط ممسحة».

تحني رأســها، وتحملق فـــي بنطالها الذي أصبـــح عبارة عن شرائط طويلة وعريضة، وبات يشبه البنطال الذي يرتديه الرجال.

تقول:

«أيوجد شخص بدّل لي البنطال».

«هذا البنطال لا يشبه بنطالك».
«آه، ليس عندي بنطال بمثل هذه المواصفات».
«يجب أن يكون هناك رجل صالح غيّر لك البنطال».
تطأطئ رأسها، وتسألني: «كيف حضرت إلى هنا؟».
يجول بخاطري المشهد الأخير في مطعم (تاي جيا تساي)، وأقول:
«بعد أن انتهيت من تناول سلطانية المعكرونة في المطعم، وعندما كنت أطالع صحيفة وضعها أحد الزبائن على الطاولة نشب حريق في المطبخ، وحدث انفجار، ولا أدري ماذا جرى هناك بعد ذلك؟».
توافق على كلامي، وتقول: «يخبرك بذلك رجل يأتي من الخلف».

* * *

تقول: «في الواقع، لا أريد أن أرحل عن هذه الدنيا، كنت في سورة غضب فقط».
أقول: «أعرف ذلك، عندما مد رجل الشرطة يده، أنت مددت يدك أيضا».
«هل رأيت ذلك؟».
لم أر ذلك، ولكن شاهدت أناسا يضعون على عيونهم نظارة بعشرة يوانات، ولا أزال أومئ برأسي تلميحا بأنني رأيت ذلك بأم عيني.
«وقفت هناك ردحا طويلا، وهبت ريح عاتية وباردة جدا، وربما تكلس جسدي، وأريد الاستمساك بيد رجل الشرطة بقوة، وتزل قدماه كأنه يدوس على قطعة ثلج.. وجاء رجل من الخلف يقول إن حديث الصحف عن حادث انتحاري لا ينتهي».

أقول: «حديث الصحف استمر ثلاثة أيام، ثلاثة أيام بالتأكيد».

تقول: «ثلاثة أيام كثيرة جدا أيضا»، ثم تسألني: «كيف تناولت الصحف حادث انتحاري؟».

«ذكــرت الصحــف أن صديقــك أهدى لك الهاتــف الخلوي iphone s4 مغشوشا، مما جعلك تنتحرين».

تقول بهدوء: «الموضوع ليس على هذا النحو، لقد خدعني وقال إن iphone s4 حقيقي، وفي الواقع هو مغشوش حقا. ولم يقدم لي ثمة هدية، ولا يثير ذلك غضبي. إنه لا يســتطيع أن يخدعني فعلا. إن الصحف تهرف بما لا تعرف، وماذا ذكرت أيضا؟».

«أضافت الصحف أن صديقك غشي مسقط رأسه لزيارة والده الذي سقط مريضا، بعد أن أهدى إليك iphone s4 المغشوش».

بعد أن تؤمئ برأســها، تقول: «هذه أخبــار حقيقية، لا أريد الانتحار بسبب ذلك المنتج المغشوش».

«كما نقلت الصحف الســجل اليومي الخاص بك في الفضاء الافتراضي كيو كيو (QQ)».

ترســل زفرة، وتقول: «كتبت له رسالة في الفضاء الافتراضي حتــى يقرأها، وقد تعمدت أن أذكر فيها الانتحار حتى يرجع في التو ويقدم لي الاعتذار، وأنا أصفح عنه».

«ولكن أنت صعدت قمة بناية قصر (بينغ فيي)».

«إنــه الديوث الجبان لم يظهر دائمــا، واضطررت أن أصعد أعلى تلك البنايــة، واعتقدت أنه يجب أن يظهر أمامي في ذلك الحين».

تتوقف هنيهة، وتسألني: «هل ذكرت الصحف أنه حزن حزنا شديدا بعد وفاتي أم لا؟».

أطأطئ رأسي، وأقول: «الصحف لم تذكر ثمة شيئاً عنه».

تحدق في وجهي بارتياب، وتقول: «ذكرت الشرطة أنه رجع بسرعة. وأضافت أنه يبكي الآن أسفل تلك البناية، ومن ثم، مددت يدي وقبضت بإحكام على يد رجل الشرطة»، وبعد أن ترددت أخبرها قائلا: «إنه لم يرجع من مسقط رأسه. وفي الأيام الثلاثة التالية للحادث لم تذكر الصحف كلها أنه رجع آنذاك».

«الشرطة خدعتني أيضا».

«الشرطة خدعتك من أجل إنقاذك».

تومئ برأسها برفق عدة مرات، وتقول: «لقد أدركت كل شيء يتعلق بالحادث».

تسألني: «ماذا كتبت عنه الصحف فيما بعد؟».

أقول: «لم تكتب شيئا».

تقول في ألم وحزن: «يقوم دائما بدور الديوث الجبان».

أقول: «ربما لا يعرف ذلك أبدا»، وأضيف: «وربما لم يقم بالاتصال بشبكة الإنترنت دائما ولم يقرأ الرسالة التي كتبتها له في سجلك اليومي، كما أنه سافر إلى مسقط رأسه، ولا يستطيع أن يجد الصحف هناك أيضا».

وتقول مرة أخرى: «وربما لا يعرف حادث انتحاري، لأنه لا يعرف بكل تأكيد».

أقول: «الآن يجب عليه أن يعرف ذلك الحادث».

* * *

أصطحبها ونسير على طريق طويل جدا، وتقول: «أشعر بالإرهاق، أريد أن أجلس على كرسي وأستريح».

الجهات الأربع المكشوفة تعتبر بمثابة حقيقة مترامية الأطراف مدركة غير محسوسة، ونستطيع أن نرى السماء والأرض فقط. ولم نر مشـــهد الأشجار، ولم نســمع خرير تدفق مياه النهر، ولم نسمع حفيف الأوراق في الريح، ولم نسمع فعقعة وقع الأقدام.

أقول: «لا يوجد هنا كرسي».

تردف قائلة: «أريد أن أجلس على كرســـي خشــبي، لا أجلس على كرسي إسمنتي، أو كرسي حديدي».

أقول: «أنت تستطعين الجلوس على الكرسي الذي يحلو لك».

تقول: «لقد فكرت جيدا، وقررت وجلســت، إنه مقعد خشبي طويل، وأنت تجلس أيضا».

أقول: «حسنا».

نمشي تارة، ونجلس تارة على المقعد الخشبي الطويل المفضل لديها. ونجلس على طرفي المقعد، ويبدو أنها تحملق في وجهي. وتخاطبني قائلة: «أشــعر بالتعب الشديد، أبغي أن أتكئ على كتفك.. لا، أنت لست هو، لا أستطيع أن أستند على كتفك».

أقول: «تستطعين أن تسندي جسدك على ظهر المقعد».

تميل بجســمها إلى الوراء قليلا، وتقول: «أســنده على ظهر المقعد».

«أتشعرين بالراحة؟».

«أشعر بالراحة قليلا».

نتقــدم إلى الأمام في صمت مطبــق كأننا نجلس على المقعد الخشبي الطويل ونأخذ قسطا من الراحة.

يبدو أننا جلســنا وقتا طويلا، وتأمل في أعماقها أن تنهض، وتقول: «هيا بنا نمشي».

وتبدو خطواتنا أسرع بعض الشيء عندما نتقدم إلى الأمام.

تقـــول في حزن وألم: «أبحث عنه دائما، ولم أعثر عليه. الآن يتعـــين عليه أن يعرف حادث انتحاري، ولم يعد ديوثا وجبانا، إنه يبحث عني بالتأكيد».

أقول: «أنتما كتب عليكما الفراق».

«هو هناك، وأنا هنا».

تحني رأسها، وتقول بهدوء: «حالنا على هذا النحو».

أقول: «هو يشعر بالحزن والألم الآن».

تقـــول: «هو حزين ويتألـــم حقا، هو يحبني حبـــا جمّا هكذا، وهو الآن بالتأكيد يبحث عن قبري حتى يجعلني أشـــعر بالراحة الأبدية».

تتكلـــم وتتنهد، ثم تردف قائلة: «ليـــس عنده نقود، وهو فقير مثـــل ثلة من أصدقائه، وأين يذهب ويحصل على النقود لشـــراء قبر لي؟».

أقول: «سوف يدبر هذا الأمر جيدا».

تقول: «أجل، إنه يرغب في القيام بعمل أي شـــيء من أجلي، ويفكر في وسيلة للحصول على نقود بالتأكيد».

تعلـــو وجههـــا علائم ســـرورها ورضاهـــا بأنها عثـــرت على الذكريات الحلوة في عالم الممات ذلك.

تقول بصوت منخفض: «يقول إنني أجمل فتاة في العالم».

ثم تسألني: «هل أنا جميلة؟».

أقول بصدق وإخلاص: «جميلة جدا».

تبتسم بعد أن شـــعرت بالبهجة والغبطة، ثم ما لبث أمارات القلق تعلو قسمات وجهها. وتقول: «يعتريني خوف شديد، الربيع

ســيأتي حالا، والصيف أيضا، وجســدي يتعفن، وأصبح مجرد هيكل عظمي».

أقوم بمواســاتها قائلا: «سيشــتري لك قبرا حالا، ويمكن أن تتمتعي بالراحة الأبدية قبل قدوم الربيع».

تطأطئ رأسها، وتقول: «نعم، سوف يشتري بالتأكيد».

نمشي في الهدوء والسكون، والموت هو اسم ذلك الهدوء والسكون. لم نتجاذب أطراف الحديث مرة أخرى لأن ذاكرتنا تجمدت، ولم تعد تتحرك إلى الأمام. وهذا هو العالم الذي تنفصل فيه الذاكرة، عالم أرقش متعدد الألوان، كما أنه عالم الزيف والحقيقة أيضا. وأشــعر بــأن هذه المرأة، التي ترتســم على وجهها تعابيــر الوحدة والعزلة، تســير بجواري في صمت مطبق، وأتنهــد تعجبا من أن ذاك العالم عالم الموت يجعل المرء عاطفيا ورقيق القلب جدا.

يبدو أننا مشينا إلى نهاية البرية، وتتسمر قدماها، وتخاطبني قائلة: «لقد وصلنا».

أنظر بدهشــة وذهول إلى عالم.. تتدفق فيه المياه، وينتشــر العشــب الأخضر في أصقاعه، والأشــجار مزدهــرة وناضرة، وتغص فروع الأشــجار بالثمار ذات النوى، وأوراق الأشجار تشبه القلب، وعندما تهتز يشبه حفيفها دقات القلب. وشاهدت أناسا كثرا، كما شاهدت بشرا كثرا لم يبق منهم سوى الهيكل العظمي، بالإضافــة إلى بعض البشــر الذيــن مازالوا يحتفظون بجســم الإنسان، يذرعون المكان جيئة وذهابا.

وسألتها: «ما هذا المكان؟».

تقول: «هنا المكان الذي يموت فيه المرء ولا يجد دفانا».

* * *

يعيـق تقدمنا نحو الأمــام هيكلان عظميان يجلســان على الأرض ويلعبان الشطرنج، ويشبهان الباب الذي يعيقنا عن المشي. ونقف أمامهما، الهيكلان العظميان يتشــاجران ويتبادلان الاتهامات بأن كل واحد منهما يحاول التراجع عن لعبته في الشــطرنج، وصوت عراكهما عال رنان أكثر فأكثر مثل ألسنة اللهب تتصاعد عاليا كلما قفزت في الهواء.

الهيـكل العظمي في الجانب الأيســر يتظاهر أنه يرمي قطع الشطرنج، ويقول: «لا ألعب معك الشطرنج».

الهيـكل العظمــي في الجانــب الأيمن يتظاهــر برمي قطع الشطرنج أيضا، ويقول: «أنا لا ألعب معك الشطرنج أيضا».

الفتاة (شــوميي) تتفوه بكلمــات، وتقول: «لا تتعــاركا، أنتما تحاولان التراجع عن لعبتكما في الشطرنج».

يكف الهيكلان العظميان عن الشــجار، ويرفعان رأســيهما، وبعد أن ينظرا إلى شــوميي، يفتحان تجويف فمهما، واعتقدت أن ذلك يجب أن يرسم الابتسامة على وجهيهما. وبعد ذلك، لفت انتباههما أن هناك شــخصا بجوار شــوميي، ويلقيان عليّ نظرة فاحصة من أعلى إلى أسفل من تجويف عيونهما.

الهيـكل العظمي في الجانب الأيســر يســأل شــوميي: «إنه صديقك، أليس كذلك؟».

الهيكل العظمي في الجانب الأيمن يسأل شوميي: «صديقك طاعن في السن».

تقول شــوميي: «هو ليس صديقــي، وليس عجوزا أيضا، إنه حضر هنا حديثا».

يقــول الهيكل العظمي في الجانب الأيمن: «عرفت أنه حضر حديثا حيث ما زال جسده به لحم».

الهيكل العظمي في الجانب الأيسـر يسـألني: «هل تبلغ من العمر خمسة وخمسين عاما ونيفا؟».

أجيب قائلا: «عمري واحد وأربعون عاما».

يقول الهيكل العظمي في الجانب الأيمن: «مسـتحيل، عمرك خمسون عاما على الأقل».

أقول: «عمري واحد وأربعون عاما حقا».

الهيكل العظمي في الجانب الأيسـر يسأل نظيره في الجانب الأيمن: «هل يعرف قصتنا؟».

يقـول الهيكل العظمي في الجانب الأيمـن: «يجب أن يعرف قصتنا ما دام بلغ الواحد والأربعين عاما».

يسـألني الهيـكل العظمي في الجانب الأيسـر: «أنت تعرف قصتنا؟».

«أي قصة؟ ».

«قصتنا هناك».

«توجد قصص كثيرة جدا هناك».

«قصتنا أشهر قصة بين تلك القصص هناك».

«ما قصتكما؟».

انتظرت حتى سردا قصتيهما، ولكن لم ينطقا بكلمة بعد ذلك، وينهمكان في لعب الشطرنج. وأنا وشوميي نجتاز الطريق بينهما قفزا مثل اجتياز عتبة الباب بخطوات واسعة.

* * *

أسحب شوميي ونمضي قدما إلى الأمام، أمشي حينا، وأتطلع حولـي حينا آخر، وشـعرت بأن أوراق الأشـجار كأنها تلوح لي، والأشجار تبتسم في وجهي، ومياه النهر ترسل إلي تحية.

بعض البشر من ذوي الهياكل العظمية تنطلق من ضفة النهر، وتنبثـق من داخل طبقات عشـبية، وتخرج مـن الغابة. وعندما يمشـون أمامنا يطأطئون رؤوسـهم قليلا، وعلى الرغم من أنهم مروا بجانبنا ولمسـوا أكتافنا، بيد أنني ما زلت أشـعر أنهم إخوة أحماء، وكان من بينهم بضعة أشـخاص سجلوا أسئلتهم بصورة حميمة؟ وهناك شـخص يسأل (شوميي) إذا رأت صديقا أم لا؟ وشـخص آخر يسـأل هل حضرت هنا تواً؟ ويبدو أن أصواتهم تتجـول أولا في كافـة البقاع، ثم تترامى إلى مسـامعي بعد أن يبللها ماء النهر، وتجلب معها نضارة العشـب الأخضر، وحفيف أوراق الأشجار.

كما سـمعنا صوت شـجار الهيكلين العظميين وهما يلعبان الشطرنج ويدوي مثل صوت فرقعة السوط في الفضاء ويأتي من مكان ناء، وتسـمع فقط صوت عراكهما يدوي بقوة في الفضاء الواسع.

وتخبرني (شـوميي) أنهما عندما يلعبان الشـطرنج تتسـم تصرفاتهمـا بالوقاحة، حيث يلعبان الشـطرنج تارة، ويحاولات التراجع عن ألعابهما في الشـطرنج تارة أخرى، ثم ينشب بينهما الشـجار، ويقولان إنهما يفترقان مرات عديـدة تقدر بالآلاف، ويريـدان حرق جسـديهما، ويرغب كل منهما فـي الذهاب إلى قبـره، وعلى كل حال عندما يتفوهان بتلـك الكلمات، لم ينهض أحد منهما واقفا ولو مرة واحدة.

«هل لديهما قبر؟».

تقول شوميي: «يمتلك كل منهما قبرا».

«لماذا لم يذهبا إلى قبريهما؟».

كل ما تعرفه شـوميي أنهما جاءا هنا منذ عشـر سنوات وأكثر، أحدهما اسـمه (تشـينغ) في ذاك الجانب وهو رجل شـرطة، ولا يحرق جسـده، ولا يذهب إلى قبره، ينتظر أبويه هناك، وهمـا اللذان يبـذلان جهودهما حتى يظفـر ابنهما بلقب الشـهيد. والرجل الآخر اسمه (لي) يرافقه، ولا يحرق جسده، ولا يذهب إلى قبر أيضا. ويقول (لي) إنه ينتظر حتى يتـم التصديق على منح لقب شـهيد لزميله (تشـانغ)، وبعد ذلك، يرافـق كل منهما الآخر وتربطهمـا الأواصر الحميمة والانسـجام التام، ويغشـيان غرفة حرق الجثث في مؤسسة الخدمـات الجنائزية، وبعد عملية الحـرق، يهرول كل منهما إلى مقر راحته الأبدية.

تقول شوميي: «سمعت أن أحدهما قتل الآخر».

أقول: «أعرف قصتيهما».

* * *

قبل عشـر سـنوات ونيف، حضر أبواي، اللـذان أنحدر من صلبهما ودمهما، من المدينة شـمال الصين بسرعة، وتعرفا على ملامحـي، وبعد أن حققت قصـة «ولادة طفل في القطار» نهاية مرضية، بدأت قصـة أخرى. واضطلعت الشـرطة في مدينتنا بحملة للقضـاء على الأدب الإباحي أطلـق عليها «حملة الرعد المفاجئ»، وألقت القبض على النسـوة اللاتي يمارسـن الرذيلة، وكان من بينهن رجل يدعى (لي) تنكّر في زي لباس المرأة ويمارس الرذيلة من أجل المال.

ويشـارك في «حملة الرعد المفاجئ» رجل شرطي شاب تخرج في مدرسة الشـرطة توا، ويدعى (تشانغ فانغ) ويقوم باستجواب

(لي) الذي ألقي عليه القبض في مساء ذاك اليوم، ولا يزال مكابرا ولا يرغب في التوبة عن ممارسة الرذيلة والتظاهر الخفي بملابس النســاء، بل إنه يتيه عجبا وزهوا بنفســه لأنه يتحلى بالمهارة في ممارســة الرذيلة، ويزعم أن مهارته تضاهي هؤلاء الزبائن الذين يغشــون دار البغايا، ويقول: لا يوجد داعر يستطيع أن يكتشف أنه رجــل إذا لم يقبض عليه البوليس. ويتنهد تحســرا على أنه كرس قوتــه ومهارته من أجــل مجابهتهم وليأخذ الحذر من الشــرطة، وكانت عاقبة ذلك أن القارب انقلب في المجرور.

وكان تشــانغ غانغ مفعما بالنشاط والقوة في ذلك الحين لأن ذلــك كان أول اســتجواب يقوم به بعد أن غادر مدرســة الشرطة. والرجل (لي) المتنكر في زي فتاة ويمارس الرذيلة لا يحتفظ بحيوته ونشاطه فحســب، بل يبرز للعين مظهره بأنه تعلم العســكرية في مدرسة الشرطة أيضا، وجمرات الغضب تحرق تشانغ غانغ، وعندما يشبه (لي) الشرطة بأنها مجرور، لم يعد تشــانغ يســتطيع الاحتمال، ويرفع قدمه عاليا ويركل نصفه السفلي، ويمسكه (لي) بإحكام شديد، ويزعق ويصرخ، ويتدحرج على الأرض لأكثر من عشــر دقائق، ثم ينخرط في نوبة بكاء شديدة من الألم.

يتعرض (لي) للاعتقال لمدة خمســة عشر يوما، وبعد أن يفك أســره من سجن الموقوفين يبدأ في الاحتجاج لمدة ثلاث سنوات. في البداية، يتحــدى الرياح والأمطار ويظهر أمام بوابة مصلحة الأمــن العام كل يوم، وترفع يده لافتة مكتوب عليها: «أعيدوا إليّ رجولتي»، وذلك حتى يثبت أن رمز رجولته ليســتا ديكورا وزينة، بل هما حقيقــة ماثلة وواقع قائم، ويمكن للمارة بلا كلل ولا ملل

معرفة كيفية حصوله على المال من ممارسة الدعارة، ويغشى دار البغايا مرة أخرى كالمومس.

يشير شخص ما إلى أن اللافتة مكتوبة بلغة سوقية ومبتذلة، يتقبل (لي) ذلك الانتقـــاد برحابة الصدر، ويصحح لغة اللافتة، ويشرح للمارة قائلا:

«إنها لغة ثقافتي».

احتجـــاج (لي) طويل الأمد ســبّب صراعا بلا نهاية لكل من رئيـــس مصلحـــة الأمن العام ونائبـــه، اللذين يريـــان (لي) يرفع اللافتـــة كل يوم ويقف أمام البوابة الكبـــرى، وبات ذلك مصدراً للإزعاج حقـــا، وبخاصة عندما قامت القيـــادة العليا بالتفتيش وتقصي الحقائق، وقدمت استجوابا لهما عن:

«ماهية رمز الرجولة في اللافتة خارج البوابة؟».

وبعد أن يعقـــد رئيس مصلحة الأمن العـــام ونائبه اجتماعا للتشـــاور، قررا نقل تشـــانغ غانغ من عمله في تلك المصلحة إلى نقطة بوليس محلي، وتبع ذلك نقل هذه المشكلة إلى نقطة البوليس نفســـها أيضا. وبعـــد انقضاء عام، لا يكف مأمـــور تلك النقطة ونائبه عن الشـــكوى، ويهرولان إلى مصلحة الأمن العام أكثر من مرتين في الأســـبوع ويقدمان هدايـــا إلى رئيس المصلحة ونائبه، كما يبثان لهما شـــكواهما، ويقولان إن نقطة البوليس قد عجزت عـــن أن تعمل بصـــورة طبيعية. رئيس المصلحـــة ونائبه يتفهمان هموم المرؤوســـين، ويقرران نقل تشانغ غانغ من عمله إلى سجن الموقوفين، وكذلك نقل مشـــكلته إلى ذلك الســـجن أيضا. وبعد أن عانى مدير ســـجن الموقوفين ونائبـــه من الصراع لمدة عامين، يرفعان تقريرا إلى رئيس المصحلة ونائبه، ذكرا فيه أن مشـــكلته

الخاصة تحدث قلاقل طوال اليوم خارج سجن الموقوفين، وفقد القانون هيبته، ويشــعر مدير السجن ونائبه بأنهما تحملا كثيرا من المعاناة طوال عامين، ويجب نقل هذه المشكلة إلى مكان آخر. يشــعر رئيس المصلحة ونائبه بأن ســجن الموقوفين ليس ســهلا حقا، وأن مشــكلةمن هذه النوع يجب نقلها إلى مكان آخر فعلا. ولكــن لا يوجد مدير ســجن للموقوفين يرغب في قبول تشــانغ غانغ يعمل لديه، ويقولون إن حضور تشانغ غانغ يتبعه بالضرورة مشكلته الخاصة برمز الذكورة.

تشــانغ غانغ يدرك أن سجن الموقوفين يسعى إلى طرده، كما لا توجــد نقطة بوليــس ترغب في قبوله للعمــل لديها، كما أنه لا يرغــب فــي المكوث بســجن الموقوفين، وعــرج على مصلحة الأمن العــام لمقابلة رئيس المصلحة، وقدم طلبا من أجل أن يعود إلــى عمله في المصلحة. رئيس المصلحة يصغي إلى كلام تشــنغ غانغ، ويلتمع في ذهنه - أولا - عودة مشــهد اللافتة أمام بوابة المصلحة والجلبة الناجمة عن ذلك. رئيس المصلحة يطرق رأسه ويمعن في الأمر، ويسأل تشانغ غانغ إذا كان يعتزم أن يغير عمله أم لا؟ ويسأل تشانغ غانغ أي عمله أبدله؟ ويقترح رئيس المصلحة أن يستقيل تشانغ غانغ من عمله، ويدير حانوتا صغيرا وخلافه. ويقول رئيس المصلحة إذا تخلص تشانغ غانغ من الشرطة، فربما مشــكلة انعدام رمــز ذكورته لم تعد تطارده مرة أخرى. يبتســم تشــانغ غانغ ابتســامة صفراء ويخبر رئيس المصحلة بأن أمامه خياريــن، أولهما: قتل صاحب المشــكلة، وثانيهما: أنه يقف أمام البوابــة الكبرى لمصلحة الأمــن العام، ويرفع لافتــة عودته إلى العمــل على غرار اللافتة الســابقة. والدموع تخضب عينيه بعد

أن يفـــرغ من كلامه. يعرب رئيس المصحلة عن تعاطفه الشـــديد مع تشـــانغ غانغ من جراء المعاناة التي ألمـــت به، وبالإضافة إلى ذلك رئيس المصحلة يحـــال إلى التقاعد قريبا، وبعد إحالته إلى المعـــاش لا يعير اهتماما للقلاقل الناجمة عن تلك المشـــكلة أمام بوابة الأمن العام. ينهض رئيس المصلحة واقفا ويمشي إلى جوار تشانغ غانغ، ويربت على كتفه، ويقول:

«ارجع إلى عملك في المصلحة».

يعود تشانغ غانغ إلى عمله في مصلحة الأمن العام، ولم يكن في الحســـبان - في هذه المرة - أن المشـــكلة السابقة لم تطارده هناك، وبعد انقضاء شـــهر من عودته إلـــى العمل في المصلحة، وعندما يراه الموظفون في الأقســـام الأخرى مازالوا يعتقدون أنه ينجـــز بعض الأعمال في المصلحة، ولم يدر بخلدهم أنه عاد إلى عمله، ويســـألونه عـــن تردده الدائم علـــى المصلحة، وماذا جرى في ســـجن الموقوفين؟ ويخبرهم تشانغ غانغ بأنه عاد إلى عمله. والدهشـــة تلجـــم هؤلاء الموظفـــين ويقولون لماذا لـــم نر اللافتة مجدداً خارج البوابة الكبرى؟ كما يشـــعر رئيس المصلحة ونائبه بالدهشـــة أيضا، وعندما كانا يعقـــدان اجتماعا ذات مرة، نائب رئيس المصلحة لم يعد يستطيع الاحتمال، ويقول:

«ما حكاية تلك اللافتة أمام مدخل المصلحة؟».

وعلى الرغم من اختفاء هذه اللافتة، ولكن تشانغ غانغ ما زال مرتبـــكا حائرا إلى حد ما، وعندما يذهـــب إلى الدوام والانتهاء منـــه، لا ترتـــد عيناه عن النظر نحو مدخـــل المصلحة ليتأكد أن (لـــي) ليس موجودا، حتى يطمئن قلبـــه المعلق بين ضلوعه. وفي البداية، يخشى تشانغ غانغ من أن (لي) ربما أصابه مرض، وبعد

أن يشـــفى من مرضه يأتي إلى مدخل مصلحة الأمن العام ويثير الاضطرابات. وعلى كل حال، انقضت ثلاثة شهور، ونصف سنة أيضا، وأخيرا، لم تظهر اللافتة أبدا. وفي نهاية المطاف، يستريح تشـــانغ غانغ قليلا، ويشعر بأنه يســـتطيع أن يبدأ عمله وحياته بصورة طبيعية.

بعد انقضاء سنة وأكثر، وعندما أسدل الموظفون في مصلحة الأمن العام ستارة النسيان على اللافتة المشينة، يظهر (لي) أمام عيونهـــم. وفي هذه المرة لم يرفع لافتة «أعيدوا إليّ رجولتي»، بل يحمل على ظهره حقيبة سوداء وينطلق إلى الأمام، حرس المدخل فـــي تلك المصلحة يرى هذا الشـــبح يمر بجانبهـــم وتلمس كتفه مركبة كبيرة تنطلق من الداخل، وينادي عليه عدة مرات، ويسأله ماذا يفعل هنا؟ ولم يدر رأسه. يقول:

«نتحدث عن العمل».

حرس المدخل ينادي: «تعال، وسجل اسمك».

مـــا كاد حرس المدخل ينتهي من كلامه حتى يندفع (لي) إلى مبنى مصلحة الأمن العام، ويجتاز الممر، ويســـأل رجل شـــرطة هناك عن مكتب تشـــانغ غانغ، يقول الشـــرطي إن تشـــانغ غانغ في الـــدور الخامس غرفة رقـــم (503)، وبعد ذلك يشـــعر بأن (لي) مألـــوف لديه، ولم يتذكر اللافتة أمام مدخل تلك المصلحة التي يعرفها القاصي والداني منذ أربع ســـنوات. ولم يركب (لي) المصعد، بل يصعد الســـلم على امتداد المصعد، وذلك خشية أن يفتضـــح أمره في المصعد من قبل الآخريـــن، ويصعد إلى الدور الخامس، وعندما يدخل الغرفة رقم (503)، كان هناك أربعة من رجال الشـــرطة يجلسون في الداخل، ويتعرفون على تشانغ غانغ

من النظرة الأولى، ويفتح الحقيبة السـوداء، ويتقدم إلى الأمام، وينادي بصوت عال:

«تشانغ غانغ».

تشـانغ غانغ يكتب على الطاولة، ويرفع رأسـه، ويتعرف على ملامح (لي)، وعندما ينظر إليه بعين الشـك والارتياب، يسـتل (لي) من الحقيبة السوداء سـكينا طويلا ويقطع بها رقبة تشـانغ غانغ، ويتدفق الدم كالنافورة، ويمسـك تشانغ غانغ رقبته بيده بقوة، ويسـند جسـمه على الكرسـي وهو خائر القوى، ويئن في التو أنينا مؤلما مرتين، وتخترق السكين لبـان صدره. في هـذه الأثناء، يأتي رجال الشـرطة الثلاثة الآخـرون للتعامل مـع الحادث، ويندفعـون مهرولين، وينزع (لي) السـكين من لبان صدر تشانغ غانغ ويلوح بها في وجه هؤلاء الشرطة الذين يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وحماية حياتهم باسـتخدام أذرعتهم، ويشاهدون حمام الدم المتدفق من قطع الرقبة، ويلوذون بأذيال الفرار إلى الممر، ويصرخون بصوت عال:

«أمسكوا القاتل، اقبضوا على القاتل..».

يعم الهرج والمـرج الطابق الخامس في مصلحة الأمن العام، وجسد (لي) ملطخ بالدم من رأسه إلى أخمص قدمه وهو يطعن بالسـكين رقبة تشـانغ، (لي) يطعن بالسـكين تارة، ويلهث تارة أخـرى. ويهرول إلى مكان الحادث رجال الشـرطة في الطوابق الأخرى، ويلوح عشرون شرطيا ونيفا بالهراوات الكهربائية حتى تمكنـوا من كبح جماح (لي) الذي يسـند جسـمه على الحائط بلا حول ولا قوة.

يودع تشـانغ غانغ دنيانا في سيارة الإسعاف التي نقلته إلى المستشـفى، أما القاتل (لي) فقد حكم عليه بالإعدام بعد مرور نصف سنة.

قضيـة القاتـل أحدثت جلبة في مدينتنا، ودارت مناقشـات مشوشـة ومتعددة بـين قاطنيها الذين ذكروا أن رجال الشـرطة هؤلاء يستعرضون عضلاتهم في المدينة، وهم في الواقع نفايات، ورجل بلا رجولة استطاع بسهولة مثل شرب الماء أن يقتل شرطيا بقطع رقبته، ناهيك عن إصابته تسـعة من رجال الشرطة أيضا، من بينهم شـرطيان إصابتهما بالغة. وإذا اسـتبدلناهم بثلة من الرجال الأسـوياء يحولون مصلحة الأمن العام إلى ميدان تتناثر فيه الأشلاء. ورجال الشرطة في تلك المصلحة لم يذكروا بصورة كاملة ما دار في المناقشات، وقالوا إنهم لم يعرفوا أن (لي) حضر إلـى المصلحة بغرض القتـل، وإلا لألقوا عليه القبض في الحال. وهناك شرطي يخبر نفرا من أصدقائه بأن الذين يحملون حقائق سـوداء على ظهورهم في العادة، ويحضـرون إلى المصلحة يكون ذلك بغرض إرسـال هدايـا، ولم يخطر على بـال أحد أن ذلك الشخص (لي) لم يستل هدية من حقيبته، بل سكين قتل.

ولأكثر من عشـر سـنوات فيما بعد، يبذل أبوا تشانغ غانغ جهودا مضنية دائما من أجل أن يظفر ابنهما بلقب الشهيد.

مصلحـة الأمن العـام - بادئ ذي بدء - لم توافق، والسـبب في ذلك أنـه عندما مات ابنهما لم يكن على رأس العمل. وأبواه يسـيران على درب طويل جدا من الشكوى، ففي البداية يذهبان إلى مكتب الأمـن العام في المقاطعة، وبعـد ذلك، يعرجان على وزارة الأمـن العـام في بكين، ومكتب الأمن العـام في مدينتهما

يشعر بصداع شديد لا ينتهي من جراء شكواهما، وأثناء انعقاد مؤتمرين في بكين في غضون عام واحد، يقفان في ميدان تيان آنمين (السلام السماوي) في بكين ويرفعان لافتة يطلبان فيها الاعتراف بابنهما الشهيد، مما جعل الجهات المعنية في بكين تتفجر غضبا، ووجهت انتقادات لاذعة للجهات المعنية في المقاطعة والمدينة، ويضطر مكتب الأمن العام في المدينة لأن يرفع تقريرا إلى القيادة العليا يطلب فيه الاعتراف بالشهيد تشانغ غانغ. ومكتب الأمن العام في المقاطعة يرفع تقريرا إلى بكين التي لا ترد خطيا أبدا. ولا يزال الأبوان يصران على الشكوى بصورة مستمرة، ولا سيما أثناء انعقاد مؤتمرين في بكين، ناهيك عن انعقاد مؤتمر ممثلي نواب الشعب، ويقفزان في القطار المتجه إلى الشمال، ولكن يتم إيقافهما في كل مرة في منتصف الطريق، ثم حبسهما في فندقين مختلفين حتى ينتهي انعقاد المؤتمرات في بكين، وبعد ذلك يتم إطلاق سراحهما. وقصة شكوى الأبوين وكفاحهما من أجل أن يحصل ابنهما على لقب شهيد انتشرت على شبكة الإنترنت، وبعد ذلك، لم تعد ترسل المدينة أشخاصا يوقفون الأبوين وحبسهما. وفي عبارة أخرى، إنها غيرت أسلوبها، حيث ترسل أشخاصا يصطحبوهما في السياحة بين الجبال والأنهار والمناظر الطبيعية الخلابة، ويستطيعان التمتع والمرح حتى يتمكن القادة من الاستمتاع بالأموال العامة في السياحة. وبعد أن يشهد الأبوان طريقا طويلا من الشكوى دون التوصل إلى نتيجة يتحول بأسهما إلى حالة من اللهو والتسلية، ويقدمان شكواهما إلى مسؤولي المدينة قبل الفترة الحاسمة لانعقاد المؤتمرات، ويبديان رغبتهما في القيام بجولة سياحية

في المناطق ذات المناظر الشــهيرة، والتي لــم تطأها أقدامهما. الجهات المعنية في المدينة تضج بالشــكوى بســبب ذلك، وتقول إنهــا أنفقت أكثــر من مليون يوان صينــي تقريبا على الرحلات السياحية للأبوين في غضون عشر سنوات ونيف.

اليوم الخامس

والــدي الذي أبحث عنه موجود هنا؛ في وســط جماعة من الهيــاكل العظمية. وينتابني شــعور مدهش حيث إنه على الرغم من أن آثــاره هنا تظهر وتختفي مثل صــوت الأوز البري، ولكن مشــاعري كانت مثل الشعر الذي تداعبه النسائم، وأدركت حتى لــو كان والدي يقف في المقدمة، فأنــا لا أتعرف على ملامحه، ولكنــه يســتطيع أن يتعرف عليّ مــن النظرة الأولــى. وقابلت هياكلهم العظمية التي تمشي في جماعة حيناً، وفي تسعة أفراد حينًا آخر، وأقف أمامهم وأقدم عرضا لنفســي، وأتطلع بشغف لأن ينبثق من بينهم صوت ينادي اسمي:

«يانغ فيي؟».

وأدرك أن هذا الصوت سيكون غريباً على غرار صوت زوجتي لي تشــينغ على هذا النحــو. وعلى كل حال، أســتطيع أن أميز صــوت والدي من بين كل الأصــوت، ويتحلى صوت والدي دائماً بالحنو والود في عالم هذه الدنيا، ويجب أن يكون هذا في عالم الآخرة أيضًا.

أتجول في كافة الأصقاع ولم أجد شبح قبر، وهذه الأشباح التــي تعجز عن الوصول إلى أرض الراحــة الأبدية تنتقل من مكان إلى آخر كأنها أشجار متحركة، أشجار متناثرة ومبعثرة

طوراً، وأشجار مجتمعة محتشدة تارة أخرى كأنها أحراج، ونمشي بين صفوفهم كأننا نمشي في غابة قطعت أشجارها. وأتطلع إلى سماع صوت والدي في الأمام، في الخلف، في الجانب الأيسر، في الجانب الأيمن، أتطلع لأن يهتف والدي وينادي اسمي.

أقابل - بين حين وحين - أناساً يضعون على أذرعتهم شرائط قماشية سوداء، وتبدو الأكمام التي تغطيها تلك الشرائط خاوية على عروشها، وعرفت أنهم جاؤوا هنا منذ ردح طويل، وأكمامهم خاوية من اللحم، ولم يظهر منها سوى الهيكل العظمي. أتبادل معهم النظرات والضحكات، ولا ترتسم الابتسامات على وجوههم، بل تنطلق من تجويف عيونهم لأن وجوههم طالحة متجهمة من الهيكل العظمي مثل الحجر الصلب، بيد أنني شعرت بتلك الضحكات النابعة من القلب لأننا جميعاً بشر، وفي العالم الآخر لا يوجد إنسان يضع شريطاً قماشياً أسود على ذراعه من أجلنا، ونحن بأنفسنا ننعى أنفسنا.

هناك شخص يضع شريطا قماشيا أسود على ذراعه ويلفت انتباهه تعابير البحث عن والدي في عيوني، ويقف أمامي، وأرى ملامح هيكله العظمي، ويوجد تجويف صغير جداً في جبهته، ويصدر صوتا وديا.

ويسألني: «أأنت تبحث عن إنسان؟» ويردف: «أنت تبحث عن شخص واحد، أم تبحث عن بضعة أفراد؟».

أجيب: «أبحث عن رجل واحد، أبحث عن والدي ربما يكون موجودا هنا».

«أأنت تبحث عن والدك؟».

«اسمه يانغ جين بياو».

«اسمه هنا غير ذي جدوى».

«يبلغ من العمر ستين عاما ونيفا..».

«أعمار البشر هنا لا يمكن أن تعرفها».

أرى الهياكل العظمية التي تمشي وتتحرك في الأماكن القريبة والنائية لا يمكن أن نقدر أعمارهم حقاً.

تستطيع عيني أن تميز فقط بين البشر من ذوي القامات العالية والقصيرة، والضخم والنحيف، وتستطيع أذني أن تميز فقط بين أصوات الرجال والسيدات، والعجائز والصغار.

وتذكرت أن والدي في الآونة الأخيرة كان ضعيف البنية وسقيم الجسم، وأقول: «قامته تبلغ متراً وسبعين سنتيمترا، وشكله نحيف جداً..».

«البشر هنا أجسادهم واهنة ونحيفة جدا».

أرى هؤلاء البشر النحيلين الذين لا يمتلكون سوى الهيكل العظمي، ولا أعرف كيف أصف ملامح والدي!

ويسألني: «أأتذكر الملابس التي كان يرتديها والدك عندما جاء هنا؟».

أخبره قائلا: «البزة النظامية للسكة الحديدية، البزة النظامية الجديدة للسكة الحديدية».

«كم من الوقت مضى على حضورك؟».

«عام ونيف».

«رأيت بزة أخرى، ولم أر البزة النظامية للسكة الحديدية».

«ربما هناك أناس آخرون رأوا البزة النظامية للسكة الحديدية».

«أنا هنــا منذ فترة طويلة جــدا، ولم أر تلــك البزة، وكذلك الآخرون».

«ربما يكون بدّل ملابسه».

«قلة قليلة التي تبدل ملابسها وتأتي هنا».

«أشعر أنه موجود هنا».

«إذا لم تعثر عليه، فمن المحتمل أنه ذهب إلى القبر».

«ليس عنده قبر».

«لا يمتلك قبرا، ولا بد أنه ما زال هنا».

فــي تجوالي وتطوافــي بحثا عن والدي، أمشــي إلى أمام تينك الهيكلين العظميين بلا شــعور، وهما يجلســان الأربعاء على العشــب مثل تمثالين يركزان انتباههما على هذا النحو، وما زال جســداهما على حالهما، غيــر أن أياديهما تتحركان وتضطلعان بنقل قطع الشــطرنج بصورة مستمرة. لم أر رقعة الشــطرنج، ولم أر قطعة الشــطرنج أيضاً. ولكن رأيت فقط أياديهما التي هي عبارة عن هيكل عظمي تلعبان الشــطرنج، ولم أدرك –من خلال مشاهدتي– إذا ما كانا يلعبان الشطرنج أم يلعبان ويتشي[1].

هنــاك يــد ذات هيكل عظمي تضــع قطعة الشــطرنج تواً، وتأخذها أيضاً في الحال، ويمسكها بإحكام شديد يدان أخريان هيكلهما عظمي أيضاً. ويصيح صاحبا هاتين اليدين، ويقولان:

«لا يمكن القيام بمحاولة التراجع عن لعبة في الشطرنج».

كمــا يصرخ صاحب اليد ذات الهيــكل العظمي أيضاً ويقول: «أنت تحاول التراجع عن لعبة في الشطرنج أيضاً».

(1) نوع من الشطرنج الصيني. [المترجم]

«أنا تراجعت عن اللعبة لأنك فعلت ذلك من قبل».

«أنـــا تراجعت عـــن اللعبة من قبل لأنك فعلـــت ذلك من قبل كثيراً».

«أنا تراجعت عن اللعبة قبلك منذ زمن لأنك فعلت ذلك أمس».

«وأنـــت - أولاً- تراجعت عن اللعبة أمس، ثم أنا تراجعت عن اللعبة بعدك».

«وأنت تراجعت عن لعبتك أولاً في أمس الأول».

«ومن تراجع أولاً عن اللعبة قبل أمس الأول؟».

يتعـــارك هذان الشـــخصين بلا توقف، ويتبـــادلان الاتهامات بمحاولة كل طرف التراجع عن اللعبة في الشـــطرنج، ويتقصيان أسباب تلك الاتهامات، ويستهجن كل طرف طريقة حساب الزمن فـــي محاولة التراجع عن اللعبة في الشـــطرنج، وبدأت من عدد الأيام إلى عدد الشهور، ومن عدد الشهور إلى السنة.

يصرخ صاحبا اليدين من الهيكل العظمي: «هذه الطريقة في لعب الشـــطرنج لا يمكن أن تجعلك تتراجع عن اللعبة، وأنا كنت على وشك الفوز حالاً».

يقـــول أحدهما: «وأنا كنت على وشـــك التراجـــع عن اللعبة أيضاً».

«أنا لا ألعب معك الشطرنج».

«وأنا لا ألعب معك الشطرنج أيضاً».

«وأنا لا ألعب معك الشطرنج إلى الأبد».

«وأنا من زمن بعيد لا أحب أن ألعب معك الشطرنج».

«وأنا أخبرك بأنني أريد الانصراف، وأغشى المحرقة غدا، ثم أذهب إلى قبري».

«أعتزم الذهاب إلى المحرقة منذ زمن بعيد، وأرغب في الذهاب إلى القبر منذ زمن بعيد أيضاً».

أقطع شجارهما، وأقول: «أعرف قصتكما».

يقول أحدهما: «جميع البشر هنا يعرفون قصتنا».

يصحح الصاحب الآخر أقوال زميله، ويقول: «ربما الذين حضروا حديثا لا يعرفون قصتنا».

«قصتنا اختلط فيها الحابل بالنابل في الشوارع الرئيسة بسبب أن هؤلاء القادمين حديثاً لا يعرفوننا».

«قصتنا معلومة للجميع وتستخدم لغة ثقافتنا».

أقول: «كما أعرف أيضاً العواطف الودية بينكما».

«أي عواطف ودية وصداقة؟».

ينخرطان في نوبة ضحك صاخبة.

سأل أحدهما الآخر: «ما العواطف الودية؟».

يجيب الآخر: «لا أعرف».

يرفعان رأسيهما وهما ينهمكان في الضحك، ويحملقان في وجهي من تجويف عيونهما، وسألني أحدهما: «أأنت حضرت هنا حديثاً؟».

لم أقدم إجابة، ويبادرني الآخر، ويقول: «إنها تلك الروابط الجميلة».

يحني الهيكلان العظميان رأسيهما، ويستمران في لعب الشطرنج وهما يضحكان ويحدثان جلبة وضوضاء كأن لم يحدث بينهما عراك توا، ولم يحاول أي منهما التراجع عن لعبته في الشطرنج في الحال.

يلعبان الشطرنج فترة وجيزة، ويرفع أحدهما رأسه ويسألني: «أأنت تعرف اسم الشطرنج الذي نلعبه؟».

أحملق في حركات أياديهما في لعب الشطرنج، وأقول: «الشطرنج الصيني».

«خطأ، شطرنج ويتشي».

ثم يسألني الآخر: «أأنت تعرف اسم الشطرنج الذي نلعبه الآن؟».

أقول: «طبعا، إنه شطرنج ويتشي».

«خطأ، نحن نلعب الشطرنج الصيني».

ثم يسألني الهيكلان العظميان في آن واحد: «ما اسم الشطرنج الذي نلعبه الآن؟».

أقول: «ليس شطرنج ويتشي، إذن، يكون الشطرنج الصيني بالتأكيد».

يقولان: «خطأ أيضاً، نلعب الشطرنج الخماسي».

يضحك الهيكلان العظميان من قلبيهما، ويضطلعان بحركات متشابهة تماماً؛ حيث يمسك كل منهما بطنه بيده بإحكام، واليد الأخرى يضعها كل منهما بجوار كتف زميله. الهيكلان العظميان يهتزان بصورة مستمرة من قوة الضحكات مثل شجرتين جافتين يابستين تتقاطعان وتهتزان في خضم الريح.

ينهمك الهيكلان العظميان في لعب الشطرنج بعد نوبة الضحك والقهقهة، ولم يمض وقت طويل وما لبثت المشاحنات أن ظهرت بينهما بسبب محاولة التراجع عن لعبة الشطرنج، وشعرت أنهما يلعبان الشطرنج من أجل العراك والشجار، إنهما تاريخ تبادل الاتهامات في محاولات التراجع عن الألعاب في الشطرنج، وتكمن سعادتهما القصوى في إماطة اللثام عن مساوئ الآخر في التراجع عن لعبة في الشطرنج، ويتبادلان

الاتهامات منذ سـبع سـنوات خلت، وقد عيـل صبري، وأدركت أنني سـوف أنتظرهما سـبعة أعوام أو ثمانية في هذا العراك، ولذا قاطعتهما قائلاً:

«أنتمـا الاثنان: من منكما يدعى (تشـانغ غانغ)؟ ومن يدعى (لي)؟»، وترددت قليلاً، وشـعرت بأنه ليس من المناسب أن أقول (الرجل لـي) كما ذكرت الصحف وقتئذ، ثم أقول: «من المسـتر (لي)؟».

«من المستر (لي)؟».

بعد أن يتبادلا النظرات، ينخرطان في نوبة قهقهة وضحك.

ثم يقولان: «أنت تخمن من (لي)؟».

أتفرس في وجهيهما بدقة، وهيكلاهما العظميان متشـابهان تماماً، وأقول: «لا أستطيع التخمين، أنتما تشبهان التوأمين».

«توأمان؟».

ينهمك الهيـكلان العظميان في نوبة قهقهـة مرة أخرى، ثم يسـتأنفان لعب الشـطرنج في انسـجام تام، وتبددت كالدخان المشـاحنات التي نشـبت بينهما كالعاصفة الرعديـة توا والتي قاطعتها، ثم يعـودان إلى ألاعيبهما القديمة، ويسـألني: «أأنت تعرف الشطرنج الذي نلعبه؟».

أقول في نفس واحد: «الشـطرنج الصيني، شطرنج ويتشي، الشطرنج الخماسي».

يقولان: «خطأ، نحن نلعب لعبة الداما الصينية[1]».

ينخرطـان في نوبة ضحكات عالية مرة أخرى، وأنظر إليهما مرة أخرى، وأجدهما يقومان بالحركات نفسـها حيث يمسك كل

(1) رقعة شطرنج من حجر الداما. [المترجم]

منهمـــا بطنه بيده بقوة، ويضع كل منهما يده الأخرى بجوار كتف زميله، ويهتز الهيكلان العظميان بإيقاع منتظم.

وأنخرط في الضحك أيضاً، ومنذ عشر سنوات خلت، حضرا إلى هنا وتفصل بينهما نصف ســنة، والعــداوة بينهما لا تتجاوز الخــط الفاصل بــين الحياة والموت، إنها العــداوة التي تعرضت للإعاقة في عالم هذه الدنيا.

* * *

أدور فـــي حلقة مفرغة مــن جهودي الرامية إلـــى البحث عن والدي، ويشبه ذلك عقارب الساعة التي تدور دورة تلو الأخرى ولا تتجاوز نطاق الساعة البتة. وأنا أيضاً لا أعثر على والدي أبدًا.

قابلت ثللاً من البشر من ذوي الهياكل العظمية مرات عديدة، وهناك العشرات الذين لا يشــبهون الهياكل العظمية، يجتمعون ويتكتلون حيناً، ويتفرقون ويتبعثرون أحياناً أخرى، ويمشــون في دائرة مســتديرة فــي نهاية المطاف. وذلك مثل الماء فوق ســطح القمــر، وأياً كانت حركة المد والجزر بــين الأمواج، فإن القمر - دائماً وأبداً - يتهادى وكروي الشكل.

تسمرت أقدامي عندما قابلتهم في المرة الرابعة، كما تسمرت أقدامهــم أيضاً، ونتبــادل النظرات الفاحصــة المتأملة، وتتعانق أياديهم وتتلاحم أجسادهم، ويتجمعون سوياً مثل شجرة ضخمة ناضــرة، وفروعها متباينة تتفــاوت في الارتفــاع والانخفاض. وأدرك أنه يوجد بينهم رجال ونســاء، وعجائز وأطفال، وأبتسم في وجوههم، وأخاطبهم قائلاً:

«أهلاً بكم!».

«أهلاً بك!».

ســمعتهم يجيبــون بصوت واحــد، وهناك أصــوات للرجال والنســاء، وأصوات هرمة، وأصوات غضة، كما شــاهدت بوادر الضحك تتبثق من داخل تجويف عيونهم.

وسألتهم: «كم عددكم؟».

ما زالوا يجيبون بصوت واحد: «ثمانية وثلاثون فرداً».

وأواصل أسئلتي: «لماذا أنتم مترافقون معاً دائماً؟».

يجيب صوت رجل: «حضرنا هنا معاً».

صوت نسوي يكمل الكلام: «نحن أسرة واحدة».

ينبثق من بينهم صوت طفل، ويقول: «لماذا أنت بمفردك هنا؟».

أحني رأسي وأرنو إلى الشريط القماشي الأسود على ذراعي، وأقول: «لست وحيداً هنا، أنا أبحث عن والدي الذي يرتدي البزة النظامية للسكة الحديدية».

كما ينبثق صوت من بين جماعة من الهياكل العظمية أمامي، ويقول: «لم نر رجلاً يرتدي البزة النظامية للسكة الحديدية».

أقول: «ربما بدل ملابسه وجاء إلى هنا».

كمــا يدوي صوت عذب لطفلة، وتقــول: «بابا، هل هو حضر حديثاً؟».

تقول أصوات الرجال: «نعم».

تســتمر الطفلة في التســاؤل، وتقول: «مامــا، هل هو حضر حديثا؟».

تقول أصوت النساء: «أجل».

أسأل الطفلة: «هل هم جميعاً آباء وأمهات؟».

تجيــب الطفلة: «نعم، في الماضي كان عنــدي أب وأم، والآن عندي الكثير من الآباء، والعديد من الأمهات».

وسألني الطفل توا: «لماذا حضرت إلى هنا؟».

أجيب: «بسبب كارثة حريق».

يسأل الطفل الهياكل العظمية بجواره: «لماذا لم تحرقه النار؟».

أشعر بأنهم يحملقون في صمت تام، وأقدم شرحاً لذلك، وأقول: «عندما رأيت اندلاع النار، وسمعت صوت الانفجار يدوّي، يبدو أن المباني السكنية انهارت».

تسأل الطفلة: «أأنت لقيت حتفك تحت الأنقاض؟».

«ربما».

يقول طفل: «وجهك تحرك من مكانه».

«أجل».

تسألني الطفلة: «هل نحن جميلون؟».

أشعر بالارتباك وأحدق في الهياكل العظمية الواقفة أمامي وعددها ثمانية وثلاثون هيكلاً عظمياً، ولا أعرف كيفية الإجابة على سؤال الطفلة الواضح.

تقول الطفلة: «يقول البشر هنا إننا نزداد جمالاً أكثر فأكثر».

يقول الطفل: «نعم نزداد جمالاً هكذا، ويقولون إن البشر الذين يأتون هنا يزدادون قبحاً يوماً بعد يوم، غير أننا نزداد جمالاً أكثر فأكثر».

أتردد هنيهة، وأستطيع فقط أن أقول: «لا أعرف».

صوت عجوز يدوي بين صفوفهم، ويقول: «لقد احترقت أجسادنا في كارثة الحريق، والذين جاؤوا هنا يشبهون ثمانية وثلاثين عموداً من الفحم، ثم تساقطوا قطعة قطعة بعد حرقهم، وبدوا للعيان في منظرهم الحالي. ولذا البشر هنا يتفوهون بمثل تلك الكلمات».

يشــرح ذلك العجوز لي معاناتهم، ويســمع الســبعة والثلاثون الآخرون إلى حديثه في صمت مطبق. وأنا أعرف أصلهم وفصلهم، وفي ذاك اليــوم الذي انصرف فيه والدي بلا اســتئذان، اندلعت النيــران بصورة فجائية فــي متجر ضخم يقع علــى بعد أقل من كيلــو متر من الحانوت الصغير الذي كنت أمتلكه، وتحوّل لون ذلك المتجر مــن اللون الفضي الرمادي إلى اللون الأســود الفاحم مثل الفحــم النباتي. وذكرت الإدارة البلدية أن ضحايا الحريق ســبعة أشخاص، والجرحى بلغ عددهم واحداً وعشرين مصاباً، من بينهم اثنــان إصابتهما بالغة. ويذكر أناس على شــبكة الإنترنت أن عدد الضحايا تجاوزالخمسين، بينما يرى آخرون أن العدد تجاوز المئة. أرنو إلى الهياكل العظمية الواقفة أمامي وعددهم ثمانية وثلاثون، وقد حسموا من أعداد الضحايا، ولكن أين أقاربهم؟

أقول: «لماذا اختفى أقرباؤكم أيضاً؟».

يجيب الرجل العجوز: «تعرضوا للتهديد، وحصلوا على أموال مقابل تكميم أفواههم، ولقد رحلوا عن الدنيا، ولم يبق هناك إلا الأقارب الأحياء يســتطيعون أن يعيشــوا حياة هادئة ومطمئنة، ولذا نشعر بالرضا».

«أين الأطفال؟ وآباؤهم وأمهاتهم..».

يقاطع العجوز كلامــي ويقول: «الآن نحن آباء وأمهات لهؤلاء الأطفال».

وبعــد ذلك يمــرون أمامي في صمــت مطبق، وأجســامهم متلاصقة ومتلاحمة، وأياديهم يســحب بعضها بعضاً، ويسيرون في دائرة مستديرة، ولا تستطيع ريح عاتية أن تفرق شملهم.

* * *

أشاهد شخصين جســداهما في حالة سليمة، ويخرجان من غابة أشــجار التوت ذات الأغصان المتشــابكة والظلال الوارفة في ذاك الجانب. إنهما رجل وامرأة في لباســيهما ومداســيهما البســيط، ولا شيء يستحق الذكر على جســديهما سوى قطعة قماش ليســت بملابس، بل هي غطاء للجسد. وعندما يقتربان أرى بجلاء امرأة ترتدي ســروالاً نســوياً تحتانياً قصيراً أسود، وصدارة، أما الرجل فيرتدي بنطالا قصيراً أزرق. ترتســم على وجه المرأة أمارات الرعب والخوف، وتجمع شتات قوتها وتمشي، وتضــع يديها على فخذيهــا كغطاء لهما. والرجــل يحني ظهره ويسحبها على طول الطريق ويقوم على حمايتها.

يمشــيان ويصــلان أمامي، ويتفرســان معالــم وجهي وكأن نظراتهما تبحث عن معالــم مألوفة في ذاكرتهما. ورأيت علائم اليأس تعلو وجهيهما رويدا رويدا، ويؤكدان أنهما لا يعرفانني.

يسألني الرجل: «أأنت حضرت حديثاً؟».

أومئ برأســي وأســألهما: «هل أنتما حضرتما حديثاً، وهل أنتما زوجان؟».

يطأطئان رأســيهما في آن واحد، وتصدر المــرأة صوتاً يثير الشفقة والعطف، وتقول: «هل شاهدت ابنتنا في ذاك الجانب؟».

أهــز رأســي، وأقول: «هناك أمــواج من البشــر، ولا أعرف ابنتكما».

المرأة تنكس رأســها في حزن وألم، والرجل يربت على كتفها ويواسيها قائلاً: «لا يزال هناك أناس حضروا حديثاً».

المــرأة تكرر ما ذكرته تواً: «ولكن هناك أمواج من البشــر في ذاك الجانب».

يردف الرجل قائلاً: «دائماً يكون هناك من حضر حديثاً ورأى ابنتك شياو ميي».

«شـياو ميي؟» أشـعر بأنني سـمعت هذا الاسـم من قبل. وأسألهما: «متى حضرتما إلى هنا؟».

رهبـة خوف رفت علـى وجهيهما، ويعد ذلـك بمثابة ظلهما تسلل إلى هنا بعد أن اجتاز عالم هذه الدنيا. وعيونهما تتحاشى نظراتي، وربما الدموع تخفي نظراتي.

بعد ذلك، يشـرح الرجـل قصة تلك المعانـاة المخيفة، ويقول إنهمـا يقطنان في طريق (شـينغ فـه)، وتعتـزم الإدارة البلدية إزالـة تلك المباني السـكنية الثلاثـة، ويرفـض قاطنوها قرار الإزالة والانتقال إلى مسـكن آخر، ويتحـدون الإزالة والانتقال لمدة ثلاثة شـهور وأكثر، وفي ذاك الصباح المخيف شـهد حملة التنفيذ القسـري لقرار الإزالة. وهما زوجان (زوج وزوجة) بعد أن انتهيـا من الـدوام الليلي، يعودان أدراجهمـا إلى بيتهما في الصبـاح الباكر، ويوقظان ابنتهمـا، ويجهزان لها طعام الإفطار، وتحمل الحقيبة المدرسـية وتغشـى المدرسـة، وهما يغطان في نوم عميق. وسـمعا في نومهما صوتاً تحذيرياً من مكبر الصوت في الخارج، وهما يشـعران بالإرهـاق والتعب، وظلا في نومهما العميق، وقبل ذلك، كانا سمعا صوتاً تحذيرياً من مكبر الصوت، وشـاهدا وضعية الجرافة على أتم الاسـتعداد، وعلى كل حال، بعـد أن حدثت مجابهة مع قاطنـي المباني، يتراجع صوت المكبر وتتصـرف الجرافـة، ومن ثـم دار بخلدهمـا أن مكبر الصوت والجرافـة يهدفـان تخويفهما، ويواصـلان انهماكهما في النوم العميق. واستمرت هذه الحال، حتى دوى صوت عنيف من جراء

اهتزاز المباني السـكنية، واستيقظا من نومهما مذعورين، وهما يقطنان في الطابق الأول، ويقفز الزوج من الفراش ويجر زوجته ويتجهان نحو البـاب ويهربان، الزوج يفتح باب الغرفة، والزوجة تدير جسمها فجأة وتهرول إلى الأريكة وتأخذ ملابسها، والزوج يعود مسرعاً إليها ويجرها إلى الخارج، وتحدث المباني السكنية هديراً وتنهار.

الزوج الذي يسـرد القصة صوته يتوقف بصورة فجائية عند هذا الحد، ويدوي صوت انتحاب وبكاء الزوجة.

«أسفاً ومعذرة، أنا آسفة..».

«لا تتفوهي بمثل تلك الكلمات».

«يجب عليّ ألا آخذ ملابسي..».

«فات الأوان، لا تأخذي ملابسك، فالوقت لا يتسع أيضاً».

«إذا لم آخذ ملابسـي فأنت لا تعود إليّ مهرولاً، وتسـتطيع الفرار إلى الخارج».

«ألوذ بأذيال الفرار في الخارج، وماذا أنت تفعلين؟».

«أنـت تلوذ بالفرار إلى الخارج، فإن والد شـياو ميي ما زال على قيد الحياة».

عرفـت من ابنتهمـا، إنها الطفلة التي ترتـدي معطفاً أحمر محشواً بريش الطير وتجلس في ركام خرابة الخرسانة المسلحة، وتؤدي واجباتها المدرسية في الرياح الباردة، وتنتظر عودة أبويها. وأخبر الزوج والزوجة قائلاً: «لقد رأيت ابنتكما، واسـمها جينغ شياو ميي».

يصيحان في آن واحد، ويقولان: « نعم، اسـمها جينغ شـياو ميي».

أقول: «وهي تدرس في الفرقة الرابعة بالمدرسة الابتدائية».

يقولان: «أجل»، ثم يسألان في عجالة: «كيف عرفتها؟».

أخاطـب الزوج قائلاً: «كانت بيننـا مكالمة هاتفية، وأنا المعلم الذي كان يقوم بالتدريس المنزلي لابنتك».

«أأنت المعلم يانغ؟».

«نعم، أنا يانغ فيي».

الزوج يخاطب زوجته: «إنه المعلم يانغ، وقلت له إن دخلنا ليس كثيراً، وهو وافق في الحال أن يقوم بالتدريس مقابل ثلاثين يوانا فقط لكل ساعة».

تقول الزوجة: «أشكرك».

أسمع هنا صوت الامتنان والشكر وأضحك ضحكة صفراء.

يسألني الزوج: «وأنت كيف حضرت إلى هنا أيضاً؟».

أجيب: «كنت جالسـا في مطعم، وحـدث انفجار بعد اندلاع النيـران في المطبخ، وأنا وأنتمـا جئنا هنا في نفس اليوم، وكنت متأخرا عنكما ببضع سـاعات. واتصلت بهاتفك الخلوي وأنا في المطعم، وأنت لم تستقبل المكالمة».

«لم أسمع رنين الهاتف الخلوي».

«أنت كنت تحت الأنقاض آنذاك».

الزوج يحدق في وجه زوجته، ويقول: «نعم، ربما تحطم الهاتف الخلوي أيضاً».

تسأل الزوجة في عجالة: «كيف حال ابنتي شياو ميي؟».

«اتفقنا علـى أن أذهب إلى بيتكما في السـاعة الرابعة بعد الظهـر، وعندما وصلـت وقتئذ، لـم أر أثراً للمباني السـكنية الثلاثة..».

وبعد ترددي، لم أخبرهما بإخفاء حقيقة الضحايا في حادث الإزالة القسرية للمباني في طريق (تشينغ فه) حيث كانا يقيمان هناك، وفكرت أنه تمت فبركة قصة أنهما الزوج والزوجة اللذان ماتا في آن واحد من أجل الواجب والصالح العام، وأن ابنتهما تحصل على علبة وفاتهما المعبأة بركام عظام آخرين، ثم تنمو وتشب عن الطوق وسط أكذوبة جميلة.

تسأل الزوجة مرة أخرى: «كيف حال شياو ميي؟».

أجيب: «في حالة جيدة جداً، إنها أذكى طفلة رأيتها، وأنتما تستطيعان الشعور بالطمأنينة، وهي قادرة على القيام برعاية نفسها بصورة جيدة».

تقول الزوجة وقلبها يعتصر حزناً: «عمرها أحد عشر عاماً فقط، وكل مرة تغشى المدرسة، تتسمر أقدامها عند عتبة الباب، وتنادي بابا.. ماما، وتنتظر حتى نرد عليها، ثم تقول: أذهب إلى المدرسة، وتنتظر مرة أخرى حتى نسمح لها بالخروج، آنذاك تستطيع أن تدلف إلى المدرسة».

يسأل الزوج: «ماذا دار بينك وبين ابنتي من أحاديث؟».

تذكرت أنني سألتها إذا كانت تشعر بالبرد أم لا في خضم الريح الباردة، وقالت إنها تشعر بقساوة البرد جداً، وطلبت منها أن تذهب إلى مطعم كنتاكي في مكان ليس بعيداً وتؤدي واجباتها المدرسية حيث تشعر بالدفء داخله، وتهز رأسها وتقول عندما يعود بابا وماما لا يستطيعان العثور عليّ، وهي لا تعرف أن أبويها تحت ركام أنقاض المباني.

وبعد ترددي مرة أخرى، أخبرتهما بذلك كله، وقلت أخيراً: «إنها تجلس فوق أشلائكما».

وشاهدت دموعهما تتدحرج في صمت مطبق على وجهيهما، وأدركـت أنها دموع لا تعرف الجفاف. كما تحجرت الدموع في عيوني، وأستدير بجسـمي بسرعة وأنصرف، وبعد أن قطعت شوطاً قصيراً من الطريق، وكان صوت البكاء خلف ظهري مثل تدفق مياه البحيرة يحاول اللحاق بي بسـرعة، وأسـمع صوت بكائهمـا كأن ثلة من الأفراد تبكي. ويبدو أنني شـاهدت مياه البحيـرة تدفع تلك الطفلة التي ترتدي معطفاً أحمر محشـواً بريـش الطير إلى شـاطئ رملي، وبعد تراجع ميـاه البحيرة، وصلت هذه الطفلة بمفردها إلى طريق مسدود هناك في هذه الدنيا.

وشاهدت في عالم الآخرة مأدبة ضخمة. وعلى قطعة أرض من الأعشاب العطرية تنمو أشجار الفواكه المثمرة اليانعة، والخضار في ازدهار مطـرد، ومياه النهر تخر خريـراً مثل جدول يترنم. ويجلس الموتى كل واحد على انفراد في شـكل دائرة مسـتديرة فـوق تلك الأعشـاب كأنهم يجلسـون في حلقة حـول طاولات وليمة، وحركاتهم متعددة الألوان والأطياف، بعضهم يدفن رأسه ويلتهـم الطعام، وبعضهم يتذوق الطعـام ببطء، وبعضهم ينهمك في تجاذب أطراف الحديث، وبعضهم يدخن السـيجار ويحتسي الخمر، وبعضهم يرفع الـكأس عالياً ويتبادل الأنخاب، وبعضهم يتحسـس بطنه بعد تناول الطعام.. كما شاهدت كوكبة من ذوي الأجسـام السـليمة، فضلا عن ثلة من ذوي الهيـاكل العظمية يقومـون بحركات مكوكية بين هؤلاء الموتى، ويدلفون إلى الخارج وهـم يحملون الأطباق علـى راحات أياديهـم، ويصبون الخمر، وأدركت أنهم النُّدل يقومون على خدمة الموتى.

أدلف إلى المأدبة، ويستقبلني إنسان لم يبق منه سوى الهيكل العظمي، ويخاطبني قائلاً: «نرحب بحضوركم في مطعم تان جيا جين».

أصابتني الحيرة والدهشة عندما سمعت هذا الصوت الذي يشبه صوت الفتاة ويقول أطباق مطعم تان جيا جين، ثم سمعت صوتاً غريباً ينادي اسمي:

«يانغ فيي».

تساير نظراتي امتداد الصوت، وأرى صاحب المطعم (تان جيا جين) يخرج مسرعاً بخطوات عرجاء، وتضطلع يده اليمنى بحركة كأنه يحمل طبقاً على راحة اليد، وشاهدت علائم السرور والبهجة على وجهه؛ إنها تعابير الفرحة والغبطة التي لم أشاهدها في عالم الممات ذلك، وعندما قابلني يضحك في وجهي ضحكة صفراء. يمشي ويتقدم أمامي، ويقول في فرح وسرور:

«يانغ فيي، في أي يوم حضرت إلى هنا؟».

أجيب: «أمس».

«حضرنا منذ أربعة أيام خلت».

وعندما يتحدث (تان جيا جين) تكون يده اليمنى في وضعية حمل طبق على راحة اليد.

ويدير رأسه وينادي زوجته وابنته وصهره، ينادي أسماءهم بصوت عال، وينقل إليهم فرحته وغبطته، ويقول:

«حضر يانغ فيي».

شاهدت زوجة تان جيا جين وابنته وصهره يقبلون نحوي، وحركات أيديهم في وضعية حمل الأطباق وزجاجات الخمر. ويخاطبهم تان جيا جين قائلا:

«أطباق تان جيا تبدأ البيعة الأولى اليوم، لقد حضر يانغ فيي اليوم».

يمشـــون حتى يصلوا أمامي، ويرمقونني بنظرات فاحصة من رأســـي إلى أخمص قدمي، ووجوههم ضاحكة، وتقول زوجة تان جيا جين: «يبدو أنك أصبحت نحيفاً بعض الشيء».

يقـــول تان جيـــا جين مغتبطـــا : «ونحن نحفاء أيضـــاً، الذين حضروا هنا تصيبهم النحافة يوماً بعد يوم، فالناس هنا قوامهم ممشوق».

وتسألني ابنة تان جيا جين: «لماذا حضرت إلى هنا أيضاً؟».

أجيب: «ليس عندي قبر، وأنتم؟».

تـــرف على وجه تان جيا جين بادرة من الحزن والألم، ويقول: «أقاربنا في مقاطعة شـــاندونغ، وربمـــا ما زالوا لا يعرفون ما آل إليه مصيرنا».

تقول زوجة تان جيا جين: «نحن أسرة واحدة نقيم هنا معا».

علائـــم الســـرور والبهجة تعود إلى وجه تـــان جيان جين مرة أخرى، ويقول: «حقاً، نحن أســـرة واحدة، وأفراد أسرتنا يقيمون معاً».

أسأل تان جيا جين: «هل بترت ساقك؟».

يقول ويدوي صوت قهقهة في الآفاق: «أمشـــي بســـرعة أكبر بعد قطع ساقي».

في هذه الأثناء يدوي صوت مناداة: «أطباقنا، وخمرتنا..».

يســـتدير تان جيا جين بجســـمه، وينادي نحـــو ذاك الجانب قائلاً: «تعالوا».

ما زال تـــان جيا جين في وضعية اليـــد اليمنى تحمل طبقاً،

ويذهب إليهم مســرعاً بخطوات عرجاء. وزوجته وابنته وصهره فــي وضعية حمل الأطباق في راحات أياديهم وزجاجات الخمر، ويذهبون إلى ذاك الجانب مسرعين.

تان جيا جين عندما يتقدم نحوهم، يلف رأسه ويسألني: «ماذا تأكل؟».

«ما زالت أحب سلطانية الشعيرية».

«حسنا».

عثـرت على مقعـد، وأجلس على أرض عشـبية، وشـعرت بأنني أجلس على الكرســي تماماً. ويجلس أمامي هيكل عظمي، ولا تصدر عنه ثمة حركة ســوى صب الخمر، وليس في وضعية التقاط الخضار بعيدان الطعام، ويحدق في الشـريط القماشي الأسود على ذراعي من تجويف العينين.

وشـعرت بأن ملابسـه غريبة؛ حيث يرتدي ملابس سوداء فضفاضة ولا يوجد لها أكمـام، وتظهر أذرع ومناكب الهياكل العظمي، ولونها قاتم بعد أن تعرضت للريح ولوحتها الشـمس سنة بعد ســنة، والملابس السوداء لم يتبق منها سوى شرائط علــى جانبي المنكبـين، ويبدو أن الكمين قـد تعرضا للتمزيق أيضاً.

نتبادل النظرات، ويبادرني بالكلام: «في أي يوم حضرت؟».

أقول: «في اليوم الخامس، وحضرت هنا أمس».

يرفع كأس الخمر ويحتسيه حتى آخره، وبعد أن يضع الكأس، يتخذ وضعية صب الخمر. ويتنهد قائلاً: «أنت وحيد هنا».

أنكس رأســي وأحملق في الشـريط القماش الأسـود على ذراعي.

ويقول: «ونعرف أنك تضع شـريطا قماشيا على ذراعك، جاء إلى هنا بعض المتهورين المنعزلين، ولم يضعوا شـرائط قماشـية سـوداء على أذرعتهم، وأبـدوا إعجابهم عندمـا رأوا الآخرين يضعون مثل تلك الشـرائط على أذرعتهم، ومن ثم جاؤوا يلفون ويدورون حولي، ويطلبون مني أن أمزق قطعة من كمي وأعطيهم إياها ويجعلونها شريطا قماشيا أسود تعبيرا عن الحداد».

ويفتر ثغري عن ابتسـامة خفيفة عندما أشاهد أذرع ومناكب ذلك الهيكل العظمي بارزة للعيان في الخارج، ويتخذ وضعية رفع كأس الخمر واحتسائه حتى آخره، ثم ينزل الكأس.

يشـير بيده ويقول: «أكمامي كانت طويلة جداً أصلا وتتجاوز أصابعي، والآن أنظر إلى منكبيّ عاريين تماما».

أسأله: «وأنت، أنت لا تحتاج إلى شريط قماشي أسود؟».

يقـول: «أقاربي فـي ذاك الجانب، ربما أصبحـت في دائرة النسيان لديهم».

يضطلـع بوضعية تنـاول زجاجة الخمر ويصـب الخمر في الكأس، وتدل حركاته على أنه آخر كأس، كما يضطلع مرة أخرى بوضعية احتساء الخمر حتى آخر نقطة.

يقول: «خمر لذيذ جداً».

أسأله: «ما نوع الخمر التي تشربها؟».

يجيب: «خمر الرز الأصفر».

«ما الماركة التجارية لخمر الرز الأصفر؟».

«لا أدري».

أبتسم، وأسأله: «كم مضى من الوقت على قدومك هنا؟».

«نسيت».

«إذا نسيت، إذن، أنت حضرت منذ ردح طويل».

«فترة طويلة جدا».

أقول فكرة جالت في خاطري ومشاعري بصورة فجائية: «أنت هنا يجب أن تكون مجرباً وخبيراً، وواسع المعرفة، وأطلب الاستشارة منك في مشكلة ما، كيف أشعر بأن الخلود يكون بعد الموت».

يحملق في وجهي بتجويف العينين، ولم يفه بحرف.

أقول: «لماذا نغشى أرض الراحة الأبدية بعد الموت؟».

يبدو أنه يبتسم، ويقول: «لا أدري».

أقول: «أنا لا أفهم لماذا أحرق جسدي حتى يصبح علبة رفات صغيرة؟».

يقول: «هذا قانون».

وأسأله: «أحصل على الراحة الأبدية إذا كان لدي قبر، وأعيش الحياة الأبدية إذا أفتقر إلى قبر، ما رأيك أيهما أفضل؟».

يجيب: «لا أدري».

ثم يلتفت التفاتة، وينادي: «أيها النادل، أحضر فاتورة الدفن».

تأتي نادلة من ذوات الهيكل العظمي وتقول: «خمسون يوانا».

يضطلع بوضعية وضع خمسين يوانا على الطاولة، وبعد أن يومئ برأسه نحوي، ينهض واقفاً، وحينما ينصرف، يخاطبني قائلا:

«أيها الغلام، لا تقدح زناد ذهنك كثيرا في مناقشة تلك الموضوعات».

لم أتمالك نفسي عن أن أتذكر خنفساء عندما شاهدت الملابس السوداء الفضفاضة ومنكبيه العظميين الرقيقين جداً.

وينأى شبحه رويدا رويدا، ويتلاشى وسط الهياكل العظمية الأخرى. ويأتي صهر (تان جيا جين)، ويداه في وضعية حمل السلطانية على راحة اليد، ويدي اليمنى في وضعية تناول عيدان الطعام، ثم وضعية الانتهاء من تناول رشفة من الشعيرية، وأخيراً وضعية تذوق طعم الشعيرية وأشعر بأن طعمها يناظر مثيله في العالم الذي رحلنا عنه.

أدركت أن كافة الأصقاع تغص بأصوات البهجة والسرور والضحك، ويتناولون أطايب الطعام والشراب في بهجة وسرور، وفي الوقت نفسه يعدودن بسرور المثال تلو الآخر في عالم الممات ذلك من الأرز المسموم، واللبن المسموم، وخبز المانتو المسموم، والبيض المغشوش، واللبن المصنوع من بروتين الحيوانات[1]، والمعكرونة المصنوعة من الجبس، والمواد الكيماوية في طبق الإحماء[2]، وجبن فول الصويا من البراز، والصبغة الكيماوية الحمراء[3]، وزيت الأحواض المنعزلة[4].

(1) إشارة إلى الفضيحة العارمة التي اجتاحت كافة أرجاء الصين في عام 2011 والتي أطلق عليها: «أزمة الثقة في اللبن الصيني» بعد كشف النقاب عن عدد من شركات الأغذية تقوم بنزع البروتين من جلود الحيوانات، وتصنيف تلك البروتينات المنحلة بالماء إلى لبن الأطفال المغشوش أصلاً بتعويض نسبة البروتين المتدنية، مما أدى إلى تسرب السموم إلى ألبان الأطفال الذين لقي عدد كبير منهم حتفهم من جراء ذلك. [المترجم]

(2) طبق الإحماء: جهاز مؤلف من طبق معدني تحته مصباح أو مسخن. [المترجم]

(3) يشير إلى عنصر صباغ ملون كيماوي يسمى (Tonyred) تستخدمه المطاعم الكبرى في الصين، ناهيك عن المطاعم الأجنبية مثل كنتاكي، كمادة إضافية للأغذية وإضفاء اللون الأحمر الفاتح على مكونات بعض الأغذية. وتم اكتشاف استخدام هذا العنصر المميت في صلصلة الفلفل لأول مرة في الصين عام 2005. [المترجم]

(4) إشارة إلى جميع الأنواع الرديئة من الزيت في الحياة مثل إعادة استخدام زيت القلي. والمصدر الرئيسي للحصول على هذا الزيت هو أحواض الزيت المنعزلة في مواسير الصرف الصحي لدى المطاعم الكبرى في المدن الصينية، واستخدامه لمدة طويلة يسبب مرض السرطان. [المترجم]

ويمتدحون الطعام والشـــراب هنا وســـط أصوات الضحكات المشرقة، وســـمعت تتدفقا من أفواههم تباعاً مثل تلك الكلمات: طازج، طعام شهي، صحي.

صـــوت يقـــول: «في الصين كلهـــا يوجد فقط مكانـــان المواد الغذائية فيهما آمنة وصالحة».

«ما هما؟».

«أحدهما هنا».

«وأين المكان الآخر؟».

«المكان الآخر هو المأدبة الحكومية في ذاك الجانب».

يقـــول أحدهم: « كلامك صائب، نحن هنا نســـتمتع بالمعاملة الحسنة من الأكل والشراب في المأدبة الحكومية».

وعندما ابتسم، تكتشـــف نفسي أنني لست في وضعية تناول الشـــعيرية، وأدركت أنني انتهيت فعلا من تناولها، واسمع وقتئذ شخصا بجواري يصيح وينادي:

«كشف حساب الدفن».

يأتي النـــادل ذو الهيـــكل العظمي، ويخاطبه قائلا: «ســـبعة وثمانون يوانا».

يخاطب النادل قائلاً: «أعطيك ورقة مالية فئة مئة يوان».

يقول النادل: «أرد إليك ثلاثة عشر يوانا».

يقول: «أشكرك».

وعملية الحســـاب كلهـــا عبارة عن حـــوارات، ولا توجد ثمة أفعال البتة، وفي هذه الأثنـــاء، يتقدم نحوي تان جيا جين بخطواته العرجاء ويده في وضعية حمل الطبق، وأدركت أنه يهدي إلي طبق الفواكه، ومن ثم تهيأت في وضعية تلقي الطبق. ويجلس أمامي، ويخاطبني قائلا:

«فواكه طازجة تم قطفها تواً».

بدأت التهيؤ لوضعية أكل الفواكه، وشعرت بأنها حلوة وطازجة ولذيـذة وعطرة، وأقـول: «مطعم تان جيا جين يبـدأ البيع مرة أخرى بسرعة».

يقـول: «لا توجد هنـا إدارات: الأمن العـام، والحماية من الحريق، والصحة، والصناعة، والتجارة، والضرائب، وأسسـت مطعماً في ذاك الجانب، وجمعية الحماية من الحرائق تماطل فـي إنهاء إجراءات التأسـيس منذ عـام أو عامين وتزعم أن مطعمي يداهمه خطر كامن من اندلاع كارثة حريق، أما جمعية الشـؤون الصحية فتسوف التشـغيل لمدة عام أو عامين أيضاً وتدعي أن الظروف الصحية ليسـت على المسـتوى المطلوب. ونضطر إلى أن نرسـل إليهما المال والهدايا حتى يسمحوا لنا بتشغيل المطعم».

ويسألني باضطراب في التو: «هل تكرهنا؟».

«لماذا أكرهكم؟».

«لقد قمنا باحتجازك في الغرفة».

تذكرت المشـهد الأخير في ذاك العالم، وعيون تان جيا جين تحملق في وجهي وسط تصاعد أعمدة الدخان، وينادي ويصرخ من أجلي.

أقول: «يبدو أنك ما زلت تصرخ وتناديني».

يرسـل زفرة ويقول: «كنت أطلب منك أن تهرب بسـرعة، لم نعترض طريق أحد وإعاقته سواك».

أطأطئ رأسـي، وأقـول: «أنتم لـم تعيقوني عـن الهرب أو حبستموني، بل أنا لم أنصرف من المطعم».

لم أخبره شيئاً عن تلك الصحيفة فوق الطاولة والأخبار التي نشـرتها حول انتحـار زوجتي لي تشـينغ،لأن الحديث في هذا الموضوع يحتاج وقتاً طويلا.

وربما سأخبره بذلك بلا كلل أو ملل في لحظة ما في المستقبل.

ما زال تان جيا جين يعض أنامل الندم، ولا يستطيع أن يجد الراحة لنفسه، ويشرح لي أسباب اندلاع الحريق في المطبخ، واعتراضهم سبيل خـروج الزبائن من الباب إلا بعد دفع حسـاب المأكولات، وأضاف أن الدخل من تشغيل مطعمه أقل من المصروف لمدة ثلاث سنوات ونيف.

يقول: «لقد أصابني الدوار، ألحقت أضراراً بنفسي وبأسرتي، كما سببت لك ضيرا أيضا».

أقول: «لا بأس من حضورك هنا، والدي هنا أيضاً».

يصيح تان جيا جين قائـلا: «هل والدك هنا، لماذا لم يحضر معك؟».

أجيب: «لم أجده بعد، ولكن أشعر بأنه موجود هنا».

يقول تان جيا جين: «بعد أن تعثر على والدك، تصحبه وتأتي لزيارتنا بالتأكيد».

أقول: «أقوم بمرافقته ونأتي هنا».

تان جيا جين يجلس أمامي فترة قصيرة، ولم يعد عابس الوجه، بـل يغص وجهه بالابتسـامات. وينهض اسـتعداداً للانصراف، ويكرر على مسـامعي مرة أخرى: «بعد أن تجـد والدك ترافقه وتأتي هنا بالتأكيد وتتذوق طعامنا».

ثم أدفع الحسـاب، وأسـمع صوت امرأة ذات هيكل عظمي، وأعتقـد أنها النادل الذي حصل النقود تـواً في مطعم تان جيا جين، وتخاطبني قائلة:

«سلطانية الشـعيرية ثمنها أحد عشـر يوانا، وطبق الفواكه هدية منا».

أقول: «أعطيك ورقة مالية فئة عشرين يواناً».

تقول: «أرد إليك تسعة يوانات».

ما يحدث بيننا عبارة عن حوارات ولا توجد أفعال وعندما كنت أهم بالانصراف سمعت تلك المرأة تقول بحرارة خلف ظهري: «شكراً على حضوركم! مرحبا بكم في المرة القادمة!».

* * *

يوجد هيكل عظمي يضع على كمه شـريطا قماشـيا أسـود ويمشـي أمامنا قبالة غابة من البامبـو الأخضر الوافر، ولفتت انتباهـي فتحة مسـتديرة جداً على جبينه، وقـد رأيته من قبل وسألته عن مكان والدي، أبتسم في وجهه، وهو يبتسم في وجهي أيضاً، وابتسامته لا تعرب عن القلق، بل تشبه نسيما خفيفا يهب من تجويف عينيه، وتجويف فمه.

يقول: «هناك نار المخيم، بالتأكيد هناك».

أنظـر على امتداد إصبعه في مكان نـاء في الأفق، والأرض العشبية النائية تتمدد امتداداً عظيماً، وفي نهايتها توجد علامات متلألئة ومشعشعة تشبه شريطا حريريا، وشعرت بأن ذلك يكون نهراً، كمـا توجد هناك نار خضراء تبـدو صغيرة كأن القداحة قدحتها، وشـاهدت بعض البشر من ذوي الهياكل العظمية تنزل من سفح الجبل، وتنطلق من الغابة، وتواصل السير إلى هناك.

يقول: «تعال واجلس فترة قصيرة».

أسأله: «ماذا يوجد هناك؟».

يقول: «ضفة النهر، يوجد كوم من النار».

«أنتم تذهبون هناك دائماً؟».

«ليس دائماً، نذهب مرة واحدة على فترات متباعدة».

«هل جميع الناس هنا يذهبون هناك؟».

يقول: «بلى»، وينظر إلى الشريط القماش الأسود على كمي، كما يشير إلى نظيره على كمه، ثم يقول: «إنهم بشر مثلنا».

فهمت أن المكان هناك يحتشد فيه الذين ينعون أنفسهم إلى أنفسهم. وأطأطئ رأسي، وأتبعه في سيره نحو النهر الذي يشبه الشريط الحريري، وكوم النار الصغير. وتمتد خطواتنا وتجتاز الأعشاب الكثيفة الملتفة، ويدوي صوت حفيف الأعشاب الخضراء.

أحملق في الشريط القماش الأسود على كمه، وأسأله: «متى حضرت هنا؟».

يقول: «منذ تسع سنوات تقريبا».

يلوح في نبرة صوته استعراض الماضي، ويقول: «في ذلك الحين قد مر عام وأكثر على زواجي، وزوجتي تعاني من مرض عقلي، وقبل الزواج لا أعرف أنها مريضة، ورأيتها ثلاث مرات فقط، وأشعر عندما تضحك أن أمارات غريبة تعلو وجهها، ويشعر قلبي بعدم الطمأنينة، بينما أبواي لا يعتريهما القلق ما دامت الأوضاع المالية لأسرة الزوجة ميسرة جدا، وجهاز العروسة كثير جداً، كما يحتوي على دفتر توفير بمبلغ عشرين ألف يوان. وقريتنا في ذاك الجانب تعيش في فقر مدقع، ويقرر الأبوان هناك البحث عن فتاة للزواج، ويمكن أن تبني بيتاً من طابقين بعشرين ألف يوان، وقرر أبواي هذا الزواج، وعرفت أنها تعاني من مرض عقلي منذ زواجنا. مازالت في حالة طيبة،

لا تهاجم الآخرين ولا تحدث جلبة، غير أنها لا تكف عن الضحك طوال النهار حتى الليل، ولا تقوم بأي عمل. ويشعر أبواي بالندم، كما يشعران بوخز الضمير، ولكنهما رفضا أن أطلقها، ويقولان نبني البيت بأموالها وجهازها، ولا يمكن تهديم الجسر بعد العبور وأنا لا يخطر على بالي الطلاق، وأرغب في العيش على هذا المنوال، بالإضافة إلى أنها تعتبر لطيفة وهادئة مقارنة بسائر المرضى المصابين بالتخلف العقلي، وفي المساء ننام مثل الناس العاديين تماماً. وفي صيف ذاك العام، تركت البيت ولا ندري أين تقودها قدماها، وخرجت أبحث عنها، وحذى حذوي الوالدان وزوجة أخي الكبير، وعرجنا على العديد من الأمكنة، وتنسمنا أخبارها في كل صقع، ولكن لم نسمع شيئاً. استمر البحث عنها ثلاثة أيام ولم نعثر عليها، ومن ثم أخبرنا أهل بيتها الذين انتابتهم الشكوك من أنني سببت لها ضرراً ورحلت عن دنيانا، ولذلك ذهبوا إلى مكتب الأمن العام في المحافظة وأبلغوا البوليس عن حادث اختفائها. وفي اليوم الخامس لمغادرتها البيت، طفت جثة امرأة في بركة في مكان بعيد عن قريتنا بكيلومترين، وعندما تم العثور على الجثة كانت مهترئة وعفنة من جراء الصيف الصائف، ولا يمكن التعرف على شكلها، وطلب البوليس مني ومن أهل بيتها أن نتفحص شكلها وملامحها، بيد أننا لم نتعرف عليها، لكننا شعرنا بأن قامة الجثة تضاهي قامتها تقريباً. وذكر البوليس أن اليوم الذي شهد موت الجثة غرقا يتزامن مع اليوم الذي غادرت فيه بيتها، وشعرت أنها زوجتي، كما شعر أهلها كذلك. ودار بخلدي أنها ربما لم تأخذ حذرها وقادتها قدماها إلى داخل البركة، ولم تدرك أن السقوط في البركة يودي بحياة

المــرء غرقاً لأنها تعاني من مرض عقلــي. وما زال قلبي يئن من وطأة الحزن فقــد جمعنا الرباط المقدس لمــدة أكثر من عامين بغض النظر عن حالتها الصحية. ويستجوبني البوليس بعد مرور يومين، ويســألني ماذا كنت أعمل عندمــا انصرفت من البيت؟ ســافرت إلى المدينة في ذاك اليوم، واكتشــفت أنها تركت البيت عندما رجعت في المساء. ويسألني البوليس هل لدي شاهد على ســفري إلى المدينة، فكرت لحظة وقلت لا يوجد، البوليس يدون اعترافاتــي وينصــرف، وأهلها يؤكدون أنني قتلتهــا، كما يعتقد البوليس أنني القاتل، ولذا يلقي القبض عليّ. بدايةً أبواي وزوجة أخــي الكبير لا يصدقون أنني القاتــل، وبعد ذلك اعترفت أنني قتلتها، ولذا صدقوا أنني القاتل. ويشــعرون بحزن شــديد، كما يكرهونني بشدة أيضاً، فقد جعلتهم وهم الشرفاء لا يستطيعون رفع رؤوســهم، فقد جرى العرف بذلك في قريتنا حيث إن البيت الذي ينبت فيه مجرم قاتل، فإن أهل البيت لا يجرؤون على رؤية الناس. وعندما أصدرت المحكمة حكماً بإعدامي، لم يحضر أحد منهم، بينما حضر أهل بيت القتيلة، وأنا لا ألقي باللائمة عليهم، فقد حاولــوا رؤيتي بعد اعتقالي، ولكن رفــض البوليس، وكلهم مــن الخلصاء ولا يعرفون أنني مظلوم. وليس أمامي مفر ســوى الاعتــراف بالقتل، والبوليس يعلقني ويشــبعني ضربا ويجبرني على الاعتراف بالجريمة، وينــز البول والبراز من جراء الضرب المبــرح، كما يقيــد البوليس يدي ويعلقهما لمــدة يومين، ويحتقن الــدم في أصابعي الأربعة، وقالوا إنهــا تلفت تماما. وبعد ذلك، يعلقنــي البوليس بالمقلــوب ويعذبني، قدمي معلقــة في أعلى، ورأسي في أســفل، يُعلقني بالمقلوب ويضربني، ويكون الأكثر ألماً

ليس جسـدي، بل عيوني، ويتصبب العرق المالح الذي يتدفق إلى عيوني ويصيبني بألم شديد كأنهما وُخزتا بالإبرة، وفكرت جيداً أن الموت أفضل، ومن ثم اعترفت بالجريمة».

يتوقف عن الكلام برهة، ويسـألني: «لماذا ينمو الحاجب فوق العين؟».

«لماذا؟».

«حتى يقي العين من العرق».

«من أجل حماية العين من العرق».

سمعته يضحك بصوت هادئ كأنه يبتسم بمفرده.

يشـير إلى الدماغ المؤخر لديه، كما يشير إلى فتحة مستديرة صغيرة فـي جبهته، ويقول: «اخترقت الرصاصة دماغي المؤخر، وخرجت من هنا».

يحني رأسـه ويحدق في الشـريط القماشـي الأسود المعلق على كمه، ويردف قائلا: «حضرت إلى هنا، ورأيت أناسا يعلقون شرائط قماشـية سـوداء على أكمامهم، وفكرت أيضا أن أضع شـريطاً قماشياً أسـود على كمي، وشـعرت بأنه لا يوجد أحد فـي ذاك الجانب يفعل ذلك من أجلـي، ولا يجرؤ أبواي وزوجة أخي الكبير على أن يعلقوا مثل تلك الشـرائط القماشـية على أكمامهم لأنني مجرم قاتل. ورأيت شخصاً يرتدي ملابس سوداء فضفاضـة جداً، وأكمامهـا طويلة جداً أيضاً، وسـألته إذا كان يسـتطيع أن يمزق كمه ويعطيني قطعة، ولا يدري لماذا أريد هذه القطعة القماشـية، ثم يمزق كمـه ويعطيني قطعة منه، وبعد أن علقت على ذراعي الشريط القماشي الأسود، شعرت بالاطمئنان والراحة. وهناك شـخص يعرف قصتي بين هؤلاء البشر الذين

أتوا مـــن خلف ظهري، وأخبرني بأنه بعــد مرور نصف عام من إعدامـــي رمياً بالرصاص، عـــادت زوجتي المصابة بمرض عقلي إلى البيت بصورة فجائية، وملابسها قذرة وبالية، كما أن وجهها قـــذر لدرجة لـــم يتعرف عليها أحد، ووقفت أمـــام مدخل البيت تضحك: هيه، هيه بلا انقطـــاع، وقفت مدة طويلة جداً، وهناك من تعرّف على ملامحها فـــي القرية. ويعرف الناس هناك أنني تعرضـــت للظلم، ويبكـــي أبواي وزوجة أخـــي الكبير لمدة يومين، ويشعرون بالشفقة والعطف نحوي، وتدفع الحكومة تعويضا لهم بأكثر من خمسين ألف يوان، واشتروا لي قبرا رائعا جداً..».

وسألته: «هل عندك قبر؟، ولماذا حضرت إلى هنا أيضاً؟».

ويقول: «في هذه الأثناء، نزعت شـــريط القماش الأسود من كمي ورميته فوق شـــجرة وأســـتعد للانصراف، وبعد أن مشيت أكثر من عشـــر خطوات، يعز عليّ أن أتخلى عن ذلك الشـــريط الأسود وأعود وألتقطه، وأضعه على ذراعي، ولم أنصرف».

وأسأل: «ألا ترغب في الذهاب إلى أرض الراحة الأبدية؟».

يجيـــب: «أريد أن أذهب إلى هناك حقـــاً، وأفكر آنذاك أنني عندي قبر. وعلى كل حال، لا داعي للاســـتعجال، وأذهب هناك في الميقات الذي يحلو لي».

«متى حضرت إلى عالم الممات؟».

«منذ ثماني سنوات».

«هل القبر ما زال موجوداً؟».

«موجود، موجود دائماً وأبداً».

«متى تنوي الذهاب إلى القبر؟».

«فيما بعد».

نعرج علـــى المكان الذي يحتشـــد فيه الذين ينعون أنفســـهم بأنفســـهم. وعلى مرمـــى البصر، نهر واســـع وعريض، ومنظره المشرق المتلألئ عريض ومترامي الأطراف أيضاً. يتوقد كوم من نار المخيم الخضراء على جانب النهر، ويتطاير الشرر بلا انقطاع كأنه الحباحب الطائر[1].

تجلس قلة قليلة من الهياكل العظمية ذات الأشـــرطة السوداء علـــى مقربة من نار المخيم، وأمشـــي معه وندلـــف إلى الداخل، ونبحث عـــن مقعد يمكن أن نجلس عليـــه، ورأيت بعض الهياكل العظمية الجالســـة في حالة حراك وتتحرك مقاعدها وتفســـح المـــكان، وتخلي المقاعـــد الواحد تلو الآخر، وأقـــف هناك حائراً ومتـــردداً، لا أدري يجـــب أن أســـير في أي اتجـــاه وأجلس على المقعد. ورأيته يمشي ويجلس على مقعد قريب، وأنا أيضاً أحذو حذوه. وأرفع رأسي، وأشـــاهد أن هناك ما زالت هياكل عظمية تمشي، بعضها يسير على درب امتداد الأعشاب، وبعضها يمشي على امتداد ضفة النهر، ويتهادون في مشـــيتهم على هذا النحو حتى يتجمعوا سويا.

ســـمعت صوتا مدويا ينبثق من هيكل عظمي بجواري، يقول: «أهلا بك».

وقوله «أهلا بك» يشـــكل صوتا خفيفـــا ينطلق من هنا حيث أجلس، ويدور حول نار المخيم، وبعد أن يعود إلي يرتطم بالأرض.

وســـألته بصوت خافـــت: «هل الهيـــاكل العظميـــة تقدم لي التحية؟».

يقول: «نعم، وأنت حضرت إلى هنا حديثا».

(1) الحباحب (سراج لليل): اليراع، وهو ذباب يطير بالليل يضيء ذنبه. [المترجم]

وشعرت بأنني مثل شجرة عادت إلى الغابة، ونقطة ماء عادت إلى النهر، وذرة غبار عادت إلى التربة.

الهياكل العظمية ذات الشــرائط السوداء تجلس واحداً وراء الآخر مثل أصوات تتهاوى وســط الهدوء والسكون تباعاً، نجلس في دائرة بالقرب من نار المخيم، وتنبثق في السر ألف كلمة وكلمة في أجواء الصمت الرهيب المترامية الأطراف، ويعد ذلك بمثابة السرد الذاتي للكثير والعديد في حياتي الحقيرة الوضيعة، وكل امــرئ في عالم الممات هذا يرغب عــن إلقاء نظرة على أحواله الحزينة المؤلمة، وكل واحد هناك يعيش وحيداً بائســاً بلا معين، والذين ينعون أنفســهم إلى أنفسهم قد اجتمعوا سويا، وعلى كل حــال، عندما نجلس حــول النار الخضراء فــي الجهات الأربع، لا نشعر بأننا بلا أنيس ولا جليس مرة أخرى.

لا يوجــد هناك التفوه بالكلمــات ولا الاضطلاع بالأفعال، بل إننا فــي صمت ينظر كل منا إلى الآخــر ويضحك. ونجلس في الهدوء التام ليس من أجل شــيء آخر ســوى الشعور بالجماعة لا بالعزلة.

أجلس في دائرة وســط الهدوء التام، وأسمع صوت النار وهو الرقص، وأســمع صــوت الماء وهو قرع الطبول، وأســمع صوت الحشائش وهو صوت الترنح، وأسمع صوت الشجر وهو الهتاف والنداء، وأســمع صوت الريح وهو الحفيف والوشوشــة، وأسمع صوت السحب وهو الطفو.

ويبــدو أن تلك الأصوات تتكلــم معي بلا تحفظ، وقد تعرض مصيرها لكثير من الصدمات والنكسات في حياتي، وترغب عن الالتفات إلى ذكريات الماضي. وبعد ذلك، سمعت صوت العندليب

يصدح، يترامى إلى مســامعي تارة، ويتوقف تارة أخرى، ثم يملأ الآفاق مرة أخرى..

* * *

سمعت صوتاً كالوشوشة يقول: «أنت حضرت هنا».

أسير نحو ذاك الصوت الغريب الذي يشبه صوت تقطر مياه الأمطــار من إفريز الغرفة إلى حافــة النافذة ويتجلى بالوضوح والخفــوت. وخمنت أنه صوت امرأة، وبعد أن ذاقت مرارة الدنيا يزخر صوتها بالعتمة في وقت الغسق، ولكن نبراته ما زالت جلية مثل إنسان يقرع الباب: دقة، دقتان، ثلاث دقات.

«أنت حضرت هنا».

تتنابني مشاعر التردد والارتباك، هل هذا الصوت يخاطبني؟ وعلى كل حال، يتحلى هذا الصوت بالود البعيد، إنه ذلك الود في أعماق ذاكرته، وجعلني أشعر أنه يخاطبني فعلا. وتكلم المرة تلو الأخرى، ثم ما لبثت أن ســمعت صوت العندليب يصدح بالغناء، ويعلو وينخفض مثل الموج، ويترامى إلى مسامعي الصوت القائل: «أنت حضرت» مثل صوت غناء العندليب.

تتقدم خطوات نحو صوت غناء العندليب، وكذلك نحو الصوت القائل: «أنت حضرت».

عرجت على غابة وشــعرت بأن صوت غناء العندليب ينساب من أعلى شــجرة في الأمام. ومشــيت إلى هناك ولفت انتباهي أن أوراق الشــجر عريضة أكثر فأكثر، ثم شاهدت أطفالاً رضعاً من ذوي الهياكل العظمية في معية أوراق الشــجر العريضة التي تتمايل يمنة ويسرة، وهؤلاء الأطفال يشرقون ويتلألؤون في مهد أوراق الشــجر، ويصدحون بالغناء الــذي يؤثر في النفس تأثيراً

بالغـــاً، أمد إصبعي وبعد أن أحصيت عددهم ســبعة وعشـــرين طفلا، أنزل يدي. وهذا الرقم يهز قلبي هزاً عنيفاً، وتمرق ذاكرتي فـــي طرفة عين داخل أروقة عالم الممات ذلك، وتذكرت الأطفال الموتى الذين أطلق عليهم النفايات الطبية والبالغ عددهم ســـبعة وعشـــرين طفلا، والذين كانت أجسادهم تطفو فوق صفحة مياه النهر، وتخلى عنهم ذووهم على ضفة النهر.

«أنت حضرت».

وأشـــاهد امرأة ذات هيـــكل عظمي ترتـــدي ملابس بيضاء فضفاضة تجلس بين الأشـــجار والكتل العشبية العطرية، وتقف طويلا، وتتنهد وتخاطبني:

«يا ابني، كيف حضرت هنا بسرعة؟».

عرفت من هي، وأنادي بصوت خافت: «ماما».

تمشـــي (لي يوي جين) حتى تصـــل أمامي وتحدق في وجهي بنظـــرات تنبعث من تجويف العينين، وصوتها كريشـــة في مهب الريح، وتقول: «يبدو أنك تجاوزت الخمسين، وعلى كل حال، أنت تبلغ من العمر أربعين عاماً».

أقول: «ما زلت تتذكرينني».

تقول: «سنك يناهز ابنتي جينغ شيا».

في هذه اللحظة تعيش جينغ شـــيا وأبوها جينغ تشـــيانغ شينغ في عالم أمريـــكا، أما أنا وأمها لي يون جين فنعيش هنا في ذاك العالم، وودعت جينغ شـــيا ووالدها في المطار عند ســـفرهما إلى الخارج، وبعد وصولهما إلى شـــانغهاي، اســـتقلا الطائرة المتجهة إلى أمريكا. وطلبت من جينغ تشيانغ أن يجعلني أحمل علبة رفات أمي (لي يون جين) التي تتوسد قلبي وأودعها إلى مثواها الأخير.

تومئ لي يوي جين برأســـها وتقول: «شـــاهدتكما في المطار، ورأيتك تحمل علبة الرفـــات، وأنت حملت رفات الآخرين وليس الهيكل العظمي».

تذكرت أن الهياكل العظمية لأناس آخرين استغلوا اسمها وتم دفنهم فـــي أمريكا، وأخبرتها بأن «جينغ ذكـــرت أنها وفرت لك أرض الراحـــة الأبدية، وأضافت أن والدها ســـيكون هناك أيضاً في المستقبل».

أكف عن الكلام، ونظـــراً لأنني تذكرت أنه عندما غيّب جينغ تشيانغ شينغ في مثواه الأخير بعد مرور بضع سنوات، أدركت أن لي يوي جين لا تنعم معه بالراحة الأبدية بصورة مشـــتركة، وأنه ســـيعيش مع غريب أو مع نفر من الغرباء أجسادهم ناقصة في ركن من الأركان.

تنثال دموع (لي يوي جين) من تجويف العينين كلما تذكرت ذلـــك. وتتدفق الدمـــوع على خديها اللذين يشـــبهان الحجر، وتتقطـــر على بضعـــة أعواد من العشـــب. ثـــم تظهر ملامح ابتســـامة من تجويـــف العينين وترفع رأســـها وتجيل بصرها فـــي كافة الأنحاء، وترقب باهتمـــام الأطفال الذين يغنون مثل العندليب، وتقول:

«يوجد عندي هنا ســـبعة وعشرون طفلا، والآن أنت حضرت، إذن، أصبحنا ثمانية وعشرين فردا».

لم يتبق منها سوى يدها ذات الهيكل العظمي، والتي تتحسس بها الشـــريط القماشي الأسود على ذراعي الأيسر، وتعرف أنني أنعى نفسي إلى نفسي، وتقول:

«ابني المسكين».

تتقافز ألسنة اللهب المحرقة من قلبي قارس البرودة. وهناك طفل لم يأخذه حذره، ويتدحرج من فوق الشجرة ويسقط على الأرض، ويتفزز ويبكي، ويحبو إلى أمام لي يوي جين التي تضمه إلى أحضانها وتهدهده فترة قصيرة، وتعيده فوق أوراق الشجر العريضة، وعلى الفور يدس هذا الطفل نفسه بسرعة في زمرة الأطفال الذين يغنون على غرار العندليب.

تسألني لي يوي جين: «كيف حضرت إلى هنا؟».

أخبرتها بالمشهد الأخير في حياتي في ذاك الجانب، كما أخبرتها أن زوجتي (لي تشينغ) ودعتني من مكان بعيد جدا.

ترسل زفرة طويلة بعد أن سمعت كلامي، وتقول: «لا يجوز أن نترك لي تشينغ».

أفكر في أعماق نفسي أنه ربما لا يجوز أن تتركني. وإذا كانت في البداية لم تتخل عني، يجب علينا أن ننعم بحياة هادئة في ذاك العالم. ويتعين على طفلنا الالتحاق بالمدرسة الابتدائية، وربما كان أحد طلاب المدرسة الإعدادية في الوقت الحاضر.

وتذكرت الفقدان المروع لكل من لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعا، وذكرت مؤسسة الخدمات الجنائزية أنها أحرقت جثثهم، بينما أحد مستخدمي الإنترنت يقول إن رماد عظامهم قد حسمت من علب رفات الآخرين.

تقول: «عرفت ذلك،وأخبرني بذلك شخص يأتي من عالم آخر».

أرفع رأسي وأحملق في الأطفال الرضع الذين يتمددون على أوراق الشجرة العريضة ويصدرون أصوات غناء تشبه العندليب، وأقول: «أأنت حملت هؤلاء الأطفال إلى هنا؟».

تجيب قائلة: «لم أحملهم»، وتردف: «كنت أسير في الأمام، وهم يحبون في الخلف».

وقالت لي يوي جين إنها في بهيم الليل في ذاك اليوم، لم تسمع صوت دوي الانفجار، ولكنها استيقظت من نومها. وقبل ذلك كانت تنهمك في نوم عميق وشاهدت رؤى ثلاثاً، ففي الرؤيا الأولى شاهدت الفوضى الأزلية المترامية الأطراف وأصبحت السماء والأرض وحدة واحدة، وتلوح في الأفق الأضواء الساطعة، ثم تتدفق مياه البحيرة الساطعة اللامعة، وانفصلت السماء عن الأرض، كما انفصل البكور عن الليل، وفي الرؤيا الثانية شاهدت الهواء يطير بسرعة ويقوم بحركة مكوكية، أما الرؤيا الثالثة، فقد كانت انفجار الماء من الأرض وتدفقه أكثر فأكثر مثل البحر العظيم.

وبعد ذلك، تنهض من سباتها، ويبدو جسمها يسقط من جرف شاهق، وسرعة الانحدار تجعلها تقف شامخة، وتنزع قطعة القماش البيضاء تلك على مهل مثل كسح الثلج المتراكم أمام الباب، وتبدأ أقدامها في الحراك، وتخرج من مستودع الجثث أسفل حفرة سماوية تغص بضوء القمر الشاحب الباهت، وتتعثر أقدامها في أعمدة الحفرة المتداخلة تداخل أنياب الكلب، وتخرج من تلك الحفرة في وضعية جسدها المستقلي على الأرض.

تدلف إلى المدينة التي تسطع فيها الأضواء اللامعة، وتعج بحركة الذهاب والإياب الصاخبة من المشاة والركاب، والمشاهد والمناظر كما هي، وعلى كل حال، كانت تمشي خارج نطاق عالم تلك الموجودات.

يبدو أنها تعود أدراجها إلى بيتها بشكل عادي، وتمشي إلى أمام المبنى الذي تقيم فيه، ولكن لا تستطيع أن تدخل بيتها،

ومهما تحركت ومشــت تعجز عن الاقتراب من البناية السكنية، وكان ذلــك في الليلة الثالثة من توديعها هذه الحياة. وشــاهدت شــبح ابنتها يشــرق من نافذة في الدور السادس، ويخفق قلبها؛ إنها (جينغ شيا)، لقد عادت ابنتها.

تواصل المشــي نهاراً وليلا، ولــم تكف خطواتها عن التقدم إلى الأمام وتنأى بعيداً كلما مشت، ولم يظهر في تلك النافذة زوجها (جينغ تشــيانغ تشــينغ) أبداً، وكذلك أنا لم أظهر في النافذة، ولكن ظهرت فقط ابنتها (جينغ شــيا). ورأت أناســاً ينقلــون تباعا الطــاولات والمقاعــد والدواليب، كمــا ينقلون طاولات الشاي الصغيرة والأرائك والأسرّة، ويخرجون من تلك البنايــة، وتذكرت أن ذلك أثاث بيتها الذي كان لا يفارقها ليلا نهارا منذ عشــرات الســنين، وباعته، وكذلك تلك الشقة التي باعتها، وذلك عندما كان زوجها وابنتها على وشك السفر إلى أمريكا.

وفــي فترة ما بعــد الظهر، رأتنا بأم عينها أخيراً، شــاهدت زوجهــا جينغ تشــيانغ يحمل علبــة الرفات ويخــرج من المبنى الســكني متكئاً على ابنته جينغ شيا التي تحمل في يدها اليمنى حقيبة السفر الكبيرة، وأنا أحمل صندوقي شحن كبيرين، وأسير خلفهمــا، ونقف نحن الثلاثة على جانب الطريق، وتقف ســيارة تاكســي، وأحمل أنا والســائق تينك الصندوقين وحقيبة السفر ونضعها في حقيبة السيارة الخلفية. كما شاهدتني وأنا أتحدث مع زوجها الذي يسلمني علبة الرفات وأحملها في يدي، وتجلس جينغ شــيا ووالدها في مقعد الســيارة الخلفي، وأنا أجلس في المقعد الأمامي، وتنطلق بنا سيارة التاكسي.

تدرك أنها لحظة الوداع الأبدي، ويستعد جينغ تشيانغ شينغ، وجينغ شيا للسفر إلى البلد القاصي أمريكا، وتنساب دموعها على الخدين، وتركض وتهرول، ولكن ركضها لا يزال يجعلها تشاهدنا من مكان بعيد، وتتسمر أقدامها، وترى سيارة التاكسي تتلاشى وسط تدفق المركبات الأخرى.

تتفجر في نوبة بكاء، وتبكي بكاء طويلا، وبعد ذلك سمعت أصواتا مختلطة خلفها، يبدو أنها أصوات ذرف الدموع أيضا، وتدير رأسها إلى الخلف وترى سبعة وعشرين طفلا رضيعاً اصطفوا وينبطحون على الأرض، ويبدو أنهم يشعرون بالحزن والألم مثلها، وحينما توقفت عن البكاء، توقفت أصوات بكائهم أيضاً، ولا تدري أنهم يقتفون أثرها خلفها، ويحبون حتى خرجوا من الحفرة السماوية، ويستمرون في تتبعها حتى وصلت إلى هنا، وتلوح المدينة أمام مرمى بصرها، والتي تنأى رويداً رويداً، وتلفّ رأسها إلى الخلف، وترى هؤلاء الأطفال الرضع، وتدرك آنذاك ماذا خسرت؟ وتدرك أيضاً ماذا كسبت؟

تخاطب هؤلاء الأطفال برفق، وتقول: «انصرفوا».

لي يوي جين، التي ترتدي البنطال الأبيض، تمشي الهوينى إلى الأمام، ويحبو خلفها الأطفال الذين يصطفون، وعددهم سبعة وعشرون طفلا رضيعاً. أشعة الشمس صفراء وعتيقة ويجتازون المدينة التي تعج بالجلبة والضوضاء، ويدلفون إلى منطقة الهدوء والسكون وتتعمق أقدامهم داخل المنطقة كلما مشوا، ويستقبلون ضوء القمر الفضي.

وبعد أن تجتاز الخط الفاصل بين الحياة والموت، تطأ أقدام (لي يوي جين) أرض عشب عطرية، والأعشاب الخضراء الناضرة

تطاول أعناق هؤلاء الأطفال الذين يمشـــون خلفها، وشـــعورهم بالحكـــة يجعلهم يصدرون أصوات الضحكات، ويوجد نهر يتلألأ ويشـــرق في نهاية أرض العشـــب العطرية، وتتـــزل لي يوي جين إلى النهر وتمشـــي فيه، فيرتفع منســـوب المياه إلى صدرها، كما ينخفض ذلك المنســـوب إلى أقدامها، وتصل إلى الضفة المقابلة، ويحبـــو هؤلاء الأطفال فوق صفحة المياه، ويتناولون جرعة كبيرة من الماء فيغصّون بها، ويســـعلون دائمـــاً حتى وصلوا إلى الضفة المقابلة، ويعبرون النهـــر ويدخلون الغابة، ولي يوي جين لا تدري وتدنـــدن بلحنٍ داخل الغابة، وفي الخلـــف يحذو هؤلاء الأطفال حذوهـــا أيضاً، وتتوقف لي يوي جين عـــن الدندنة، ولكن هؤلاء الأطفال يواصلون الدندنة، ويدوي صوتهم بالغناء، الذي يشـــبه العندليب، دائماً إلى الآن!

تقول لي يوي جين: «حضر أبوك يانغ جين بياو».

أحملق في وجهها بدهشـــة، وتردف قائلة: «جاء هنا من مكان بعيد، ويشعر بالتعب الشديد، واستراح هنا عدة أيام، وهو يتحدث عنك دائما».

«لقد انصرف بلا استئذان، وأين ذهب؟».

«ركـــب القطار وســـافر إلى المكان الذي تـــركك فيه في ذاك العام».

ومازالـــت ذكريات آخر حوار اســـتمر ليلة بينـــي وبين والدي محفورة في صدري. ونتزاحم فوق الفراش الضيق في الحانوت. وأضواء مصابيح الشارع خارج النافذة تلح عليها الرغبة في النوم، وريـــح الليل تلامس نافذتنا. وكانـــت المرة الأولى التي يبكي فيها والدي أمامي عندما ســـرد قصته وأنـــا في الرابعة عندما تخلى

عنـــي فوق حجر في تلك المدينة الغريبـــة من أجل فتاة، ووصف ضخامة وقوة ذاك الحجر الأخضر، وسطحه الأملس، ووضعني فوق ذلك السـطح الأملس. ويعنف نفسه تعنيفاً شديداً من جراء ذلـــك مرة تلو الأخـــرى. ولكن والدي ينصرف بلا اســتئذان ولم يخطر ببالـــي أن يفعل ذلك، وبحثت في العديد من الأمكنة، ولم يدر بخلدي أنه استقل القطار وسافر إلى هناك.

يرتدي والدي البزة الجديدة النظامية للسكة الحديدية، وهي البـــزة الأكثر جدة لديه، ويعز عليه دائماً أن يرتديها، واســتمرت هذه الحال حتى جاء ميقات مغادرته ولبســها، ويســتقل القطار وصحته واهية بصورة مستمرة، وعثر على مقعده بصعوبة بالغة، وما لبث أن وضع جسده واستقر به المقام فوق المقعد حتى انطلق القطار، ويرى رصيف المحطة يتقهقر إلى الخلف ببطء شـــديد، ويشعر بصورة فجائية أن الوقت الباقي لديه لا يسعفه ولا يدري في مغادرته على هذا النحو أيمكن أن يراني مرة أخرى أم لا؟

والـــدي يخبر لـــي يوي جين بأنه لم يذق طعـــم النوم في تلك الليلة. ويســـمع دائما صوت تنفسي المنتظم وصوت شخيري من حـــين لآخر، ولـــم يصدر مني ثمة صوت لفتـــرة قصيرة في تلك الأثناء، ويشـــعر بالقلق، ويمـــد يده، ويتحســـس وجهي ورقبتي، وأســـتيقظ من نومي، وينتصب جسمي وأحملق فيه، وأجده يغلق عينيـــه ويتظاهر بأنه نائم، ويقول إنني تحسســـت جســـمه في الظلام، وأخذت ذراعه بحذر شديد وحشرته داخل اللحاف.

أومئ برأسي، وأخبر لي يوي جين قائلا: «لا أعرف ذلك».

تشـــير لي يوي جين إلى أعشـــاب كثيفة تحت شجرة أمامها، وتقول: «مدد جسمه هنا، وظل يتفوه بالكلام على طول».

يعثــر والدي على ذاك المكان، ولكن لم يعثر على ذلك الحجر الأخضــر وتلك الغابــة، بالاضافة إلى ذلك الجســر الحجري، والنهيــر الذي يفتقر إلى الميــاه، ويتذكر أنه يجب أن تكون هناك بناية ســكنية قبالة الجســر الحجري، ويجــب أن ينبعث صوت الأطفــال الذين يغنون من داخل تلك البناية ولم يعثر عليها، ولم يسمع صوت غناء هؤلاء الأطفال. والدي يخبر لي يوي جين بأن كل شــيء قد تغير؛ حتى القطار شــهد تغيــرا. وفي تلك الأيام، أســتقلّ أنا ووالــدي القطار في الفجر ونغــادر رصيف المحطة ونصــل إلى تلك المدينة الصغيرة فــي الظهيرة، وبعد ذلك يركب بمفــرده القطار الذي ما زال ينطلــق في الفجر أيضا، وعلى كل حال، يصل إلى هناك بعد أكثر من ساعة.

وتسأله لي يوي جين: «هل ما زلت تتذكر اسم ذاك المكان؟».

يجيب: «أتذكر، اسمه شارع خه بان (شارع ضفة النهر)».

يغــادر محطــة القطار في تلك المدينة وســط ضوء شــمس الصباح الباكر، ويحمل على ظهره حقيبة السفر ويجر صندوقَي شــحن ويدلف إلى الفندق بخطوات سريعة كأنني أنقض عليه. ويدخل الفضاء المترامي الأطراف بخطوات وئيدة وبطيئة، حيث لا توجد حقيبة ســفر ولا صندوق شــحن أيضاً، وعلى كل حال، جســده أثقل من تلك الحقيبة والصندوقين. ويتوجه نحو المدخل على مهل، وغير قادر أن يسبل اليدين، ويبدو أنهما لا تتحركان.

يقــف في الميدان أمام محطة القطار، ويســأل بصوت واهن الذين يمــرون بجواره في عجالة ويتمتعون بالصحة والعافية إذا كانوا من أهالي البلد أم لا؟ وسأل عشرين شخصاً ونيفا، كان من بينهم أربعة قالوا إنهم من أهل البلد، وسألهم عن كيفية الوصول

إلى مشارف شـــارع (خه بان)، وذكر الشبان الثلاثة الأولون أنهم لا يعرفون مكان هذا الشـــارع، أما الشخص الرابع فكان عجوزاً، وأخبره بأنه يحتاج أن يركب ويغير حافلة النقل العام ثلاث مرات حتى يستطيع الوصول إلى هناك. ويستقل حافلة من جهاز النقل ويلفظ أنفاسه الأخيرة. وفي المدينة التي لا يجد فيها من يلوذ به يبحث عن ذاك المكان الغريب الذي تركني فيه.

وتسأله لي يوي جين: «لماذا ذهبت إلى هناك؟».

يجيب: «أرغب في الجلوس على ذلك الحجر فترة قصيرة».

وعثـــر على ذاك المـــكان، وكان ذلـــك بعد الظهـــر. والتدافع والتزاحـــم في حافلة النقل العام جعله منهـــوك القوى، وبعد أن ينـــزل من الحافلة يحتـــاج لأن يجلس على جانب الشـــارع فترة طويلة جداً حتى يستجمع قوته. ويستعد لأن يستقل حافلة أخرى. ويغير ثلاث حافلات وينزل في محطة تبعد عن شـــارع (خه بان) أكثـــر من ثلاثمئة متر. وهذه المســـافة الباقية وطولها ثلاثمئة - بالنســـبة لـــه - أطول بكثير من ثلاثة آلاف متـــر، ويمضي قدماً إلى الأمام بصعوبة بالغـــة، وخطواته ثقيلة، وقدماه مثل حجرين يعجز عن رفعهما ويســـتطيع فقط الحراك فوق الرصيف ببطء شـــديد، وبعد أن قطع مسافة خمسة أو ستة أمتار، يسند جسمه على شجرة ويأخذ قســـطا من الراحة ويلمح على جانب الشارع مطعماً صغيراً، ويشـــعر بأنه جوعان، ثـــم ما لبث أن جلس على مقعد فوق الرصيف خارج المطعم، ويســـند جسده على الطاولة، ويطلب ســـلطانية كريات لحم بعجين. وبعد أن أكل ثلاث كريات بدأ بالتقيـــؤ، ويتقيأ في كيس بلاســـتيك أحضره معه. ويضطر الجلســـاء على مقربة منـــه والذين يتناولـــون طعامهم ويحملون

سلطانياتهم لأن يركضوا إلى داخل المطعم، ويقدم لهم اعتذاره وأسفه بصوت خفيض، ثم يستمر في الأكل، ويستمر في تقيؤ ما أكله. وبعد أن فرغ من طعامه، وقاء ما أكله، يشعر بأن ما أكله أكثر مما تقيأه، ويشعر بأن جسمه أصبح قويا بعض الشيء، وينهض واقفاً وهو يترنح، يمشي صوب شارع (خه بان) ويتمايل جسمه يمنة ويسرة.

يخبر لي يوي جين بأن: «ذلك المكان كله عبارة عن بنايات سامقة ويقطنها أناس كثر».

كان لا يوجد نهير في هذا المكان في الماضي، ولا يوجد جسر حجري أيضاً. وترامى إلى أسماعه صوت أطفال، لكنه ليس صوت غناء الأطفال في الأيام الماضية، بل صوت لعب ومرح أطفال اليوم؛ حيث يهتفون ويصيحون بصوت عال وهم يجلسون على زلاقة الأولاد في منطقة لعب ومرح رياض الأطفال، ويتجاذب أجدادهم وجداتهم أطراف الحديث تارة، ويقومون على رعاية أحفادهم تارة أخرى. وأصبح المكان هنا من الأحياء السكنية الصغيرة، ويوجد أسفل المباني العالية طريق صغير يشبه الفراغ الضيق تسير داخله المركبات والمشاة ذهاباً وإياباً. ويسأل عن مكان النهير، وعن مكان الجسر الحجري، والقاطنون في هذا المكان جاؤوا من أماكن أخرى، وقالوا لا يوجد نهير، ولا يوجد جسر حجري، وليس لهما أثر منذ زمن بعيد. ويسأل: أليس هذا المكان يطلق عليه شارع (خه بان)؟ ويجيبون: نعم. ويسأل أيضًا: أليس هذا المكان كان يطلق عليه شارع (خه بان) في الماضي؟ ويقولون: يبدو أنه كان يطلق عليه شارع (خه بان) فيما مضى.

تســـأل لي يوي جين: «لا يوجد نهير، فكيف يطلق عليه شارع خه بان (شارع ضفة النهر)؟».

يقـــول: «لم يتغير اســـم المكان، ولكن تغيرت ســـائر الأشـــياء الأخرى».

ويواصل تســـاؤلاته بصوت خفيض عن مكان الغابة الصغيرة هنا، وفي داخل الغابة توجد أعشاب كثيفة وملتفة يجب أن تشتمل علـــى حجر أخضر، ويخبره شـــخص ما لا توجـــد غابة صغيرة، ولكن توجد الأعشـــاب الكثيفة الملتفة، وتوجد حديقة على جانب الحي الســـكني الصغير، كما يوجد حجر داخل تلك الأعشـــاب، وسأل إذا كانت الحديقة بعيدة، ويجيب ذلك الشخص أنها قريبة جداً، المســـافة إلى هناك تبلغ مئتي متر فقط، ولكن هذه المسافة ما زالت بالنســـبة إليه تمثل صعوبة ومشـــقة مثل تسلق الجبال وعبور النهر.

ويصـــل إلى تلك الحديقة في وقت الغســـق، وذؤابات أشـــعة الشمس الغاربة تســـطع على أرض معشبة، وتتناثر على الأرض المعشـــبة بضعة أحجار ذات نتوءات بارزة وتتســـلط عليها أشعة الشـــمس الدافئة الغاربـــة، ويبحث بين تلـــك الأحجار عن ذاك الحجـــر فـــي دروب ذاكرته، ويشـــعر بأنه يوجـــد بينها عدد من الأحجـــار ذات اللـــون الأخضر وتشـــبه ذاك الحجر الذي جلس عليه في الماضي، ويمشي بخطوات وئيدة إلى جوار ذلك الحجر، ويريد الجلوس فوقه، ولكن جسده لا يطاوع رغائبه وزلت قدماه. ويســـتطيع أن يســـتند على الحجر فقط، ويجلـــس على الأرض النجيلية، ويشـــعر - في تلك اللحظة- بأنـــه خائر القوى تماماً، ولا يســـتطيع النهوض مرة أخـــرى، وتميل رأســـه على الحجر،

ويحملق بنظرات واهية في متشرد يرتدي أسمالاً بالية زرقاء في مكان قريب ويبحث عن طعام في برميل الزبالة. يعثر المتشرد على زجاجة كوكاكولا في الزبالة، وينزع غطاءها ويصبها في فمه، ولم يتبق سوى بضع قطرات، يرفع المتشرد يده ويحركها عدة مرات فوق فمه المفتوح، ثم يرمي هذه الزجاجة في برميل الزبالة، ثم يدير جسمه ويحدق فيه. عيون المتشرد تشبه عيون الصقر، ويسمر نظراته فيه، ويسبل عينيه، وبعد فترة وجيزة، يرفع عينيه، ويرى المتشرد جالساً على كرسي على مقربة من برميل الزبالة، ومازالت نظراته تحملق فيه، ويشعر بأن تلك النظرات تتركز على البزة النظامية الجديدة للسكة الحديدية التي يرتديها.

ويخاطب لي يوي جين قائلا: «رأيت يانغ فيي يجلس فوق ذلك الحجر».

إنه يعالج سكرات الموت، وغاصت أقدامه في الظلام كأنه غرق في مياه بئر، ويعم الهدوء والسكون كافة الأصقاع. وتنطفئ أنوار البنايات السكنية الباسقة، وتنطفئ مصابيح السماء، ويختفي ضوء القمر، ويظهر في التو كتلة من الأنوار الساطعة اللامعة، ويعد ذلك بمثابة إعادة ظهور تلك الأنوار في المشهد الذي تركني فيه في البداية، ويراني أنا الجالس فوق حجر وأنا في سن الرابعة، وأنا أرتدي زي القوات البحرية حيث اللون الأزرق فيه يتعاقب مع الأبيض، إنه الزي الذي اشتراه لي عندما قرر أن يتخلى عني. طفل يرتدي زي القوات البحرية، ويجلس فوق حجر أخضر، ويهز قدميه بسرور، ويخاطبني بحزن وألم، ويقول: اذهب لشراء بعض الطعام. وأقول بسرور: بابا، اشتر

طعاما كثيراً.

ولكن هذه الكتلة من الأنوار الساطعة تلاشت في طرفة عين، وبيديه الغليظتين يخلع بالقوة بزته النظامية للسكة الحديدية، ويستعيد النداء الذي أطلقه مؤقتا عندما وصل إلى حافة الموت. ويشعر بأن جسمه مخدر، وإدراكه الباقي جعله يعرف ماذا يفعل ذاك المتشرد، يخلع المتشرد أسماله البالية الزرقاء، ويرتدي البزة النظامية، ويقول بصوت ضعيف: أتوسل إليك، أتوسل إليك. المتشرد يسمع صوته ويحني جسمه، ويقول: مئتا يوان. المتشرد يتحسس جيب قميصه ويستل منه مئتي يوان ويضعها في جيب البزة النظامية للسكة الحديدية التي أصبحت ملكاً له تواً. ويقول بصوت واهن مرة أخرى: أتوسل إليك، أتوسل إليك. المتشرد يسمع توسله وتضرعه مرة أخرى، ويقف هناك ويحملق فيه فترة قصيرة، ويجلس القرفصاء ويلبِسّه الأسمال البالية الزرقاء.

يسمع المتشرد صوته في الرمق الأخير: «شكراً».

الظلام مترامي الأطراف وبلا حدود، ويغوص وسط الكائنات الحية المندثرة، كما تتلاشى ذاته أيضا، وبعد ذلك، يبدو أنه سمع شخصا ما ينادي: «يانغ فيي»، وينهض واقفاً، ويكتشف وقتئذ أنه يمشي في سهل فسيح خلاء وحيد مستوحش، وينادي «يانغ فيي» هو في الواقع ينادي نفسه. يواصل المشي ويستمر في النداء: يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي... وينخفض صوته أكثر فأكثر. ويمشي على درب طويل جداً في ذلك السهل. ولا يدري إذا كان مشى يوماً أو أياماً قليلة، ويواصل الهتاف باسمي، ويطلب منه العودة إلى مدينته. وصوت هتافه «يانغ فيي» يشبه علامة طريق على هذا النحو

ترشده إلى أن يأتي إلى حانوتنا الصغير، وظل واقفاً وقتاً طويلاً قبالة الشارع أمام ذلك الحانوت، ولا يدري بضعة أيام أو أكثر من عشرة أيام، والحانوت موصد الباب والنافذة دائماً، وأنا لم أظهر أبداً.

ظل واقفاً وقتاً طويلا هناك، والمشهد المألوف في كافة البقاع بدا غريباً رويداً رويداً، كما بدأ المشاة والمركبات التي تذرع المكان ذهاباً وإياباً مبهمة، وغير واضحة، ويشعر شعوراً خافياً بأن المكان الذي ظل واقفاً فيه قد أصبح مجرد خيال، وعلى كل حال، الحانوت واضح وبارز للعيان دائماً، وهو ما زال يقف هناك على الدوام، ويتطلع إلى فتح باب الحانوت ونافذته، وأخرج من داخل الحانوت، وأخيراً، يتم فتح باب الحانوت ونافذته، ورأيت امرأة تخرج من الداخل أيضاً، وتدير جسمها وتتحدث مع رجل في داخل الحانوت. ويرى بجلاء أن الرجل داخل الحانوت ليس أنا، ويحني رأسه كأنه فقد شيئاً، ويدير جسمه وينصرف.

وتخبره لي يوي جين بأن: «يانغ فيي باع الحانوت، تذهب وتبحث عن نفسك»،

يومئ برأسه قائلا: «عرفت أن يانغ فيي باع الحانوت عندما رأيت أناساً آخرين يخرجون من هناك».

وبعد ذلك، يمشي دائما، ويضل الطريق باستمرار، وإصراره على أن يضل الطريق بصورة مستمرة جعله يسمع غناء يشبه العندليب، ويمشي صوب صوت الغناء ويرى العديد من البشر من ذوي الهياكل العظمية يذرعون المكان جيئة وذهاباً، ويقوم بحركة مكوكية بينهم، وصوت الغناء الذي يشبه العندليب يقوده إلى داخل الغابة، أوراق أشجارها كبيرة وعريضة. وفوق بعض

تلك الأوراق يتمدد أطفال رضع وتتراقص أجسادهم، وينبعث من هنا صوت ذاك الغناء. امرأة ترتدي ملابس بيضاء تخرج من بين الأشجار والأعشاب الكثيفة ويتعرف عليها ابنها (لي يوي جين) التي بدورها تتعرف عليه أيضاً، وفي هذه الأثناء، كان جسدها في حالة سليمة وجيدة، ويقفان وسط هؤلاء الأطفال الذين يصدر عنهم صوت غناء يشبه العندليب، ويسرد كل منهما لحظته الأخيرة في عالم هذه الدنيا. ويتقصى أخباري من لي يوي جين التي لا تتذكر سوى المشهد الأخير، وهو سفري إلى قريتها، ولا تعرف ما جرى بعد ذلك.

يشعر بالإعياء الشديد، ويمدد جسمه لبضعة أيام وسط سبعة وعشرين طفلاً رضيعاً يصدحون بالغناء مثل العندليب، يطرح جسمه على الأعشاب الكثيفة والملتفة تحت أوراق الأشجار. وبعد ذلك، ينهض واقفاً، ويخبر لي يوي جين بأنه يشتاق إليها، ويشتاق إلى رؤيتي أيضاً، حتى لو استطاع أن يلقي نظرة من بعيد، فذلك يجعله يشعر بالرضا الذاتي. يسير على درب طويل مرة أخرى ويتجشم مصاعب المشي مثل تسلق الجبال وعبور النهر، ويضل الطريق باستمرار في دوامة فقدانه وضياع الطريق منه بصورة مستمرة، وعلى كل حال، لا يستطيع الاقتراب من المدينة لأنه قد غادر هذا العالم منذ ردح طويل ويمشي نهاراً وليلاً، وأخيراً يصل إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية التي تعتبر بمثابة نقطة التقاء بين عالم المحيا وعالم الممات.

يدلف إلى الردهة الكبيرة لحرق الجثث في مؤسسة الخدمات الجنائزية كما دخلتها أنا للمرة الأولى، وسمعت الذين ينتظرون حرق أجسادهم يناقشون أكفانهم، وعلب رفاتهم، وقبورهم،

ورأيتهـــم يدخلون غرفة المحرقة الواحـــد تلو الآخر. ولم يجلس، بـــل ظل واقفاً هنـــا على الدوام، وبعد ذلك يشـــعر بأنه يجب أن يكون هناك عامل في ردهة حرق الجثث، وهو عامل يعشق عمله. وعندما يدخل منتظر حرق جثته جاء متأخراً لم يتمالك نفســـه عن الترحيب به، وســـحب له رقماً من الماكينة، كما أرشـــده إلى المقعد ليجلس، وبعد ذلك، يشـــعر بأنه يشـــبه العامل الذي يعمل هنا تماماً، ويذرع الممر في المنتصف جيئة وذهاباً. وذات يوم، يمد يـــده بغير قصد وتدخل جيب الأســـمال البالية الزرقاء التي قام المتشـــرد بتلبيسها إياه، ويتحســـس في داخلها القفازات المهترئة البيضاء، وبعد أن يرتديها يشـــعر بأنه مثل العامل الرســـمي في تلـــك الردهة. ومع كر الأيام، أصبح أمـــام منتظري حرق جثثهم العامل المؤدب الذي يضطلع بواجباته، ومع كر الأيام أصبح مفعماً بالتطلعات الجميلة، ويدرك أنه يريد أن يقوم بالخدمة والرعاية في هذا المكان لمدة ثلاثين عاماً، أو أربعين عاماً، خمسين عاماً.. حتى يستطيع رؤيتي.

يتوقف صـــوت لي يوي جين عند هذا الحـــد بصورة مؤقتة. وأعرف مكان والدي، إنه ذاك الشـــخص الذي يرتدي الأســـمال الزرقاء والقفازات البيضاء في ردهة حرق الجثث في مؤسســـة الخدمـــات الجنائزية، ووجهه عبارة عن هيكل عظمي وخال تاماً مـــن اللحم، إنه الرجل صاحب الصوت المنهوك، الحزين المهموم، إنه والدي.

صـــوت لي يون جين يدوي مرة أخرى، وقالت إن والدي حضر هنا قادما من مؤسسة الخدمات الجنائزية، وواصل السير حتى وصل إليها، وســـرد لها كيفية دخوله لردهة حرق الجثث في تلك

المؤسسة، وكيفية جعل نفسه يحصل هناك على وظيفة، وبعد أن فرغ من كلامه، يدير جســمه وينصرف، وتقول لي يوي جين إنه كان في عجالة من أمره، ربما بســبب أنه لا يجوز أن يترك عمله هناك.

صوت لي يوي جين يشبه صوت قطرات الماء، وكل كلمة تنطق بها مثل قطرة ماء ترتطم بأديم الأرض.

اليوم السادس

يأتي ضال إلى هنـــا مترجلا، ويئن من وطأة التردد والحيرة، ويحمل في جعبته أخبارا يقدمها للفتاة شـــوميي بشأن صديقها الذي يعيش في عالم آخر.

ويمشي هذا الشاب بيننا، وينظر في حيرة إلى العشب الأخضر المنتشـــر على أديم الأرض والأشجار المورقة، كما يحملق بارتباك في المترجلين هنا، وفـــي العديد من ذوي الهياكل العظمية، وفي كوكبة من ذوي الأجسام السليمة، ويحدث نفسه:

«كيف حضرت إلى هنا؟».

ويردف قائـــلا: «يبدو أنني كنت دائما في حركة ذهاب وإياب طوال خمسة أيام، ولم يدر بخلدي أن تقودني قدماي إلى هنا».

هناك صوت بجـــواري يخبرني قائلا: «هناك إنســـان يموت ويأتـــي إلى هنا في غضون يوم واحد، وهناك إنســـان يموت ولا يحضر هنا إلا بعد بضعة أيام».

ويسأل في ارتياب شديد: «هل أنا ميت؟».

ويســـأل هذا الصوت: «هـــل ذهبت إلى مؤسســـة الخدمات الجنائزية؟».

ويسأل أيضا: «أين مؤسسة الخدمات الجنائزية؟، لماذا يجب أن أذهب إلى هناك؟».

«الإنسان الذي يموت يجب أن يذهب إلى تلك المؤسسة لحرق جسده».

يجيل بصره نحونا في ارتياب، ويسأل: «أأنتم حرقتم أجسادكم؟، يبدو أنكم لا تشبهون رماد العظام المعبأ في علب».

«لم تحرق أجسادنا بعد».

«وأنتم لم تذهبوا إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية، أليس كذلك؟».

«لقد ذهبنا إلى تلك المؤسسة».

«ذهبتم إلى هناك، فلماذا لم تحرقوا أجسادكم؟».

«نفتقر إلى قبور».

يدمدم قائلا: «وأنا ليس عندي قبر أيضا، ولماذا أموت؟».

يقول صوت آخر: «سيأتي شخص من الخلف ويخبرك بذلك».

ويهز رأسه قائلا: «قابلت رجلا للتو، وذكر أنه حضر في الحال، ولا يعرفني، وهو لا يعرف كيف حضرت أنا إلى هنا، كما أنه لا يعرف أيضا كيف جاء إلى هنا».

أستعد للتوجه إلى الردهة الكبيرة لمنتظري حرق أجسادهم في مؤسسة الخدمات الجنائزية من أجل رؤية والدي، والآن يطلب مني ذاك الشاب أن تتسمر قدماي مكانهما. ويبدو جسمه مفلطحاً بعض الشيء، وهناك آثار غريبة على ملابسه الأمامية، وبعد أن فحصتها بدقة، شعرت بأنها بقايا آثار تركتها عجلة سيارة.

وأسأله: « أتستطيع أن تتذكر المشهد الأخير؟».

ويسألني: «أي مشهد؟».

أقول: «فكّر وحاول أن تتذكر جيدا، ماذا حدث في نهاية المطاف؟».

تظهر على وجهه علائم استرجاع الماضي بجهد جهيد، ويقول بعد فترة قصيرة: «أتذكر فقط الضباب الكثيف جدا، وأقف في الشـــارع انتظاراً لقدوم حافلة النقل العام، ولم أتذكر ثمة شـــيئا آخر».

وجال بخاطري مشـــهد اليوم الأول الذي غادرت فيه غرفتي المســـتأجرة وترجلت وسط الضباب الكثيف، وعندما كنت أجتاز محطـــة الحافـــلات العامة، دوّى صـــوت اصطـــدام العديد من الســـيارات دويا شـــديدا، كما تمر مركبة كبيرة وســـط الضباب الكثيـــف وتنطلق إلى الخـــارج، وتحدث - في التـــو- هديراً من الصراخ والألم مثل الماء المغلي.

ويسألني: «هل كنت واقفا بجوار تلك اللافتة؟».

وبعد أن فكرت قليلا، أقول: «بلى، كنت واقفا هناك».

«هل كانت اللافتة تشتمل على رقم الحافلة (203)؟».

يهز رأســـه، ويقول: «يوجد رقم الحافلة (203)، وكنت أنتظر هذه الحافلة».

وأخبـــره: «إنهم أرســـلوك إلى هنـــا من جراء حادثة ســـير، وملابســـك ملطخة بآثـــار إطار العجلة». ينكس رأســـه، ويحدق في ملابســـه الأمامية، ويبدو أنه أدرك شـــيئا مـــا، ويقول: «لقد عاجلتني المنية في حادثة ســـير، أليس كذلك؟، يبدو أن شيئا ما صدمني وطرحني أرضا، كما دهس جسمي».

يحملق في وجهي، كما يفتحص بدقة الهياكل العظمية بجواره، ويخاطبني قائلا: «أنت لست مثلهم».

أقول: «حضرت توا، أنتم حضرتم منذ ردح طويل».

يقول هيكل عظمي: «أنتم ستكونون مثلنا بسرعة جداً».

أخاطبــه قائلا: «بعد انتهــاء فصل الربيـــع، وانقضاء فصل الصيف مرة أخرى، نحن سنكون مثلهم تماما».

تبدو تعابير عدم الاطمئنان على وجهه، ويســأل ذاك الهيكل العظمي: «هل نشعر بألم شديد حتى نكون مثلكم؟».

يجيب الهيكل لعظمي: «ليس مؤلما، وذلك يشبه أوراق الأشجار التي تتساقط الواحدة تلو الأخرى وسط ريح الخريف».

يقول: «ولكن أوراق الأشجار تنمو من جديد وتكبر».

يقــول الهيكل العظمي: «ونحن لا ننمو مــرة أخرى، ولا نكبر أيضا».

يبدو غارقا في التفكير، ويطأطئ رأسه ويقول: «أعرف ذلك».

فـــي هذه الأثناء، يترامى إلى مســامعنا صــوت امرأة يقول: «شياو تشينغ».

يقول: «يبدو هناك شخص ما لا يزال يناديك».

يدوّي صوت المرأة مرة أخرى، ويقول: «شياو تشينغ».

يجيل بصره في كافة الأصقاع، ويغص وجهه بالشك والارتياب، ويقول: «غريب حقا، يوجد هنا أناس أيضا يعرفونني».

«يا شياو تشينغ، أنا هنا».

الفتاة شــومي في حالة حراك وســير الآن، وترتدي بنطالا رجاليا فضفاضا، وتدوس على أرجل البنطال وهي تمشي. وذلك الشاب الذي يدعى (شياو تشينغ) يحملق مصعوقا في وجه الفتاة شومي التي تترجل وصوتها يسبقها في الأمام.

«يا شياو تشينغ، أنا شومي».

«أنت تســمع هذا الصوت لا يشــبه صوتي، ولكن أنا شومي عندما تراني».

«أنا شومي حقا».

«هل أنت شومي حقا؟».

«أجل، أنا شومي حقا».

تمشي شومي وتتقدم إلى أمامي، وتسأل شياو تشينغ: «كيف حضرت هنا أيضا؟».

شياو تشينغ يشير إلى صدره، ويقول: «بسبب حادثة سير».

تنظر شومي إلى آثار إطار العجلة على ملابس شياو تشينغ، وتسأله: «ماهذا؟».

يجيب شياو تشينغ: «مشت السيارة فوقي ودهستني».

تسأل شومي: «هل شعرت بالألم؟».

يفكر شياو تشينغ برهة، ويقول: «لا أتذكر، يبدو أنني صرخت صرخة».

تطأطئ شومي رأسها، وتسأله: «هل رأيت الشاب (وو تشاو)؟».

يجيب شياو تشينغ: «نعم رأيته».

«متى رأيته؟».

«لقد رأيته قبل حضوري هنا بيوم».

تدير شومي جسمها وتخبرنا بأنه في ذاك الجانب يوجد العالم الذي يقيم فيه شياو تشينغ مع زمرة الجرذان في ملجأ ضد الغارات الجوية تحت الأرض، وهي وصديقها (ووتشاو) يعرفانه منذ قبل سنة وأكثر، وكانوا جيرانا يعيشون تحت الأرض معا. شومي تسأل شياو تشينغ: «هل يعرف (ووتشاو) قصتي؟».

يجيب شياو تشينغ: «يعرف قصتك، وقد اشترى قبرا من أجلك».

«هل اشتري قبرا من أجلي؟».

«بلى، وأعطاني النقود وطلب مني أن أشتري لك قبرا».

«من أين حصل على النقود التي أعطاكها لتشتري قبرا لي؟».

* * *

عندما هوت شـومي من أعلى بنايـة القصر، ولقيت حتفها، كان (ووتشاو) في بيت الأهل يقوم على خدمة والده الذي أصبح مطية المرض. وانتظر حتى استقرت أحواله الصحية، وبعد ذلك رجع بسـرعة إلى مسكنه تحت الأرض في المدينة، وكان ذلك في منتصف الليل، ولم ير شومي، وينادي عدة مرات بصوت خافت، ولم يسـتجب أحد. زمرة الجرذان في ملجأ ضد الغارات الجوية يحلمون بمسقط رأسـهم، وهو يمشي على امتداد الممر الضيق، ويبحـث عن أناس يتكلمون، ويشـعر بأن شـومي ربما تتجاذب أطراف الحديث مع أناس خلف سـتارة. ولم يسمع صوت أناس يتحدثون، وسمع فقط شخير الرجال وهذيان النساء، فضلا عن صوت بكاء الأطفال الرضع. كما شـعر أيضا بأن شـومي ربما تجلـس في قاعـة الكومبيوتر، وتدردش مع أناس على الشـبكة العنكبوتية، ويتخذ وجهته إزاء مخرج ذلك الملجأ، ويرى الشـاب شـياو تشـينغ يعود أدراجه بعد انتهاء الدوام الليلي ويخبره بأن شـومي ليسـت موجودة في هذه الدنيا، لقد رحلت عن عالمنا، وماتت قبل ثلاثة أيام.

ويقول شـياو تشينغ إن (وو شـاو) لم يتبدل ولم يتغير بعد أن سمع أن شومي انتحرت بعد أن قفزت من أعلى بناية قصر (بينغ فيي)، وبعد فترة قصيرة يرتعد جسمه كله، ويهز رأسه باستمرار ويقول: مستحيل، مستحيل، ثم يهرول إلى مخرج ذلك الملجأ.

يهرول (ووتشـــاو) إلى أقرب قاعة كومبيوتر من مسكنه تحت الأرض، ويجلس أمـــام الكومبيوتر ويقرأ السـجل اليومي الذي كتبته شـــومي في الفضاء الافتراضي على الفيسـبوك الصيني «كيوكيو» (QQ)، كما قرأ تقريرا حول انتحار شومي. وفي تلك الأثنـــاء يصدق بصورة كاملة أن شـــومي قد فارقت هذه الدنيا، وقد فارقته إلى الأبد أيضاً.

يجلس (وو تشـــاو) أمام شاشـــة الكومبيوتـــر المضيئة كأنه غائب عن وعيه حتى تعتم الشاشـــة بصـــورة فجائية وتصبح ســـوداء، وينهض واقفا ويغادر قاعـــة الكومبيوتر، ويرى غريبا يترجل في هدأة وســـكون الليل البهيم، ويأتـــي من مكان ناء، ويخاطـــب ذاك الغريب بصوت مرتعش قائلا: إن شـــومي قد ودعت هذه الدنيا.

ينتفض ذلـــك الغريب ذعرا، ويعتقد أنه صادف مصابا بمرض عقلي، ويخطو إلى الشارع المقابل بخطوات واسعة، وعندما يمشي يلف رأسه إلى الخلف بحذر وخوف وتتسمر نظراته في وجهه.

وو تشاو يشـــبه الشبح الذي يتجول ويطوف في قساوة برودة الريح التي تهب على المدينة. ويمشي الهوينى بلا هدف في المدينة التـــي يلفها ظلام الليل الدامـــس، ولا يدري كم مضى من الوقت في تجواله، ولا يدري الأماكـــن التي طاف بها، وحتى عندما مر بجوار قصر بناية (بينغ فيي) لم يرفع رأسه، ولم يلق نظرة عابرة عليه. ومضى قدما في تجواله حتى انبلاج النهار، ومازالت نفسه أســـيرة الحيرة والتشـــوش الذهني، وفي الصباح الباكر تتزاحم الجماهيـــر وتضج فـــي ذهابها إلى الدوام، ولا يكف لســـانه عن الكلام، ويقول باستمرار إن شومي يواريها الثرى.

أمارات التجاهل وعدم اللامبالاه تعلو وجوه الذين يقابلهم (وو تشـــاو) في الشـــارع، غير أن أحد المشاة يمشي بجواره جنبا إلى جنب، ويرى دموعه تنهمر بلا انقطاع، ويتكلم بصورة مســـتمرة، ويسأله في فضول: من هي الفتاة شوميي؟ يفكر مشدوها ذاهلا فتـــرة قصيرة، ويجيب: إنها الفتـــاة (ليوميي). يومئ ذاك الرجل برأسه ويقول لا أعرفها، وينعطف انعطافة وينصرف إلى غايته، ويرى (وو تشاو) طيفه وهو ينصرف، ويقول بصوت خفيض: إنها صديقتي.

وعندما أســـدل الليل ســـدوله، يعود (وو تشـــاو) أدراجه إلى مسكنه بســـرعة تحت الأرض، ويمدد جسمه على السرير الذي كان يتقاســـمه مع شـــوميي، وتعلو وجهه ملامح اللهب الشارد، وفـــي منتصف الفراش يغط في نوم عميق مرات عديدة، كما في حلمه يستيقظ على صوت بكاء مرات عديدة أيضاً.

وفي اليوم التالي، يستلقي على الفراش، ولم تتثل دموعه، ولم يبك أبدا، ولم يتناول الطعام ولا الشراب، ويسمع مذهولا صوت اضطـــلاع الجيران تحـــت الأرض بالطبخ، كما يســـمع أصوات أحاديثهم، ناهيك عن أصـــوات ركض وصياح الأطفال في ملجأ ضـــد الغارات الجوية، ولا يدري ماذا يفعلون، وماذا يقولون، وكل مـــا يدركه أن هناك أصواتاً تتماوج، تعلـــو حينا، وتتخفض حينا آخر.

يســـقط في هاوية ذكريات الماضي، وترتسم علامات البهجة والفرحة على وجه شوميي من حين لآخر، بالإضافة إلى أمارات الحـــزن والهم حينا بعـــد حين، ووجهها يشـــرق ويتلألأ فترة من الوقت، ويظلم ويعتم فتـــرة أخرى. وبعد انقضاء فترة طويلة من

الزمن، يدرك أن الخطــوة التالية التي يجب أن يقوم بها هي أن يبحث - على جناح الســرعة- عن أرض الراحة الأبدية من أجل شومي. وكانت شــومي مفعمة بالآمال والتطلعات في حياتها، ويبدو أنه لم يجعلها تحقق شــيئا من ذلك، وتجأر بالشكوى المرة تلو الأخرى، ثم بعد ذلك تتســى تذمرها بالشكوى مرة بعد مرة، وتبدأ تحدوها تطلعات جديدة. الآن يشعر بأن امتلاك قبر يجب أن يكون آخــر تطلعاتها، ولكن ما زالت تفتقــر إلى المقدرة على تحقيق ذلك.

في هذه الأثناء، ينبثق صوت رجل وســط جلبة وضوضاء تلك الأصوات المختلطة كرأس النصل يشــق الجعبة، ويجعله يســمع بجــلاء القصة التي يســردها ذاك الرجل الآن من أن شــخصا كسب أكثر من ثلاثين ألف يوان بعد أن باع كليته.

يجلس على الســرير ويفكر جيدا أن يبيع كليته ويحصل على أموال تمكنه من شراء قبر من أجل شومي.

يخــرج من ملجــأ ضد الغــارات الجوية، ويدلــف إلى قاعة الكومبيوتــر. ويتذكر أنه قرأ أخبارا عن بيــع الكلية عندما كان يتصفح أخبار الإنترنت، ويســجل رقم الهاتف في بطن الراحة، وينصــرف من قاعــة الكومبيوتــر، ويعرج على كشــك التلفون العمومي ويتصل بــذاك الرقم. متلقي المكاملة الهاتفية يســأله بالتفصيــل ويتأكد تماما أنه يبيع كليته، ويحــدد موعدا لمقابلته أمام بناية قصر (بينغ فيي)، ويرتعد قلبه خوفا عندما سمع اسم ذاك القصر فقد سقطت هناك شومي من أعلاه.

يصل نهاية قصر (بينغ فيي)، وحركة المركبات والمشــاة ذهابا وإيابــا تحدث ضجيجاً وعجيجاً، ويقف هو وظله حينا إلى حين،

والحافلات العامة تدخل وتخرج الواحدة تلو الأخرى من الكراج تحت الأرض المجاورة له، ويرفع رأسه مرات عديدة، ويحدق في أشــعة الشــمس المتلألئة على زجاج القصر والتي توجع العين، ولا يعرف المكان الذي وقفت فيه شوميي عندما انتحرت.

يمشــي رجل يرتدي معطفا أســود محشــوا بالريش، ويقف أمامه ويسأل بصوت خافت: «أأنت وو تشاو؟».

وو تشاو يهز رأسه، ويقول ذاك الرجل بصوت خفيض: «امشِ معي».

وو تشــاو وذاك الرجل يزاحمان ويســتقلان حافلة الركاب، وينــزلان من الحافلة بعد عدة محطات، ثم يركبان حافلة أخرى. وبعــد أن يركبا ويغيرا الحافلات ســت مرات، يبدو أنهما وصلا إلــى ضاحية قريبة، وو تشــاو يســير وراء ذاك الرجل ويصلان إلى مدخل حي ســكني صغير، ويطلب ذاك الرجل من وو تشــاو أن يمشــي إلى الداخــل على طول، بينما هــو يقف عند مدخل الحي السكني ويتصل هاتفيا. يدخل وو تشاو هذا الحي السكني الصغير الذي يسوده الهدوء والسكون، ويرى في مكان ليس بعيدا بناية ســكنية يظهر أمامها رجل يدخن سيجارة، ويقترب منه وو تشــاو، يرمي هذا المدخن عقب السيجارة على الأرض ويدهسه بقدمه، ويسأله: «هل أنت تبيع الكلى؟».

يومئ ووتشــاو برأســه، ويلوح ذاك الرجل بيــده، ويطلب من وو تشــاو أن يقتفي أثره، ويدلف إلى بناية ســكنية، ويمشي على امتداد السلم الإسمنتي المرقش، ويصل إلى غرفة تحت الأرض، وبعد أن يفتح ذاك الرجــل باب تلك الغرفة، يخرج الهواء الملوث والمشــبع بالروائح الكريهة مــن التدخين، وفي ظل ضوء المصباح

الخافت، يرى وو تشـاو سـبعة أشـخاص في الداخل يدخنون السيجار، ويجلسـون على الفراش ويتجاذبون أطراف الحديث، وهناك سرير خال ويمشي إليه وو تشاو.

يسلم وو تشاو بطاقة هويته، ويوقع على اتفاق بيع الكلية، وبعد سـحب دمه وتحليله ينتظر تطابق فصيلة الدم، وبدأ يعيش حياة أخـرى تحت الأرض، وينام داخل لحـاف ملطخ بالزيت الأملس، وذاك اللحاف لم يغسـل أبدا، ولا يدري عدد الأشـخاص الذين تغطوا به في نومهم، وتفوح الروائح العفنة من الأجساد والأقدام والعرق. وذاك الرجل الذي أخذه إلى غرفة تحت الأرض، يدخل ويخرج مرتين كل يوم، ويشـتري لهم علب السـجائر الرخيصة، ويرسـل الطعام مرتين، يأكلـون الملفوف الصينـي والبطاطس فـي الظهر، ويتناولون البطاطس والملفوف الصيني في المسـاء. ولا توجد طاولات ولا كراسٍ تحت الأرض، ويجلسون على الأسرّة ويتناولون الطعام، وهناك شـخصان يجلسـان القرفصاء دائما ويتنـاولان الطعام. وتفوح نكهة الطعـام اللذيذ من تحت الأرض لفترة من الزمن، بيد أن دخان سـجائر هؤلاء الأشخاص السبعة الذين يتناوبـون التدخين يمكن أن تخمد النكهة الذكية، وعندما يغطون في النوم، يسـتيقظ وو تشـاو في خضم دخان السجائر الكثيف، ويشعر بالاختناق في صدره ويتألم كثيراً.

هؤلاء الأشـخاص السـبعة من الشـباب، ويعيشـون عيشة البطالة من التدخين والدردشـة، يدردشـون حول أحوال مواقع البناء والتشييد، والمصانع، والشـركات، ويبدو أنهم اشتغلوا في العديد من الأعمال. ويبيعون كلاهم من أجل الكسـب السـريع للمال، ويقولون الاشـتغال عتال لبضع سـنوات لا يكسبك نقودا

تعادل بيـــع كلية واحدة. ويتطلعون إلى حياة مـــا بعد بيع الكلى، حيث يستطيعون شراء الملابس الأنيقة، وشراء الهواتف الخليوية Iphade، كما يســتطيعون الإقامة في الفنـــادق الفاخرة بضع ليال، ويتناولون عدة وجبات في المطاعم الفخمة، وبعد التشـــبث بتلك التطلعات يقعون فريسة للشعور بالقلق والهم، وينتظر هؤلاء الأفراد السبعة هنا لأكثر من شهر، وما زالت الأخبار عن تطابق فصيلة الدم بنجاح غير متوفرة. ومن بينهم شاب غشي أوكار بيع الكلى فـــي خمس مدن، ومكث في كل وكر أقل من شـــهرين، ثم أجبـــر على الانصراف، وذكر أنه لا يوجد أحد يريد كليته، وتجار الكلـــى أعطوا له فقط مصاريـــف الطريق بما يتراوح بين أربعين وخمســـين يوانا، واعتمد على هذا المبلغ في شراء تذكرة قطار، ويذهـــب إلى وكر آخر لبيع الكلى فـــي مدينة أخرى. وقال إنه لا يمتلك فلسا واحدا، ويستطيع فقط أن يعيش عيشة المتسول في أوكار بيع الكلى تباعا.

ويبدو أن ذاك الشـــاب خبير ومجرب عركته الحياة، ويتذمر البعض من أن الطعام هنا رديء جدا، ويقول ليس الملفوف الصيني والبطاطس، بل نقـــول البطاطس والملفوف الصيني، وأضاف أن الطعام هنا لا يعتبر سيئا، ونستطيع كل أسبوع أن نأكل جبن فول الصويا مرة واحدة، ونحتســـي شـــوربة الدجاجة منزوعة اللحم مرة واحدة أيضا، وذكر أنه غشـــي وكرا لبيع الكلى، ومكث هناك شـــهرين ويأكل الخضراوات العفنة كل يوم. وهناك شـــاب آخر يخشى على ســـلامة حياته إذا أجرى عملية اســـتئصال الكلية، وتدل نبرة صوته على أنه خبير في هذا الشأن، ويذكر أن كلامنا هنـــا ليس صائبا، ويعتمد ذلك على الحظ بصورة كاملة. وأردف

أن تجار الكلى من عديمي الضمير، وأصحاب الضمائر الحية لا يتجرون في الكلى، ومن أجل كسب المال لا يستعين هؤلاء التجار بالطبيب النظامي لأن أجره غال جدا، ومن ثم يستعينون بالطبيب البيطري في عملية استئصال الكلى.

وقد قيل إن الطبيب البيطري يستأصل كلية ذاك الشاب، فيشعر «نفر من الشباب الآخرين بالغضب والغيظ، ويقولون إن تجار الكلى الأوغاد يكسبون أموالا طائلة، وأخلاقهم منحطة إلى هذا الحد».

ومع ذلك، يقابل ذاك الشباب المخيف بلا خوف، ويقول: هل تضاءل عدد البشر من ذوي الأخلاق المنحطة، والأحوال المزرية السقيمة في تلك السنوات؟ وفضلا عن ذلك الطبيب البيطري هو طبيب بشري، وهؤلاء الأطباء البيطريون متخصصون في استئصال كلية الإنسان، واكتسبوا المهارة بالتجربة بفضل إجراء الكثير من عمليات استئصال الكلى، وربما فن الطب أكثر براعة وحكمة من الطبيب الجراح في المستشفى النظامي.

وتنتاب ذاك الشاب سورة من الغضب لأنه لم يتوقع أنه لا يوجد أحد يشتري كليته. ويقول إنه من منكودي الطالع، وتطابق فصيلة الدم لم تنجح أبدا. ويقول تشهد كافة أرجاء البلاد مليون مريض بالكلى كل سنة، ويعتمدون على الاستفراز[1] للبقاء على قيد الحياة، وإن العمليات الخاصة بزراعة الكلى بصورة شرعية تبلغ حوالي أربعة آلاف عملية فقط. ولماذا لا يوجد أحد يريد كليته؟ ويعد ذلك نسبة واحد في المليون. ومن المؤكد أن هؤلاء

(1) الاستفراز: عملية إفراز المواد المتبلورة (أو المنحلة) من رسوب متعلق في محلول بفعل قدرة الجزئيات على التخلل في غشاء قابل للتخلل فيه وتكون هذه العملية في استفراز الشوائب من الدم عند عجز الكلية عن الإفراز (أو) تصفية الدم. [المترجم]

المســؤولين عن تطابق فصيلة الدم ســواء من الرجال الأوغاد أو النســوة القبيحات لا يضطلعون بعملهم بصورة دقيقة، وأرجؤوا عملية كليته النابضة بالحياة حوالي ســنة تقريباً. وقال إذا أجبر علــى المغادرة مرة أخرى، فإنه يغشــى المعبــد - أولا - ويحرق البخور ويتضرع لبوذا بأن يغمده بالرعاية والحماية، ويجعله يبيع كليته في أســرع وقت ممكن، ثم يشــتري تذكــرة القطار ويقفز داخله ويدلف إلى وكر بيع الكلى.

وو تشاو لم يفه بحرف بعد أن حضر إلى الغرفة تحت الأرض، ويسمع بعدم اكتراث ثرثرتهم، وما زال يلتزم الصمت حتى عندما ســمع أن الطبيب البيطري سيجري عملية استئصال الكلية، بيد أنه شعر بالحزن الشــديد في فترات زمنية طويلة عندما يتذكر صديقته شوميي. كما يتوسل إلى بوذا أن يمكنه من تحقيق نجاح تطابق فصيلة الدم بأسرع ما يمكن، وبعد أن يبيع كليته يستطيع في التو أن يشــتري قبرا من أجل شوميي. وعلى كل حال، هؤلاء الشــبان الســبعة الذين يقطنون في غرفة تحت الأرض انتظروا وقتا طويلا جدا، ومن بينهم شــاب ما زال تطابق فصيلة دمه لم ينجح منذ حوالي سنة، مما جعله فريسة للهموم والأحزان وعدم الاطمئنان، ويهاجمه الأرق ويقض مضجعه، ويتقلب في فراشــه ولم يذق طعم النوم فوق ســرير ملطخ بالأوساخ ويكتظ بالروائح الكريهة.

وفي اليوم السادس لمجيئه إلى الغرفة تحت الأرض، كان ذلك بمثابــة ميقات خروجهم من الغرف لتســلّم الطعام، ولا يظهرون فــي أي وقت من الأوقات الأخــرى، ويفتح ذلك الشــاب الباب وينادي: «وو تشاو».

لا يزال وو تشـــاو قابعا داخل اللحاف الملطخ بالزيت الأملس، ولم يســتجب للنداء، كما أن الشباب السبعة الآخرين في الغرفة تحـــت الأرض يتبادلون النظـــرات مراراً وتكـــرارا، ويدركون أن الشـــاب المنادى عليه ليس من بينهم، بل إنه الشاب الذي بعد أن دخل غرفته لم ينطق بكلمة، وينادون في ذهول ودهشـــة: «اخرج بسرعة».

الواقف أمام الباب يقول: «وو تشـــاو، لقد نجح تطابق فصيلة الدم».

يرفع وو تشاو اللحاف الملطخ بالزيت، ويحظى بالإعجاب من قبل الشـــبان السبعة الآخرين، ويرتدي ملابسه وحذاءه، وعندما يترجـــل نحو الباب يخاطبه ذاك الرجل الذي ذهب إلى أوكار بيع الكلى في خمس مدن، قائلا:

«أنت أصابك الثراء الفاحش في هدوء وبلا ضجة».

يتبع وو تشاو خطوات ذلك الرجل ويسيران على امتداد السلم الإســمنتي المرقش، ويصعدان إلى الطابق الرابع، ويطرقان على الباب، وبعد أن يفتح الباب، يرى وو تشـــاو رجلا متوســط العمر يجلـــس على الأريكة، ويطلب منه بصـــورة حميمة أن يجلس، ثم يشـــرح له أن جســـم الإنســـان يحتاج إلى كلية واحدة فقط في الواقع، وأن الكلية الأخري زائـــدة مثل الزائدة الدودية يمكن أن تبقى داخل جسم الإنسان، كما يمكن استئصالها أيضا.

ووتشـــاو لا يعير ذلك اهتماما، ويســـأل ذلك الرجل متوسط العمر: «ما ثمن شراء الكلية الواحدة؟».

الرجل متوســـط العمر يجيب: «خمســـة وثلاثـــون ألف يوان صيني».

وو تشاو يومئ برأسه بعد أن يشعر بأن هذا المبلغ يكفي لشراء قبر.

يقول الرجل متوسط العمر: «نشتري الكلية هنا بأعلى سعر، بينما في الأماكن الأخرى يدفعون ثلاثين ألفا فقط».

الرجل المتوسط يخبر وو تشاو بأنه لا داعي للخوف من إجراء العملية الجراحية، وأنهم يطلبون أطباء من كبريات المستشفيات، وأن هؤلاء الأطباء يجرون تلك العملية مقابل الحصول على دخل زائد.

يقول وو تشاو: «إنهم يقولون إن الطبيب البيطري يجري العملية».

الرجل متوسط العمر غير مسرور جدا، ويقول: «الأطباء الذين نستعين بهم جميعهم من الأطباء الجراحين النظاميين ويتقاضون خمسة آلاف يوان مقابل استئصال الكلية الواحدة».

يقطن وو تشاو في غرفة بالطابق الخامس، ويوجد داخلها أربعة أسرة، وهناك شخص واحد فقط يرقد في الغرفة، إنه خضع لعملية استئصال الكلية، وعندما يرى وو تشاو يدخل الغرفة، يبتسم بصورة حميمة، ويبادله وو تشاو الابتسامة أيضا.

وقد نجحت عملية استئصال كلية ذلك الشخص نجاحا كبيرا، حيث يتمكن من أن يسند جسمه، وينهض واقفا متكئا على رأس السرير، ويتحدث مع وو تشاو. ويقول إنه لم يعد يشعر بالحمّى مرة أخرى، ويستطيع مغادرة المستشفى في غضون بضعة أيام.

ويسأل وو تشاو: لماذا تريد أن تبيع كليتك؟ ينكس وو تشاو رأسه ويفكر قليلا، ويخاطبه قائلا:

«من أجل صديقتي».

يقول ذلك الشخص: «مثلي تماما».

ذلك الشخص يخبر وو تشاو بأنه تعرّف إلى صديقته منذ ثلاث سنوات في مسقط رأسه بالريف، وبأنه يرغب في زواجها، ولكن أهل بيتها يشترطون بناء بيت في المقام الأول حتى يستطيع زواجها. ومن ثم خرجت للعمل وكسبت منه مالا ضئيلا يثير الشفقة من جانب الآخرين، ويتعين عليّ أن أعمل فترة تتراوح بين ثماني سنواتن وعشر حتى أستطيع كسب المال اللازم لبناء البيت. وفي تلك الأثناء تتزوج صديقتي من شخص آخر في وقت مبكر. وأنا في حاجة ماسة إلى المال لبناء البيت، ولذلك جئت هنا لأبيع كليتي، وأردف قائلا: «كسب المال يكون سريعا هنا».

يفتر ثغره عن ابتسامة وهو يتكلم، ويقول إنهم مثله تماما، لا يفكرون في الزواج ما داموا يفتقرون إلى بيت. ويسأل وو تشاو: أتوجد مثل هذه العادة في قريتكم أيضا؟

يطأطيء وو تشاو رأسه، والدموع تخضب عينيه بصورة فجائية، ويتذكر صديقته شوميي ويتذكر الفقر المدقع الذي يطارده دائما وجعله كسير الفؤاد، وينكس رأسه حتى يوارى دموعه عن ذلك الشخص.

يرفع رأسه ويسأل بعد فترة وجيزة: «لماذا لا تخرج صديقتك للعمل؟».

يقول ذلك الشخص: «ترغب في الخروج والعمل، ولكنّ أباها مصاب بالشلل، وأمها مريضة أيضا، وهي الابنة الوحيدة لديهما، وليس عندهما أولاد، ولذلك لا يمكن أن تترك البيت وتعمل».

يتذكر وو تشاو مصير شوميي، ويقول جملة بلا تفكير: «من الأفضل ألا تعمل».

وتختلــف الحيـــاة في الطابــق الخامس اختلافــا كبيرا عن نظيرتهــا فـــي غرفة تحـــت الأرض حيث لا يوجد هـــواء ملوث وفاسد، واللحاف نظيف، وهناك أشعة الشمس في النهار، وضوء القمـــر في الليل. وتســتطيع في البكور أن تـــأكل بيضة وفطيرة بالبخار، وتحتســـي ســـلطانية مرقة الرز، وتأكل علبة طعام في الظهر والمساء، ويوجد داخلها لحم حينا، وسمك حينا آخر.

وو تشاو يســـتيقظ من نومه ويغمره ضوء الشمس، ويغط في النوم وســـط نور القمر. وفي هذه المدينة لم يســـتمتع بمثل تلك الحيـــاة منذ فتـــرة طويلة جدا، وقد عاش أكثر من ســـنة تقريبا يســـتيقظ من نومـــه وينام في غرفة تحـــت الأرض لا تعرف نور الشـــمس، ولا نور القمر أيضاً. والآن يشـــعر بجمال وروعة نور الشـــمس والقمر، ويغمض عينيه حتى يســـتطيع التأثر بنورهما وإشـــراقهما. وتوجد شـــجرة جفت واصفرت في الشـــتاء خارج نافذته، وعلـــى الرغم من جفافها واصفرارهـــا، بيد أن الطيور مـــا زالت تحوم حولها وتقف على أغصانها، وفي بعض الأحايين تزقزق بصوتها صوب نافذتهم، ثم تصفق بجناحيها وتحلق عاليا فوق ســـقوف الحجـــرات الواحدة تلو الأخـــرى، ويجول بخاطره صورة صديقته شـــوميي التي شـــاركته الحياة أكثر من عام ولم تستمتع فيها بضوء القمر في نومها، ولم تستمتع بضوء الشمس في استيقاظها، ولا يتمالك نفسه ويشعر بالألم يعتصر قلبه.

وبعد انقضاء ثلاثة أيام، وو تشاو يقتفي خطوات ذلك الرجل فـــي منتصف العمر ودخل غرفة تخلو مـــن النافذة، ويطلب منه شخص يضع على عينيه نظارة على غرار الطبيب تماما، أن يمدد جسمه فوق طاولة الجراحة ذات التجهيزات البسيطة، وتتسلط

عليه الأضواء الساطعة القوية، وبعد أن يغمض عينه ما زال يشعر بألم شديد في عينيه، ويفقد وعيه بعد التخدير. وعندما يعود إلى رشده، يجد نفسه طريح فراشه في تلك الغرفة الزاخرة بالهدوء والسكون التام، وقد غادر ذلك الشخص الغرفة نفسها وبقي هو بمفرده يقيم هنا ويرى بجوار الوسادة كيس مضادات حيوية، وزجاجة مياه معدنية، ويحركها قليلا ويشعر بألم ممض في جانبه الأيسر لفترة طويلة، ويدرك أنه تم استئصال الكلية من الجانب الأيسر.

يأتي الرجل في منتصف العمر لزيارته مرتين كل يوم، ويسدي النصح إليه بتناول مضادات حيوية في الوقت المحدد، وأخبره بأنه سيتعافى في غضون أسبوع، وو تشاو يقيم بمفرده في غرفة بالطابق الخامس، وتأتي الطيور لزيارته كل يوم بعضها يحلق ويطير أمام النافذة، وبعضها يمكث مؤقتا على أغصان الشجر، وزقزقة تلك الطيور تشبه الدردشة والثرثرة في عيشة البطالة.

وبعد انقضاء أسبوع، الرجل في منتصف العمر يعطي وو تشاو خمسة وثلاثين ألف يوان، ويطلب سيارة تاكسي، ويرسل شخصين يحملانه في قبضة أياديهما، ويقومان بإعادته إلى مسكنه في ملجأ ضد الغارات الجوية.

يعود وو تشاو أدراجه، ويرى الجيران في ذلك الملجأ شخصين غريبين يرفعانه ويدخلانه غرفته، ويضعانه على فراشه، ويعرفون آنذاك أنه باع كليته من أجل أن يشتري قبرا لصديقته شوميي.

وو تشاو طريح الفراش، وتنفد المضادات الحيوية بعد بضعة أيام، ولا تزال الحمى لا تبرح جسده، وسقط في الغيبوبة مرات عديدة، وبعد أن عاد إليه وعيه، يشعر بأن جسده يبدو

أنـــه ينفصل عنه، ويأتي هــؤلاء الجيران تحت الأرض لزيارته، ويقدمون له الأطعمة، بيد أنه يســتطيع فقط أن يشــرب النزر اليســير من الحساء. يقول نفر من الجيران: يجب إرساله إلى المستشــفى، وهو يهز رأســه بصعوبة بالغة، ويدرك أنه بمجرد دخوله المستشــفى، سوف يفقد جميع النقود التي حصل عليها مقابل بيع كليته. ويثق في نفسه بأنه يستطيع أن يشفى ويسترد عافيته، ولكن هذه الثقة تتضاءل كل يوم، وتزداد مرات سقوطه في الغيبوبة عن ذي قبل، ويدرك بنفســه أنه يعجز عن اختيار قبر شــوميي، وتســح دموع الحزن والألم من عينيه من جراء ذلك.

وذات مرة يعود وو تشاو إلى وعيه بعد غيبوبة، ويسأل بصوت خافت كوكبة مــن الجيران الذين يصطحبونه قائلا: «هل حلقت الطيور هنا؟».

يواصل وو تشــاو كلامه مبتســما، ويردف: «ســمعت زقزقة الطيور».

يقــول جار من بينهــم: «وأنا في طريقي إلــى هنا توا رأيت خفاشا».

يقول وو تشاو: «ليس خفاشا، بل طائر».

يقول شــياو تشــينغ في زيارتــه الأخيرة لوو تشــاو، كان -آنــذاك- يفتح عينيه بصعوبة بالغة، وطلب منه المســاعدة، وأخبره بأنه يضع تحت الوســادة خمســة وثلاثين ألف يوان، وطلــب منه أن يأخــذ ثلاثة وثلاثين ألفا، ويشــتري قبرا من أجل شوميي، كما يشــتري شاهدة القبر من النوع الجيد إلى حد مــا، ناهيك عن علبة رفات العظام. وقال إنه يدخر ألفي

يوان لنفسه حيث يحتاجهما ليعيش عيشة مريحة ويزور قبر شومي عند حلول عيد الصفاء والنقاء[1] كل عام.

وبعد أن يفرغ من كلامه يئن أنينا، ويلف جسمه على جنبه، ويطلب من شياو تشينغ أن يأخذ النقود من تحت الوسادة، ويوصيه بأن يحفر على شاهدة القبر العبارة التالية: «قبر الفتاة شومي التي يعشقها وو تشاو»، كما طلب منه أن ينقش اسمه على تلك الشاهدة.

وعندما يأخذ شياو تشينغ ثلاثة وثلاثين ألف يوان، ويهم بالانصراف، يناديه وو تشاو بصوت خافت ويطلب منه العودة إليه ويخبره بأن يغير اسم «شومي» على شاهدة القبر إلى اسمها الحقيقي «ليومي».

* * *

تبكي شومي بحرقة، وصوت بكائها شبيه بصوت طقطقة المطر، ويغمر كافة الوجوه والأجساد هنا مثل صوت هطول الأمطار على أشجار موز اليابان، وينبثق صوت بكاء شومي من بين صوت غناء سبعة وعشرين طفلا رضيعا، ويبدو مثيرا للشعور ويخدش السمع.

وهناك كثرة كاثرة من ذوي الهياكل العظمية تصغي بكل جوارحها، وتتساءل فيما بينها: من تصدح بالغناء؟ وصوت غنائها الحزين يؤلم النفس، ويقول قائل إن ذلك ليس غناء، بل هو صوت بكاء، إنه بكاء تلك الفتاة الجميلة التي حضرت حديثا، إنه بكاء

(1) ميقاته في اليوم الخامس من شهر أبريل حيث إن السماء صافية والهواء نقي، ويعني ذلك أن جميع الكائنات الحية، تنمو وتزدهر أثناء تلك الأيام حيث الصفاء والنقاء والنظافة والإشراق [المترجم]

تلــك الفتاة الجميلة التي ترتدي البنطال الرجالي الطويل، وذاك البنطال فضفاض وطويل، وتلك الفتاة الحسناء تدوس بأقدامها على أرجل البنطال وهي تمشي كل يوم، والآن لم تعد تذرع المكان جيئة وذهابا، وتجلس على الأرض وتنخرط في البكاء.

تجلس شــومي بين الأعشــاب الملتفة الكثيفة تحت أوراق الأشــجار على ضفة النهر، وتســند جســمها على الشــجرة، ويغطي العشــب النضير والزهور البريــة، التي تتفتق بين ذلك العشب، ســاقيها، ومياه النهر بجوارها تخر خريرا مثل جدول يترنم. والدموع تغمر وجهها مثل ندى البكور الذي يغطي أوراق الأشــجار، وتدمدم بصوت الغناء والبكاء في آن واحد، وتعدل بيديها البنطال الرجالي الطويل وتحوله إلى تنورة نسوية طويلة.

يقف شياو تشينغ بجوار شومي مثل شارة الطريق، ويحملق في البشــر من ذوي الهياكل العظمية التي تأتي من كل فج عميق ناهيك عن أكثر من عشــرة أشــخاص أجسامهم سليمة يمشون في جماعة بعد أن كانوا متفرقين، يمشون ويتقدمون إلى الأمام، ويصغون باهتمام إلى كلمات شياو تشينغ الذي ترتسم على وجهه تعابير تدل على أنه في رحلة نســيان. وفي ســرده لحالته يتكلم تارة في الشــرق وتارة في الغرب كأنه يسرد مشهدا متقطعا في حلمه بلا بداية أو نهاية.

يأتي الناس جميعهم المقيمون هنا، ويعرفون أن شوميي سوف تتوجــه إلى أرض الراحة الأبديــة، ويقولون بهدوء وبصوت ناعم إن الذين حضروا هنا لم يغادر منهم أحد، وشــوميي هي أول من يرحل عن هذا المكان، وإن جسمها في حالة سليمة، وجمالها في حالة جيدة.

الجماهيـر هنا غفيرة ومتراصة، ويتطلعـون إلى إلقاء نظرة على شومبي الجالسـة بين الأعشاب الملتفة الكثيفة تحت أوراق الأشـجار، وتبكي بحرقة، وتخيط تنورة طويلة، ثم يمشون إليها ويشـكلون دائرة مسـتديرة حولهـا في كافة الجهـات، وعندما يتقدمـون إليها يدخلون بانتظام وتنسـيق مـن الأمام والخلف، بعضهـم في الأمام، وبعضهم في الخلف، وهذا المشـهد شـبيه بالأمواج القوية، التي تعلو الواحدة تلو الأخرى صفحة الماء، وكل واحد منهم يهنئ بنظراته الصامتة الفتاة الجميلة شـومبي التي سوف ترحل إلى أرض الراحة الأبدية.

ينبثـق صـوت عجوز ويحوم حـول الجماهيـر المتلفة حول شومبي التي تنكس رأسـها على الدوام، وتبكي بحرقة، وتخيط تنورة طويلة، ويخاطبها ذاك العجوز قائلا:

«أيتها الطفلة يتعين عليك تطهير جسدك».

ترفع شومبي وجهها الذي يغص بالدموع، وتحملق مشدوهة فـي الهيكل العظمي الذي يصدر منه ذلـك الصوت، وتكف عن خياطة التنورة.

يقول العجوز: «عندما يحين وضعك في التابوت يجب تطهير الجسد».

تقول شومبي: «لم يتم الانتهاء من خياطة التنورة بعد».

ينبثق صوت ثلة من النسـوة، ويقلن: «نحن نضطلع بالحياكة بالإنابة عنك».

عشـرات من النسـاء ذوات الهياكل العظمية يتقدمن إلى شـومبي، ويمددن نحوها العشـرات من الأيادي ذات الهيكل العظمـي. ترفع شـومبي التنـورة التي في يدهـا ولم تكمل

خياطتها ولا تعرف أن تسـلمها في يدي أي امرأة، وتخاطبها امرأتان وتقولان:

«كنا نعمل في مصنع حياكة الملابس».

تعطي شوميي التنورة التي لم تكتمل خياطتها لتينك المرأتين، وترفع رأسها، وتتسمر نظراتها في الهيكل العظمي للعجوز الذي يقف أمامها، وتسأله في نبرة يشوبها بعض الحياء:

«هل يمكن ارتداء الملابس؟».

الهيـكل العظمي للعجوز يهز رأسـه، ويقول: «ارتداء الملابس لا يمكنك من تطهير الجسد».

تخفـض شـوميي رأسـها، وتضطلع بحركـة بطيئة وتجعل ملابسـها الخارجية تنفض عن جسـمها، كما تجعل ملابسـها الداخليـة كذلـك، وعندما بدا للعيان سـاقاها المندسـتان في العشـب النضير وبـين الأزهار البرية المتفتقة، ينفض جسـمها سـروالها التحتاني القصير. جسد شوميي الجميل يسجّى على أديم الحشيش الأخضر والأزهار البرية، وبعد أن يندمج ساقاها وتتقاطـع يداها علـى بطنها، وتغمض عينيها، تبـدو كأنها تنعم بالطمأنينـة والهدوء في الحلم. الأعشـاب الخضـراء والأزهار البريـة بجوار شـوميي تتمايـل أعوادها وتنحني علـى التوالي كأنها تحملق في جسـد شوميي، ونظراتها المحدقة تغطي جسد شـوميي، ومن ثم لم نعد نرى جسدها، بل نشاهد فقط جسمها ينمو ويترعرع فوق العشـب النضير، وتتعانق الأزهار البرية فوق جسمها.

يقـول العجوز ذو الهيكل العظمـي: «الناس في ذاك الجانب لديهم الأقارب الأقربون والأقارب الأبعدون، وهناك لا يوجد أحد

منهم يقوم بواجباته. والناس في ذاك الجانب عندما يوضعون في التابوت يقوم أهل البيت بتنظيف أجسادهم، وهنا نعتبر أنفسنا أهل بيت الفتاة شوميي، وكل واحد منا ينظف جسدها، والناس في ذاك الجانب يغرفون الماء بالسلطانية ويطهرون الأجساد، ونحن هنا نضم اليدين معا حتى يشكلا سلطانية».

وبعد أن يفرغ الهيكل العظمي للعجوز من كلامه، ينزع ورقة شجر ويسد بها الشق بين اليدين ويتوجه إلى النهر، ورهط من الناس يحيطون شوميي، ويخرجون في فريق متناسق ومنتظم وينتزع كل واحد منهم ورقة شجر يسد بها الشق بين اليدين، ويتشكل رتل طويل من سلطانيات ورق الأشجار، ويسيرون وراء الهيكل العظمي للعجوز على ضفة النهر، ويشكلون زاوية نصف قطرية تزداد طولا كلما مشوا مثل خيط يسحب من كرة من الخيوط. كان ذلك العجوز أول من يجلس القرفصاء، وبعد أن يغرف ماء النهر بسلطانية من ورق الشجر في راحتي يديه، ينهض واقفا ويمشي، ويحذو حذوه الذين يتبعونه في الخلف. الهيكل العظمي للعجوز يمشي إلى أمام الفتاة شوميي التي تمدد جسمها هناك ويحمل مياه النهر الصافية النقية في ورقة الشجر براحتي يديه. وبعد أن يفك ضم اليدين يتناثر الماء من تلك السلطانية على جسد شوميي التي تترعرع فوق العشب النضير والأزهار المتفتقة، وبعد أن يرتوي هذا العشب وتلك الأزهار بمياه النهر، تهتز أوصالها وتروي جسد شوميي.

الهيكل العظمي للعجوز يحمل في يده اليسرى تلك ورقة الشجر المبللة بالماء، ويمسح عينيه بيده اليمنى كأنه يكفكف دموع وداع أهل بيته، والآخرون مثله تماما يحذون حذوه من

التقـــدم إلى هناك حيث ترقد شـــومي، ويحملون مياه النهر في سلطانية مصنوعة من ورق الشجر براحتي اليدين، ويفكون ضم اليدين، ويتناثر الماء على جســـد شومي ويطهره، ويسيرون وراء ذاك الهيكل العظمي إلى مكان ناء يشـــبه الدرب الضيق المتعرج إلى الأمام. ويحمل بعضهم أوراق الشـــجر فـــي أياديهم اليمنى، والبعض الآخر في أياديهم اليســـرى، وتتساقط من تلك الأوراق آخر قطرة ماء وسط هبوب النسائم.

وتشكل تلك الهياكل العظمية الثمانية والثلاثون، والتي دفنت من جراء كارثة طريق في الســـوق، دائما دائرة مســـتديرة وتذرع المكان جيئة وذهابا، والآن تفرقوا ويجلســـون القرفصاء الواحد تلو الآخـــر، وبعد أن يغرفـــوا الماء بالســـلطانيات المصنوعة من أوراق الأشجار في راحات أياديهم ينهضون ويقفون على التوالي، ويعرجون على الفتاة شومي بالتتابع، وينثرون الماء بالتسلسل من أياديهم على جسد شومي من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وهي تتمدد على الحشـــيش الأخضر والأزهار البرية. تبدأ تلك الطفلة تنشج، وبدأ ذلك الطفل ينشج أيضا، وبالإضافة إلى ذلك، تصدر تلك الهياكل العظمية، في الوقت نفسه، صوت النشيج في مشهد أثار الشجون.

وعلـــى الرغـــم من أن أجســـادهم تم فصلها، بيـــد أن صوت نشيجهم ما زال يتكور في دائرة مستديرة.

أســـرة صاحب المطعم تان جيا جين تصطف في رتل طويل، ويحملون مياه النهر في ســـلطانيات من ورق الشجر في راحات أياديهم، ويحذون حذو الآخرين وينكسون رؤوسهم، ويمشون ببطء شـــديد إلى شومي، وينثرون عليها الماء من أياديهم، كما يرشون

الماء مع دعواتهم بالخير للفتاة شوميي التي تتوجه إلى أرض الراحة الأبدية حالا. وابنة تان جيا جين تكفكف دموعها بيديها، ويترنح جسمها قليلا، وأوراق الشجر التي في يدها تسقط على الأرض، ولا تدري أين ستكون أرض راحتها الأبدية، ويمد تان جيا جين يده ويمسك بإحكام ذراع ابنته، ويخاطبها قائلا:

«مادامت أسرتنا تقيم معا، لايهم أين تكون أرض الراحة الأبدية».

ومنذ عشر سنوات ونيف جاء إلى هنا كل من تشانغ غانغ، والرجل (لي) اللذين يجلسان على الأرض ويلعبان الشطرنج تارة، ويتشاجران بسبب محاولة التراجع عن لعبة في الشطرنج تارة أخرى، يحملان بورع مياه النهر في سلطانية من ورق الشجر، وينثران بخشوع الماء على جسد شوميي المتشح بالحشيش الأخضر والأزهار البرية. وعندما رحلا عن هذه الدنيا، يدير (لي) رأسه إلى الخلف مرات عديدة ويجيل بصره في كافة الأنحاء، وتبرز للعيان تعابير تشانغ غانغ من تلهفه الشديد إلى الذهاب لأرض الراحة الأبدية، ويربت بيده ذات الهيكل العظمي على كتفه ذي الهيكل العظمي أيضا، ويخاطبه قائلا: «لا تنتظرني، اذهب أنت أولا».

يطأطئ (لي) رأسه ويقول: «لم نفرغ بعد من لعب الشطرنج».

وشاهدت الناس ينصرفون بعد أن قاموا بتنظيف جسد شوميي، ويتدفقون كأنهم دروب ضيقة وطويلة، كما أنه ما زال هنا رتل طويل جدا من الذين يحملون سلطانيات من ورق الأشجار في راحات أياديهم، ويبدو أن ذلك المشهد بدأ توا، كما حضر أبوا الابنة جينغ شياو ميي، لا تزال أمها

تبـــدو عليها أمارات الخجل والحياء، وجســـمها مكور، وتضع يديها على فخذيها عندما تمشـــي، أما أبوها فيلصق جسمه بها، ويمســـكها بيديه بقوة، ويعد جسمه ويداه بمثابة الملابس التي تغطي جســـمها. وعندما يمدان أياديهما وينزعان ورقة الشـــجر، يفترقان ويمشـــيان صوب ضفة النهر، ويجلســـان القرفصاء، ويغرفان ماء النهر، وعندما يمشيان ويحملان في أياديهما ســـلطانيات من ورق الشجر، الأب يمشي في الأمام والأم تتكس رأســـها، وتتبعه في الخلف عـــن كثب، ويتحركان داخل رتل طويل جدا.

ينتشر في الآفاق صوت غناء يشبه العندليب. وكان صوت الغنـــاء متقطعا. لـــي يوي جين ترتدي فســـتانا أبيض، وتأتي بخطـــوات وئيدة، وتشـــكل فريقا من الأطفـــال الرضع البالغ عددهم ســـبعة وعشـــرين رضيعا، والذين يقتفـــون أثرها في الخلف، ويصدحون بالغناء ويحبون، وربما يشعرون بحكة في رقابهم من جراء الحشـــيش الأخضر، وصوت ضحكات هؤلاء الرضـــع تقاطع بين الحين والآخر صـــوت الغناء الرائع. وقبل أن تحضر إلى هنا، تحمل لي يوي جين هؤلاء الأطفال الرضع الواحد تلو الآخر، وتضعهم على أوراق الأشجار الضخمة على ضفة النهر، ويتمدد هؤلاء الرضع فوق أوراق الأشـــجار التي تتمايل مع هبـــوب الريح، ولم يعد صـــوت الغناء متقطعا، بل تدفق مثل مياه النهر.

تسمع شـــومي، التي يكتسي جســـدها بالعشب النضير والأزهـــار البرية، صوت غناء يشـــبه العندليب يحوم في كافة الأصقاع، وتتخرط دون أن تدري في الغناء مع هؤلاء الأطفال

الرضع. وأصبحت شـــومي المغنّي الرائـــد. وتصدح بالغناء، ويردد الرضـــع وراءها الغناء جملة بعد جملة، وتقود الجوقة، ويبـــدأ الغناء الجماعي من حيث انتهى، كأنها قامت بالتجربة والتدريب جيدا، وصوت غناء شـــومي والأطفال الرضع يعلو حينا، وينخفض حينا آخر.

كنت أعتزم أصلا السير إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية، وأخطـــو خطوات البحث عن والدي، بيـــد أن أقدامي تعثرت هنا.

اليوم السابع

تقول شـــوميي: « لم يعرف جســـدي تلــك النظافة على هذا النحو، ويبدو أنه بات شفافا وجليا».

«قمنا جميعا بتنظيف جسدك».

«أعرف ذلك، شاركت كثرة كاثرة في تطهير جسدي».

«ليس أناساً كثراً، بل شارك جميع الناس في تنظيف جسدك».

«وأشعر كأن مياه النهر كلها تتدفق من جسمي».

«اصطــف جميع الناس هنا في رتل، وحملــوا مياه النهر في كفوفهم ونثروها على جسدك».

«أنتم جميعاً تحبونني حقا».

«نعامل أي إنسان هنا معاملة طيبة ونحبه».

«كما ستقومون بتوديعي إلى أرض الراحة الأبدية».

«أنت أول من يرحل من هنا ويتوجه إلى أرض الراحة الأبدية».

نمشـــي على الطريــق، وجموع غفيرة تحف بالفتاة شـــوميي التي تتوجه إلى مؤسســـة الخدمات الجنائزية استعداداً للرحيل إلى أرض الراحة الأبدية. وهذا الطريق عبارة عن أرض ســـهلية شاسعة مترامية الأطراف، ولا ترى العين نهاية طوله، كما لا ترى نهاية عرضه، ويبدو كأنه مثل تلك السماء المكشوفة الواسعة التي تعلو رؤوسنا.

تقول شوميي: «عندما كنت في ذاك الجانب، كان فصل الربيع الأكثر حبا في نفسي من بين فصول السنة، والشتاء الأكثر مقتا. وتتقلص أوصالي في الشتاء قارس البرد، وعندما يأتي الربيع تتفتق الأزهار، وجسمي يكون أكثر قوة وحيوية أيضاً، ولكن عندما انتقلت إلى هذا الجانب، أصبحت أحب الشتاء، وأخشى الربيع لأن قدومه يجعل جسمي يتعفن رويداً رويداً. والآن أشعر بالارتياح، ولا داعي للخوف من الربيع».

ينبثق من بيننا شخص يقول: «الربيع يعتبر بمثابة مباراة بطولة في العَدْوِ في الألعاب الأولمبية في ذاك الجانب، ومع ذلك لا يستطيع اللحاق بك».

تنخرط شوميي في نوبة ضحك.

يقول شخص آخر: «أنت فتاة حسناء جداً».

تقول شوميي: «أأنت تتفوه بتلك الكلمات حتى تجعلني سعيدة؟».

يقول الكثيرون منا: «أنت فتاة جميلة جداً».

«عندما كنت في ذاك الجانب، كانوا يديرون رؤوسهم إلى الخلف، ويحدقون في وجهي، وعندما جئت هنا، أنتم تلتفون وتحملقون في معالم وجهي أيضا».

«ونطلق على ذلك أن الدوران للخلف والالتفات إليك بنسبة عالية جداً».

«أجل، في ذلك الجانب يسمون ذلك نسبة الالتفات إلى الخلف».

«وهنا يطلق عليه نفس التسمية».

تنخرط شوميي في نوبة ضحك مرة أخرى، وتقول: «يسمى ذلك نسبة الالتفات في ذلك الجانب، وهنا أيضًا».

نقول: «نسبة الالتفات إليك تقتفي أثرك حيثما ذهبت».

«كلامكم معسول حقاً».

نشاهد شـــومي تترجل مرتدية التنورة التي كانت في الأصل ذلـــك البنطال الرجالي الطويل. التنورة طويلة جداً، وتحجب عن أنظارنا قدميها عندما تمشي، ونرى فقط أذيال التنورة تتجرجر على أديم الأرض.

وهناك شـــخص ما يخاطبهـــا قائلا: «كفنـــك يتجرجر على الأرض وكأنه فستان الزفاف».

تسأل شومي: «حقاً، مثل فستان الزفاف، أليس كذلك؟».

تجيب عن سؤالها: «حسنا، أأنتم تجعلونني أشعر بالسعادة؟».

«كلا، يشبه فستان الزفاف فعلاً».

«ولكن لا أذهب إلى بيت الزوجية».

«يبدو عليك أنك تذهبين للزواج».

«لم أتزين، والعروس يجب أن تتزين عندما تتزوج».

«لـــم تتزيني، ولكنك أكثر تألقاً وإشـــراقاً عن تزينك في ذاك الجانب».

تقول شـــومي بصوت حزيـــن ومؤلم: «لم أذهـــب للزواج من وو تشاو، بل أذهب إلى قبر الراحة الأبدية».

تبدأ تتدفق دموع شومي، ونحن لم ننطق بكلمة مرة أخرى.

وتقول: «أنا عنيدة جداً، ولا يجوز أن أتخلى عنه».

تمشـــي وقلبها مفعم بالأســـى، وتقول في حزن شديد: «ماذا يفعل بمفرده في هذه الدنيا، لقد سببت له ضيرا».

بعد ذلك، سمعنا صوت بكاء شومي يدوي في الجبال والأنهار والأودية على امتداد الطريق الطويل في الأرض السهلية.

«أسبب له الأضرار دائماً، ففي الكوافير كان عملنا هو غسل شعر الزبائن، ولكن كان لديه طموح أن يرتقي بمعيشته، يغسل شعر الزبائن تارة، ويتعلم من الأسطى قص الشعر وفن تصفيف الشعر، وتعلم بسرعة جداً، وامتدحه المدير، وذكر أنه يعتزم أن يجعله الأسطى الكبير. ويخاطبني بمنأى عن الأنظار أنه ينتظر حتى يصبح الأسطى الفني في تصفيف الشعر بصورة رسمية، ويزداد دخله، ويستقيل من العمل بعد أن يتقن مهارة فن الكوافير، ونحن الاثنان نستأجر واجهة منزل تصلح أن تكون دكاناً، وندير كوافير صغيراً من أجل تطوير حياتنا. وكانت هناك فتاة في الكوافير تحبه، وتدنو منه دائما، وتتحدث بود وحنو، مما جعلني أشعر بالسخط الشديد، وأبحث دائماً عن فرصة للعراك معها، وذات مرة، وقعت بيننا مشاجرة، وأمسكت شعري بقوة، وأنا أيضًا حذوت حذوها، وهرول مسرعاً للفصل بيننا، وصرخت في وجهه وسألته إذا كان يحبها أم يحبني أنا، وجعلته يشعر بالحرج الشديد وأصرخ بصوت حاد، والزبائن في الكوافير يديرون أجسامهم، ويحملقون في وجهي، والمدير غاضب جداً، ويسبني ويطلب مني الانصراف في التو. وعندما كان المدير ما زال يلعنني، يتقدم صديقي ويمشي إلى أمامه ويبلغه أننا لا نعمل ونستقيل، كما يوجه سيلاً من السباب إلى المدير قائلا: أنت الوغد الأحمق الذي ينصرف من هنا، ويأتي إليّ ويمسك ذراعي بقوة ونغادر الكوافير، وأقول إننا لم نتقاض راتب نصف شهر، ويقول: الراتب الأحمق لا نريده، ولا نريد المعلم الأبله. وفي هذه الأثناء، انفجرت في البكاء، ويقبض عليّ بيده ويجرني ونمشي وقتاً طويلا، وأنا أبكي بلا انقطاع وأقول: أشعر بوخز

الضميـــر لأنني جعلته يفقد ماء الوجه، وحطمت مســـتقبله لأنه كان على وشـــك أن يكون الأسطى الفني في تصفيف الشعر في وقت قريب جداً. يجرجرني بيد، ويكفكف دموعه باليد الأخرى، وفمه لا يكف عن الســـباب، ويقول الأســـطى الفني الأحمق، تباً لفقدان ماء الوجه، ومعلمنا لا يستحق الذكر. وفيما بعد، قلت له نبحـــث عن عمل في كوافير آخر، وهو أصبح ماهراً ولديه براعة المعلم الفني في قص الشـــعر، ولكنه يرغـــب عن ذلك. وتعهدت بعـــدم الوقوع في حبائل الغيرة مرة أخـــرى، وإذا حدث أن كانت هناك فتاة تعشـــقه مرة أخرى، فأنا أتظاهـــر باللامبالاة، ولكنه يقـــول إن المعلم لا يذهب إلى الكوافير، واضطررنا لأن نعرج على مطعم نعمـــل فيه، وذكر مدير المطعم أننـــي بهية الطلعة، وطلب منـــي أن أكـــون نادلة في الحجـــرات الخاصة بكبـــار الزوار في الطابق العلوي بالمطعم، أمـــا هو فيعمل نادلاً في القاعة الكبيرة فـــي الطابق الأســـفل، ويحظى بالترحاب مـــن جانب المدير لأنه دؤوب ومجدّ، وبارع ودقيق في العمل، وسيكون رئيساً للعمال في وقت قصير جداً. وفي أوقات فراغه، ينزل إلى الطابق الســـفلي ويتجاذب أطراف الحديث مع الطهاة، ويقتنص الفرصة من أجل تعلـــم إتقان فن الطهي. ويقوله إنه يتحلى بالصبر، وبعد أن يتقن فن الطهي بصورة حقيقية، نستقيل ونؤسس مطعماً صغيرًا.

أعمـــل نادلة في حجرة طعام كبار الضيوف، ويأتي هنا دائماً التجار والمسؤولون، وذات مرة، جاء رهط من الأفراد الذين شربوا حتى الثمالة، وانبثق من بينهم شخص احتضنني وداعب أثدائي، وفـــي الواقع تحملت وتجلدت وابتعـــدت عنه، ولكن انفجرت في البكاء ورحـــت أبحث عن صديقي، ولا يطاق ولا يحتمل أن أكون

فريسـة للظلم من جانب الآخرين، واقتحم تلك الحجرة وتعارك معهم، وهم كثر طرحوه أرضا، وأشـبعوه ضرباً، وركلوه بالأقدام، وركلوا رأسـه، وجثمـت بجواره أبكي بحرقة، وأتوسـل إليهم أن يكفـوا عن ضربه. وتكف أياديهـم وأقدامهم عن الضرب آنذاك ويحضر مدير المطعم، ويقدم لهم اعتذاره في ذلة وخضوع. ومن الجلي أنهم ظلمونا، ولكن المدير لا يسـاعدنا، بل يلعننا بشـدة. ووجـه صديقي يغص بالدم من جـراء ضربهم المبرح، وأحتضنه ونخرج مـن غرفة طعام كبار الزبائن، وبعد أن ننزل من السـلم إلى الطابق السـفلي، يدفعني بيـده، ويبغي الصعود إلى الطابق العلـوي ويخوض غمار مشـاجرة معهم، وصعـد عدة خطوات، وارتميـت على رجليه وكبّلته بقوة، وأنخـرط في البكاء وأتضرع إليه؛ وينزل من السلم، ويسـندني بيديه، ويحضن كل منا الآخر ونغـادر المطعم. الدم ينزف من أنفه بـلا انقطاع، والمطر يهطل في الخارج، ونمشـي إلى الطريق المقابل، ولا يرغب في السير، ويجلـس على الرصيف، وأجلـس بجواره، ويغمرنـا مياه المطر وتتبلل ملابسـنا، وتمرق المركبات الواحدة تلـو الأخرى، وتلطخ ملابسنا بالماء المتراكم الآسـن في الشارع، ويقول مرارا وتكراراً إنه يريد أن يقتل المعلم، وأبكي بصورة مسـتمرة، وأطلب منه ألا يرتكب جريمة قتل.

ألحقـت به الضرر مرة أخرى؛ حيث لـم يعمل طباخاً، ونحن لا نسـتطيع أن نمتلـك مطعماً صغيراً. ولم نعمل لمدة شـهرين، ونقودنـا تتضاءل أكثـر فأكثر، ونتناول وجبة واحـدة في اليوم، ونقودنا سـتنفد في غضون شـهرين. وأقول يجب أن نبحث عن عمل. ولكنه لا يرغب في ذلك. ويقول إنه يأبى أن يتعرض للظلم

والحيف من قبل الآخرين مرة أخرى. وأقول نفتقر إلى النقود لأننا ليس لدينا عمل، والافتقار إلى المال يعني أننا نستطيع الانتظار حتى نموت جوعاً. ويقول إنه يؤثر أن يتضور جوعاً ولا يتعرض للاعتساف والحيف. وبكيت، وبكيت بألم وحزن، وبكائي ليس بسبب أنني غضبى منه، ولكني أبكي هذا المجتمع الظالم. ويراني أنهمك في البكاء، ومن ثم يدلف إلى الخارج، ويعود أدراجه متأخراً جداً، ويحضر معه فطيرتين تنفثان بخاراً من أجلي، وأسأله من أين حصل على نقود واشترى فطيرتين؟

ويقول إنه جمع زجاجات المياه المعدنية الفارغة وعلب المعلبات الصفيح طوال اليوم، وباعها للذين يقومون باستصلاح النفايات، وحصل على نقود اشترى بها فطيرتين، وفي اليوم التالي، عندما انصرفت من البيت، خرجت معه أيضاً. ويسألني: لماذا تخرجين معي؟ وأجيب أذهب معك ونجمع سوياً زجاجات المياه المعدنية وعلب المعلبات الصفيح».

«يبدو أننا وصلنا».

«قطعنا شوطاً طويلاً من الطريق ووصلنا إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية. وعندما جئنا مندفعين بأعداد كبيرة ودلفنا إلى الداخل، يدوي في الردهة صوت دهشة وذهول من قبل منتظري حرق أجسادهم الذين شاهدوا كوكبة من الهياكل العظمية تتدافع كالمد الصاعد وتتقدم نحوهم، ويتساءلون فيما بينهم عن ماهية تلك الهياكل؟ ولماذا حضرت إلى هنا؟ ويقول شخص في هذا الجانب حيث تتراص المقاعد البلاستيكية: ربما تأخروا. ويقول شخص آخر: لقد تأخروا ردحاً طويلا. وينبعث صوت عال في ذاك الجانب حيث توجد الأرائك ويقول: هؤلاء

الأوغاد تأخروا بضع سنوات. ينبثق صوت خافت من هيكل عظمي بيننا، ويقول: إننا خمرة «عرق» منذ عدة سنوات، أما أنتم فـ «بيرة طازجة». تصدر الهياكل العظمية الأخرى ضحكات وقهقهات منتظمة.

ويجلس على المقاعد البلاستيكية أكثر من عشرة من منتظري حرق أجسادهم في منتصف العمر في هذا الجانب، ويجلس ثلاثة فقط من هؤلاء المنتظرين على الأرائك في منطقة الوجهاء والأثرياء في ذاك الجانب. تسير بضعة هياكل عظمية نحو الأرائك في ذاك الجانب حيث يشعرون بأن المكان هناك واسع وفسيح. ويأتي مسؤول يرتدي أسمالاً زرقاء بالية وقفازات قديمة ومهترئة، ويقول بصوت مدكوك: «في ذاك الجانب توجد منطقة الوجهاء والأثرياء، من فضلكم انتقلوا إلى هذا الجانب».

ويحملق في وجهي بصورة فجائية من تجويف العينين، وفي داخله تعج مشاعر الفرحة والخوف وتتماوج صعوداً وهبوطاً. وفي هذه المرة يتعرف عليّ لأن زوجتي (لي تشينغ) رممت بيدها معالم وجهي.

أريد أن أنادي بصوت خفيض وأقول: «بابا»، وأفتح ثغري، ولكن لا يجد صوتاً. وشعرت بأنه يريد أن يناديني أيضاً، بيد أنه يفتقر إلى الصوت أيضاً.

وبعد ذلك، لمحت في عينيه علائم الآلام والأحزان، ويسألني بصوت يرتعش: «أأنت..؟».

أومئ برأسي، وأشير إلى شوميي في جواري: «إنها هي..».

يبدو أنه يتنفس الصعداء طويلا كأنه يتحرر مؤقتا من آلامه وأحزانه. ويهز رأسه، ويمشي إلى ماكينة سحب الأرقام في

مدخل الباب، ويسحب قصاصة ورقية ويعود ويسلمها للفتاة شومبي، ورأيت الرقم (A53) مطبوعا في أعلى تلك القصاصة. وعندما كان يغادر المكان هنا، تفحص بدقة في ملامحي مرة أخرى، وسمعت تنهداته العميقة.

نجلس على المقاعد البلاستيكية هنا. وشومبي تحمل بكلتا يديها قصاصة ورق في ورع وتقوى، إنها رخصة الولوج إلى أرض الراحة الأبدية، وتخاطبنا نحن الجالسين حولها في دائرة، وتقول:

«أذهب إلى هناك في نهاية المطاف».

ونشعر بأن ردهة منتظري حرق الجثث تغص بمشاعر رقيقة، وتجسد شومبي تلك المشاعر، وتقول: «لماذا يعز عليّ فراقكم؟».

كما نشعر بأن هناك مشاعر حميمة أخرى، وتجسدها شومبي مرة أخرى، قائلة: «يجب أن أشعر بالسعادة».

نقول: «نعم، يجب أن تكوني مغتبطة».

لم ترتسم ابتسامة على وجه شومبي، وتعتريها بعض مشاعر القلق، ومن ثم توصينا قائلة: «عندما أفارقكم لا أريد أن ينظر إليّ أحد، وأنتم عندما تفارقونني لا يلتفت أحد وينظر إليّ. وعلى هذا النحو أستطيع أن أنساكم، وأستطيع أن أتمتع بالراحة الأبدية حقا».

نطأطئ رؤوسنا بانتظام على غرار شعورنا بالخوف من حفيف الأوراق في الريح.

يدوي صوت في ردهة منتظري حرق أجسادهم وينادي الرقم (A 43)، وينهض أحدهم واقفاً من المقاعد البلاستيكية أمامنا، ومرتدياً كفنه وهو عبارة عن بذلة صينية قماشية، ويمضي

مترنّحا. ونجلس في هدوء وطمأنينة، ولا يزال هناك منتظر حرق جسده يدخل متأخرا، ويستقبله ذلك الرجل في أسماله الزرقاء البالية وقفازاته البيضاء المهترئة ويسحب له رقما، ثم يرشده إلى مقعده البلاستيكي الذي يجلس عليه في هذا الجانب.

الهدوء والسكون يسودان المقاعد البلاستيكية في هذا الجانب، بينما يدوي صوت تجاذب أحاديث لفترة من الوقت في ذاك الجانب حيث توجد الأرائك. والآن يناقش ثلاثة من الوجهاء الأثرياء منتظري حرق أجسادهم الكفن غالي الثمن والقبر الفاخر. وكان من بينهم أرستقراطي يرتدي كفنه من المعطف الفرو، أما الأرستقراطيان الآخران فيسألان في فضول لماذا يستخدم المعطف الفرو ويجعله كفنا؟ وكانت الإجابة على النحو التالي:

«أخشى البرد».

يقول أرستقراطي: «في الواقع إن ذاك المكان ليس باردا».

يقول أرستقراطي آخر: «صحيح، ذاك المكان دافئ في الشتاء، ودافئ في الصيف».

«من قال إن ذاك المكان ليس باردا؟».

«قال ذلك الذين يحددون موقع بناء القبر».

«كيف يعرفون ذلك، ولم يذهب أحد منهم إلى ذاك المكان؟».

«من الصعب أن نجزم بذلك، والذين لم يأكلوا لحم الخنزير يشاهدون الخنزير يركض دائما».

«إن أكل لحم الخنزير ومشاهدته وهو يركض يعتبران شيئين مختلفين تماما، وأنا لا أصدق دائما البيئة الروحية».

هذان الأرستقراطيان لم ينطقا بكلمة، ويردف الأرستقراطي

الذي يرتدي المعطف الفرو قائلا: «بل الذين ذهبوا إلى هناك، لم يرجع أحد منهم، ولا أحد يعرف التقلبات الجوية هناك، وإذا حدث بالمصادفة أن الطقس بارد جدا والأرض تتجمد، فإن ذلك من قبيل الاستعداد يقضي على الأخطار».

هيكل عظمي يجلس بجواري يقول بصوت خفيض: «هو لا يفهم، معطف الفرو من جلد الحيوان، وهو يتقمص ويتحول إلى حيوان بري».

ويسأل اثنان من الوجهاء الأثرياء هذا الأرستقراطي الذي يرتدي المعطف الفرو عن موقع قبره، ويقول الأخير إنه يقع فوق قمة الجبل، وتضاريس الجبل وعرة ومنحدرة، ويستطيع أن يتمتع برؤية مناظر العديد من الجبال الصغيرة من ارتفاع ثلاثمئة وستين متراً.

يومئ الأرستقراطيان برأسيهما، ويقولان: «اختيار موقع القبر رائع حقا».

الهيكل العظمي بجواري يقول بصوت خافت مرة أخرى: «إنهما لا يفهمان، تضاريس الجبل يجب أن تتحلى برأسين بارزين، وليسا متدليين. الرأسان البارزان يجعلان الأولاد والأحفاد من الأثرياء الأرستقراطيين، أما الرأسان المتدليان فيجعلان ذرية الأولاد والأحفاد يتسولون الطعام».

يدوي صوت النداء (V12) في درهة منتظري حرق الأجساد، وينهض واقفا ذلك الأرستقراطي مرتديا المعطف الفرو وجسمه مائل على غرار الحركة المعتادة التي يقتحم بها الزحام داخل حافلة النقل العام، وبعد أن يومئ برأسه إلى الأرستقراطيين الآخرين، يتقدم إلى غرفة المحرقة مزهوا بما حققه.

يترامى إلى مسـامعنا صوت النداء على الرقم (A44)، وبعد أن يـدوي ثـلاث مرات ببـطء، كان النداء علـى صاحب الرقم (A45) ويـدوي ثلاث مرات ببطء أيضـا، وبعد ذلك كان النداء علـى الرقم (A46). وصوت النداء يشـبه زئير الريح في مكان بعيد في خضم الليل شديد الحلكة، كما أنه طويل ويولد الشعور بالوحشـة في النفس. وهذا الصوت المغري يجعل منتظري حرق الأجسـاد في الردهة يبدون كأنهم في فضاء واسـع وفسـيح، وبعيدين عـن أرض الواقع. وبعد ثلاثة أرقـام خاوية لم يحضر أصحابها، يقف صاحب الرقم (A41)، وكان شـبح امرأة تتقدم إلى الأمام في حذر واحتراس.

نجلس في هدوء ونحيط شـوميي من الجهات الأربع، ونتأثر تأثـراً بالغاً باقتراب ميقات رحيل شـوميي أكثـر فأكثر. وبعد أن يرحل هذان الأرسـتقراطيان وأرقامهما (V13)، و(V14)، كان النداء على صاحب الرقـم (A52)، وعيوننا لم تتمالك عن الالتفات إلى شـوميي التي تضم يديها وترفعهما أمام صدرها، وتحني رأسها وتنخرط في تفكير عميق.

وبعد النداء ثلاث مرات على الرقم (A52)، نسمع النداء على رقم شوميي وهو (A53)، وفي هذه اللحظة ننكس رؤوسنا جميعا في آن واحد، ونشعر بمغادرة شوميي مقعدها البلاستيكي.

وعلـى الرغـم من أنني أحني رأسـي، وما زلـت أتخيل صورة شـوميي؛ وهي تمشـي وتجر تنورتها الطويلة التي تشـبه فستان الزفـاف، وتتقدم نحـو أرض الراحة الأبدية، بيد أنني شـاهدتها فقط وهي تترجل، ولم أر غرفة المحرقة، ولم أر القبر، وكل ما رأيته كان سيرها نحو أرض تزخر بالأزهار من كافة الألوان والأشكال.

وبعد ذلك، سـمعت صوتا خفيضا يدوي ويصدر من المقاعد البلاسـتيكية في الجهات الأربع، وعرفـت أن الهياكل العظمية تنهض واقفة وتستعد للمغادرة، كما عرفت أنها تتقهقر وتتصرف على غرار انحسار المد.

* * *

لـم أنهض من مقعـدي وأنصرف. وبقي هناك خمسـة من منتظـري حرق الأجسـاد يجلسـون على المقاعد البلاسـتيكية الأماميـة. يرتدي والـدي الملابس الزرقاء المهترئـة والقفازات البيضـاء الباليـة، ويحني رأسـه، ويقف على الجانب الأيسـر للطريق الذي يسـيرون عليه، وتدل ملامحه على أنه يسـتجيب لتحيتهم في كل وقت. وشعرت بأن شبحه المنتصب يشبه الواقف وقفة حداد. أحد منتظري حرق أجسـادهم يلتفت ويتفوه ببعض الكلمـات، ثم يتقدم إلـى الأمام بخطوات سـريعة ويجيب على أسـئلة هؤلاء المنتظرين بصوت خفيض، ثـم يتراجع ويعود إلى الطريق الذي يسير عليه، يحني رأسه باستمرار ويقف منتصبا. ووالدي يعمل بجد وأمانة دائماً ومخلص في عمله سواء كان في ذاك العالم وهو عالم المحيـا، أم هنا في عالم الممات، فكلاهما عنده على قدم المساواة.

وبعد أن يدخل هؤلاء المنتظرون الخمسة الباقون غرفة المحرقة تباعا، تصبح ردهة منتظري حرق الأجسـام خاوية على عروشها كأنها خالية من الهواء، ويوجد هناك ضوء شـاحب يفصل ضوء مصباح الجدار الذي على شـكل الشـمعة في مكان ليس قريبا. أرى والدي خطواته ثقيلة عندما يمشـي، وأهب واقفاً وأستقبله، وأمسك بإحكام أكمام والدي الخاوية حيث يوجد داخلها الهيكل

العظمي كأنه حبل دقيق وناعم. أسند والدي استعدادا للولوج إلى منطقة الوجهاء الأثرياء، حيث تنتظرنا أريكة مريحة في ذاك الجانب، ولكن والدي يمنعني، ويقول:

«هناك ليس المكان المخصص لجلوسنا».

نحن نجلس على المقاعد البلاستيكية، ويدي اليمنى تسند يد والدي اليسرى التي يرتدي فيها القفاز الأبيض وبه فتحة تجعلني أشعر بالهيكل العظمي لأصابع والدي، وأشعر أنها ضعيفة وهشة لدرجة أنها تتكسر إذا لمستها. ويحدق والدي في وجهي، ويحاول التعرّف إلي بعيون خالية من النظرات، وجعلني أشعر بالود والحنان، ويصعب عليّ وصف ذلك، وأنادي قائلا:

«بابا».

والدي يحني رأسه، ويقول بحزن: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

أقول: «بابا، أنا أبحث عنك دائماً وأبداً».

والدي يرفع رأسه ويحدق في وجهي ويواصل التعرف عليّ بعيون خالية من النظرات، ويردف قائلا في حزن وألم: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

وأسأله: «يا بابا، أأنت خشيت أن تثقل كاهلي؟ ومن ثم تركتنا وانصرفت».

يومئ برأسه، ويقول بصوت خافت: أريد فقط الذهاب إلى العالم الآخر بغرض الرؤية والمشاهدة، وأعرف أن مرضي من الصعب مداواته، ولذا فكرت في الذهاب إلى هناك.

«لماذا تذهب إلى هناك».

«أنا حزين، وعندما أتذكر أنني تخليت عنك، أشـعر بالحزن والألم».

أقول: «بابا، أنت لم تتخل عني أبداً».

كنت أود العثور على ذاك الحجر، وأجلس فوقه فترة قصيرة، أفكر دائما في الذهاب إلى هناك، وعندما تظلم السماء، أريد أن أغشى المكان هناك، ولكن لا أذهب إلا بعد انبلاج النهار، وأراك، ويعز عليّ فراقك».

«بابا، لماذا لم تخبرني بذلك؟ وأنا اصطحبك ونذهب سويا».

«فكرت أن أخبرك بذلك، فكرت مرات عديدة».

«ولماذا لم تقل؟».

«لا أدري».

«أتخشى أن تجعلني حزينا؟».

أقول: «كلا، ولكن ما زلت أفكر أن أذهب هناك بمفردي».

«ولذلك، انصرفت بلا استئذان».

«بلى، كنت أود أن أركب قطار الليل وأرجع أدراجي».

«ولكنك لم ترجع».

«لقـد رجعت»، رجـع بعد وفاته، «ووقفت أيامـا طويلة قبالة الحانوت وشاهدت أناسا آخرين يخرجون من داخله».

«وذهبت أبحث عنك».

«ورأيت أناسـاً آخرين يديرون الحانوت، ومن ثم عرفت أنك تبحث عني».

أقول: «أنا أبحث عنك دائماً، وذهبت إلى ذاك السـوق الذي شهد اندلاع النيران في اليوم الذي انصرفت فيه، وأشعر بالقلق حيال وجودك في داخله».

«أي سوق؟».

«ذلك الســـوق الضخم المطلي باللون الفضي، وليس بعيدا عن الحانوت الذي كنا نمتلكه».

«لا أتذكر».

تذكرت أنه وقع في شرك آلام مرضه عندما فتح ذلك السوق أبوابه أمام الجمهور، وأقول: «أنت لم تذهب هناك».

يقول بحزن شديد مرة أخرى: «حضرت إلى هنا بسرعة على هذا النحو».

أقـــول: «بحثت عنك في كافة بقـــاع المدينة، كما عرجت على قريتك للهدف نفسه».

ويسألني: «هل رأيت الأعمام والعمات؟».

أجيب: «رأيتهم وشهد المكان هناك تغييرا أيضاً»، ولم أذكر أن المكان هناك تغير وبات بورا.

ويسأل: «وهل يبغضونني؟».

أجيب: «إنهم جميعا يشعرون بالحزن الشديد».

يقول: «يتعين علي زيارتهم منذ وقت مبكر».

أقول: «بحثت عنك في كل مكان، ولم يخطر ببالي أنك ركبت القطار وذهبت إلى هناك».

ويدمدم: «ركبت القطار..».

في هذه الأثناء، أبتســـم وأتذكـــر أن كلا منا يبحث عن الآخر في عالمين منفصلين.

ويدوي صوته الحزين المؤلم مرة أخرى، ويقول: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

«بابا، لم يدر بخلدي أن أراك هنا».

«أنا هنا أود رؤيتك كل يوم، وعلى كل حال، لم يخطر على بالي أن أراك بسرعة هكذا».

«بابا، ونحن نقيم معا مرة أخرى».

لم يكن في الحسبان أن ألتقي والدي مرة أخرى بعد الفراق الأبدي بيننا، وعلى الرغم من أن أجسامنا تفتقر إلى الحرارة، وتفتقر إلى التنفس، ولكن أنا ووالدي نقيم معا مرة أخرى. ويدي اليمنى تتحرر من أصابعه ذات الهيكل العظمي الدقيق الناعم داخل القفاز الأبيض المتهالك الذي يرتديه، وأضعها بحرص شديد على ذراعه ذي الهيكل العظمي. وعندي رغبة شديدة أن أقول له: يا بابا، أمشي معك. ولكن أعرف أنه يعشق عمله، ويحب العمل حبا جما في ردهة منتظري حرق أجسادهم، ولذلك أقول:

«يا بابا، سأحضر هنا دائما من أجل رؤيتك».

أشعر بأن ابتسامة ترتسم على وجهه ذي الهيكل العظمي.

ويسألني: «هل يعرف والداك اللذان تتحدر من صلبهما ودمهما أنك هنا؟».

«ربما ما زالا لا يعرفان».

يتنهد تنهيدة، ويقول: «سوف يعرفان بالتأكيد».

لم أنطق بكلمة مرة أخرى، وهو لم يفه بحرف مرة ثانية أيضا، ويسود ردهة منتظري حرق الأجساد هدوء يشبه استعراض ذكريات الماضي، ونقدر اللحظة الغالية التي تجمعنا سويا، ويشعر كل منا بالآخر في خضم الصمت المطبق، وأشعر بأنه يركز نظراته على ندوب الجرح في وجهي، ورممت زوجتي (لي تشينغ) يدي اليسرى وأنفي وذقني، ولم نتخلص من تلك الندوب الباقية هناك.

وتبدأ يداه اللتان داخل القفاز الأبيض المتهالك تتحسسان ذراعي وترتعش أصابعه ذات الهيكل العظمي، وأشعر بأن هذه الملامسة الأبدية بيننا هي التواصل من جديد أيضا.

وتتسلل أصابعه إلى الشريط الأسود على ذراعي، ثم تستقر فوق ذاك الشريط بعد ذلك. ويخفض رأسه بصورة عميقة ويغرق في الآلام والأحزان المزمنة. ويدرك أنه بعد أن فارقت دنيا المحيا، أعيش في ذلك العالم وحيدا معزولا. ولم يسألني كيف أعيش هنا، وذلك لأنه ربما لا يريد أن يجعلني كئيباً، كما لا يود أن يجعلني حزينا. وبعد فترة قصيرة، يقول بصوت خافت: أود أن أضع ذاك الشريط الأسود على ذراعي. وكانت ذلك رغبة والدي الحميمة، وسمعت ذلك بأذني. وأطأطئ رأسي، وأنزع الشريط الأسود من ذراعي وأعطيه إياه، ويخلع القفازات البيضاء وتتململ عشرة أصابع من الهيكل العظمي وتقترب من الشريط الأسود، كما تهز ذاك الشريط المعلق على كمي الأجوف.

وبعد أن يضع يديه في القفازات البيضاء المتهالكة، يرفع رأسه ويحملق في وجهي، ولمحت حبتين من الدموع تنهمران من تجويف عينيه. وعلى الرغم من أنه حضر هنا في وقت أبكر مني، بيد أنه ما زال يذرف الدموع حزنا وكمدا على الشباب الذين يودعهم العجائز.

* * *

«يخبرني شخص ما بأن السير في هذا الاتجاه يجعلني أستطيع رؤية صديقتي».

«من صديقتك؟».

«تلك الفتاة التي تعتبر أجمل فتاة هنا».

«ما اسمها؟».

«اسمها ليوميي، كما تدعى شوميي أيضا».

وفـــي طريق عودتـــي، يتقدم نحوي شـــخص يســـير بخطوات ســـريعة، ويمسك بطنه بيده اليســـرى دائما، وجسمه مائل قليلا، وشـــكله يدل على أنه يعاني من مـــرض خطير، وتعرفت على ذلك الشخص العجول صاحب الشعر الأشعث الأسود الذي يشبه قبعة من الفرو، وتذكرت تسريحة شعره زاهي الألوان، ومن المفترض أنه لم يصبغ شعره منذ فترة طويلة جدا، كما أنه لم يقص شعره أيضا.

«أنت وو تشاو».

«كيف عرفت اسمي؟».

«أنا أعرفك».

«كيف تعرفت علي؟».

«أثناء تأجير غرفة».

انتباهـــي وتركيزي يبددان أمارات الحيـــرة على وجهه رويدا رويدا، ويحملق في وجهي قائلاً: «أشـــعر بأنني فيما يبدو رأيتك في مكان ما».

أقول: «عندما كنت تستأجر غرفة».

يتذكر ذلك، ويفتر ثغره عن ابتسامة، ويقول: «نعم، حينما كنت أستأجر غرفة».

أراه ما زال يمسك بطنه بيده اليسرى، وأسأله: «ما زلت تشعر بالألم، أليس كذلك؟».

يقول: «لا أشعر بألم».

يســـبل يده اليســـرى عن بطنه، ثم يعود إلـــى هنا مرة أخرى حسب عادته، ولا تزال يده تمسك بطنه.

أقول: «نعرف أنك بعت كلية من أجل أن تشتري قبرا لصديقتك شوميي».

يحدق بوجهي في حيرة وارتباك، ويسأل: «من أنتم؟».

تشـــير إصبعي إلى الاتجاه في الأمـــام، وأقول: «الناس هناك في ذلك الجانب».

«من الناس الذين هناك في ذلك الجانب، من هم؟».

«كل الذين يفتقرون إلى قبر يقيمون هناك».

يطأطئ رأســـه كأنه فهم كلامي. ويسألني مرة أخرى: «كيف عرفتم ذلك؟».

يقول: «شياو تشينغ حضر وأخبرنا بذلك».

ويسأل: «أحضر شياو تشينغ أيضا؟ ومتى حضر؟».

أقول: «من المفترض قبل ستة أيام، وكان يضل طريقه دائما، وأمي حضرت إلينا هناك».

«ولماذا حضر شياو تشينغ؟».

«بســـبب حادثة سير، حادثة ســـير وقعت في خضم الضباب الكثيف».

يقول في حيرة وارتباك: «لا أعرف الضباب الكثيف».

ويؤكد أنه لا يعرف الضباب الكثيف، وتذكرت أن شياو تشينغ قال إنه ينام في ملجأ ضد الغارات الجوية تحت الأرض.

أقول: «كنت في ذلك الملجأ آنذاك».

يومئ برأسه، ثم يسألني: «كم مضى من الوقت على حضورك هنا؟».

«سبعة أيام».

«وأنت؟».

«يبدو أنني حضرت تواً».

أتذكر أنه وشـوميي قد حضرا جنبا إلى جنب، وأقول: «إذن، حضرت اليوم».

تعلو وجهه علائم الشـوق واللهفة، ويقول: «أنت رأيت شوميي بالتأكيد».

أومئ برأسي، وأقول: «رأيتها».

يسأل: «أتشعر شوميي بالسعادة هناك؟».

أقول: «سـعيدة جدا، وعندما عرفت أنك بعت كليتك من أجل أن تشتري لها قبرا انفجرت في البكاء، وبكت بحزن شديد جدا».

«هل ما زالت تبكي إلى الآن؟».

«لا تبكي الآن».

«أستطيع رؤيتها فورا».

ويشـبه تعبير العينين المغتطبتين ظل ورقة شجر يغمر وجهه على هذا النحو.

أتردد قليلا، وأقول: «أنت لا تراها، لقد رحلت إلى قبرها تنعم بالراحة الأبدية».

«هل ذهبت إلى قبرها حيث الراحة الأبدية؟».

ظل ورقة الشـجر المبتهج يبتعد عن وجهـه ويحل محله ظل ورقة الشجر الحزين.

ويسألني: «متى تذهب؟».

أجيب: «اليـوم، ذهبت هناك عندما حضـرت أنت هنا، لقد ضاعت منكم فرصة اللقاء».

يحني رأسه، ويبكي في صمت ويمشي إلى الأمام. يسير فترة قصيرة ويكف عن البكاء، ويقول في ألم ممض: «كان من الأفضل

أن أحضر هنا مبكرا بيوم حتى أستطيع رؤيتها».

أقول: «إذا حضرت مبكرا بيوم تستطيع رؤية الفتاة شوميي المتألقة الجديرة بالاحترام».

يقول: «هي دائما متألقة وتحظى بالاحترام والتقدير».

أقول: «حينما توجهت إلى أرض الراحة الأبدية كانت أكثر تألقا واحتراما وتقديرا، وترتدي تنورة طويلة تشبه فستان الزفاف، وتجرجر أذيال التنورة على أديم الأرض..».

يقول: «ليس عندها تنورة طويلة هكذا، ولم أرها ترتدي تنورة طويلة على هذا النحو».

أقول: «تلك التنورة الطويلة كانت في الأصل بنطالا رجاليا طويلا».

يقول في حزن وأسى: «أعرف، وقد قرأت على صفحة الفيسبوك أن بنطالها قد تمزق إرباً، وارتدت بنطال أناس آخرين».

أقول: «إنه رجل صالح قدم لها بنطالا لترتديه».

نمشي في صمت مطبق إلى الأمام، والأرض السهلية الفسيحة الشاسعة ما زالت على حالها، وجعلتنا نشعر بأن خطواتنا كأنها تدوس على أرض بكر.

ويسألني: «أتشعر شوميي بالسعادة؟، هل كانت مسرورة حينما ذهبت إلى قبرها وترتدي التنورة الطويلة؟».

أقول: «مسرورة جدا، تخشى فصل الربيع، تخاف أن جمالها يفسد ويتعفن، وكانت تشعر بسعادة غامرة لأنك اشتريت قبرا لها، وتستطيع أن تنعم بالراحة الأبدية، حيث إن فصل الربيع لم يأت بعد، وذهبت للراحة الأبدية وهي في كامل جمالها، وقلنا

إنها ليست مثل الذين يذهبون إلى القبر، بل إنها تشبه العروس في ليلة زفافها، والألم يعتصر في قلبها عندما سمعت ذلك، وتبكي في حزن وأسى».

يسأل: «لماذا تبكي؟».

أقول: «بكت لأنها تذكرت أنها تذهب إلى قبر الراحة الأبدية، ولا تذهب للزواج».

يشعر وو تشاو بحزن دفين، وعندما يمشي إلى الأمام يرفع يده اليمنى التي تتأرجح، كما يرفع يده اليسرى التي يمسك بها بطنه دائماً، ويكفكف عينيه بيديه تارة، ويمشي تارة أخرى.

يقول: «لا يجوز خداعها حقًا»، ويردف: «لا يجوز خداعها من خلال شراء الهاتف الخلوي المغشوش IPhone، وهي تتطلع بشغف إلى اقتناء ذلك الهاتف الخلوي، ويلوك لسانها بهذه الرغبة، وهي تعلم أنني تعوزني النقود ولا أستطيع شراء IPhone الحقيقي، وهي لا تملك سوى التطلع وبشوق إلى الهاتف الخلوي وتتحدث عنه دائماً وأبداً، ولا يتعين علي خداعها وأشتري لها بضاعة مغشوشة، وأعرف السبب وراء انتحارها، ولا يكمن في أنني اشتريت بضاعة مغشوشة، بل يكمن في خداعي لها».

يسبل يديه بعد أن كفكف عينيه، ويقول: «وإذا أخبرتها بأن الهاتف الخلوي ليس حقيقيا ويوجد في جعبتي النزر اليسير من النقود، ربما تشعر بالسعادة وتقفز في الهواء وتحتضنني، وهي تعرف أنني أبذل قصارى جهدي من أعماق قلبي. وهي تعاملني معاملة طيبة، وعاشت معي ثلاث سنوات، وعاشت أياما مرة في تلك السنوات. ونتشاجر دائما لأننا فقراء، وأستشيط غضبا في أغلب الأحيان، وأسبها وأضربها، ولا أستطيع تحمل

ذلك كله عندما أتذكره، ولا يجوز أن يتملكني الغضب، ولا يجوز أن ألعنها وأضربها، ونئن من وطأة الفقر مرة أخرى، ونتذوق مرارة العيش مرة أخرى، وهي لا تفارقني أبدا، وأضربها وأسبها، وهي تبكي بحزن ولا تفارقني أبدا، وأضربها وأسبها، وهي تبكي بحزن ولا تفارقني أبدا، وبعد البكاء ما زالت تعيش معي جنبا إلى جنب. ولديها شقيقة تعمل فتاة ليل في الملهى الليلي، وتصعد خشبة المسرح مساء كل يوم وتؤدي بعض الأعمال الفنية، وتكسب عشرات الآلاف في الشهر الواحد، وتود أن تعمل فتاة ليل في الملهى الليلي أيضًا، وتقول إذا عملت هناك بضعة أعوام وكسبت المال الكافي، ترجع معي إلى مسقط رأسي، ونبني بيتًا ونتزوج، وتقول إن أقصى أمانيها أن تتزوجني. وأنا لم أوافق. ومع ذلك، لا أتحمل أن يلمسها الرجال الآخرون، وقد ضربتها، وفي تلك المرة ضربتها حتى تورم وجهها، وهي تبكي وتصرخ وتريد أن تفارقني. وفي بكور اليوم التالي تحتضنني، وتخبرني بأنها تشعر بتأنيب الضمير نحوي، وتقول إنها لا تسمح للرجال الآخرين بأن يلمسوا جسدها إلى الأبد. وعندما تعاجلني المنية، فإنها لا تسمح لأي رجل أن يتحسس جسمها، وإنها تريد أن تكون أرملة. وأقول إننا لم نتزوج بعد، وحينما أرحل عن هذه الدنيا، لا يمكن أن تقولي إنك أرملة، وتقول إنني أهذي بالكلام، وحينما أنت تموت أصبح أنا أرملة. وفي شتاء العام المنصرم، الذي كان أكثر برودة عن هذا الشتاء، انتقلنا إلى ملجأ ضد الغارات الجوية تحت الأرض توا، وجيوبنا خاوية من النقود، ولم نحصل على عمل بعد، ونستلقي فوق الفراش طوال اليوم، ونحتسي فقط بعضاً من الماء الساخن، وهي تطلب الماء الساخن من الجيران، وعندما يأتي

الماء نتضـور جوعا ونتوتر أعصابنا، وتنزل من الفراش، وترتدي ملابسـها، وتقول إنها تدلف إلى الخارج، وتسـتجدي بعضا من الطعام. وأقول كيف تسـتجدين الطعام من الآخرين؟ تقول إنها تقف وتسـتجدي المارة، وأنا أرفض ذلك، وأقـول إن ذلك يعتبر تسـولاً. تقول: أنت لا ترغب في الاضطلاع بالاسـتجداء، إذن، ابق في مكانك على السرير، أما أنا فأستجدي بعضا من الطعام من أجلك. ولا أسـمح لها بالخروج، وأقول: أنا لا يمكن أن أكون متسـولا، وكذلك لا أسمح أن تكوني متسولة أيضا. وتقول كلانا يموت جوعا، وأنت لا تزال تهتم إذا كان تسـولا أم لا. وهي تصر على الخروج، واضطررت لأن أرتدي ملابسـي المحشوة بالريش وأتبعها ونخرج من ملجأ ضد الغارات الجوية. كان الجو بارد جدا في مساء ذلك اليوم، وتهب ريح عاتية وتقتحم رقبتي إلى صدري. وأنا وهي نقف في الشارع، وهي تقول للمارة: لم نأكل شيئا طوال اليوم، يمكن أن تعطوني النزر اليسـير من المال. ولم يعرها أحد اهتماما، ونحن نقف وسـط الريح الباردة أكثر من ساعة، وتقول إنها لا تسـتطيع هكذا أن تستجدي الطعام، يجب الوقوف خارج باب مطعم والانتظار هناك. وتسـحب يدي، ونمشـي في خضم قسـاوة برودة الريح حتى نصل إلى مخبز مشـرق، كما تسحب يدي ونمشي ونعود مرة أخرى، وتطلب مني أن أقف في الخارج، وتدلف إلى الداخل، وأشـاهدها عبر الزجاج الشـفاف تمشـي أولا إلى الكونتر، وتتحدث مع الندل الذين يطأطئون رؤوسـهم، كما تمشـي إلى أمام رهط من الأشخاص الذين يجلسون هناك يأكلون الخبز ويحتسـون الماء السـاخن، ويتحدثـون معها بضع كلمات، ويهزون رؤوسـهم أيضًا. وأدرك أنهم يرفضون إعطاءها

خبزا، وتدلف إلى الخارج وكأن شــيئا لم يحدث، وتسحب يدي، ونمشي إلى مدخل مطعم يبدو فخما جدا، تقول نحن ننتظر هنا، وعندمــا يخرج الزبائن بعد أن تناولوا الطعام، وفي أياديهم علب بقايــا الطعام، وتطلب منهم علبة. وفي هذه الأثناء، كنت أشــعر بالجوع، كما أشــعر بالبرد أيضا، وأقف مرتعشا غير ثابت وسط الريح شــديدة البرودة، ويبدو أنها لا تشــعر بالبرد ولا بالجوع، وتقــف هناك تترقب خروج الزبائن فــي جماعات، ولم تر أحدا منهــم يحمل في يده علبة بقايا الطعام، بل شــاهدت فقط أنهم يستقلون السيارات الفارهة التي تأتي الواحدة تلو الأخري. وذلك المطعــم فاخر جدا، وزبائنه جميعهم من الأثرياء الذين لا يعبّئون بقايا الطعام في علب. وبعد ذلك، كان هناك رجل يشــبه التاجر تماما يودع بضعة من الأفراد الذين يشــبهون المســؤولين تماما، يقــف أمام مدخــل المطعم ويتصل هاتفياً بســائقه، وتتقدم إليه وتخاطبه: نحن لم نأكل شــيئا طوال اليوم، ونحن لا نريد طعاما، ولا نريــد نقودا، نطلب فقط أن تغمدنــا بطيبة قلبك ورحمتك، وتذهب إلى المخبز المجاور وتشــتري لنا رغيفين من الخبز. يغلق ذلك الرجل التاجر في منتصــف العمر هاتفه الخلوي، ويحملق في معالــم وجهها، ويقول أنت جميلة هكذا، وتحتاجين رغيفين؟ ويقــول إن الجمــال لا يمكن أن يصبح خبزا نأكله، يبتســم ذلك الرجل ويقول إن الجمال في الواقع لا يمكن أن يكون خبزا، ولكن الجمال رأس مال غير مرئي. تقول: رأس المال الذي لا تراه العين يكــون زائغاً، بينما بالخبز يكون حقيقة ماثلة. يصدر ذلك الرجل صوت آه، ويخاطبها قائلا: أنت جميلة، وذكية أيضا، أنت تمشين معي، وتتبعينني وتستطيعين أن تأكلي كل ما تشتهين. تدير رأسها

وتشـير إلي، وتقول: إنه يشـاطرني حياتي. يحملق ذلك الرجل في وجهي، وتعابيـر عينيه تبدو كأنها تتكلم، ويقول: ذلك الغلام الحقير الفقير.

تأتـي سـيارة ذلك الرجـل في منتصـف العمر مـن ماركة «مرسـيدس»، ويفتح باب السـيارة ويخاطب السائق في الداخل ويطلـب منـه أن يذهب إلى ذلك المخبز ويشـتري أربعة أرغفة. ينزل السـائق من السيارة، ويعدو إلى المخبز عدوا وئيدا، ويدوي صـوت رنين الهاتف الخلوي لذاك الرجل الذي يسـتقبل المكالمة الهاتفية. يشـتري سـائقه الخبز ويعود مهرولا، يتصل بالهاتف الخلوي تارة، ويتحدث إلى سـائقه تارة أخـرى، ويطلب منه أن يعطي لهما الخبز.

يسـلمها السائق كيسـا ورقيا معبأ داخله أربعة أرغفة، وهي تتقـدم بالشـكر والامتنان لذلـك الرجل الذي يركب سـيارته المرسيدس وتنطلق به. تمد يدها إلى داخل الكيس، وتكسر قطعة من الخبز السـاخن الذي خرج توا وتدسـها في فمي، كما تضع لباسـها داخل ذلك الكيس أيضا، يدها من جليد تسـحب يدي الباردة، وتقول لي: نعود أدراجنا ونأكل الخبز.

نعود أدراجنا إلى مسـكننا تحت الأرض، وتطلب كوبا من الماء السـاخن من الجيران أيضا، ونحن الاثنان نجلس على السرير، وتطلب مني أن أرتشـف رشـفة من الماء السـاخن، ثم بعد ذلك آكل الخبز، وهي تخشـى أن يحدث لي غصة. وهي في نشوة من الفرح كأنها لم تعد مهمومة بالطعام والشراب من الآن فصاعدا. وانفجرت في البكاء بحزن وألم بصورة فجائية حينما كنت أتناول الخبز، وألتهم دموعي في داخلي، وأزدرد الخبز في فمي، وأقول

لهـــا يجب علينا أن نفترق، وألا تتبعيني وتعيشـــي حياة الشـــقاء والعذاب. تضع قطعة الخبز التـــي كانت تأكلها، وتنهمر دموعها كالشـــلال، وتخاطبني قائلـــة: لا تفكر أن تتركنـــي وراء ظهرك، وعلاقتـــي بك قائمة معك طوال حياتـــي، وحينما أموت وأصبح شبحا، فإن علاقتي لا تنقطع معك أبدا.

هي جميلة وحسناء، وهناك كثر يخطبون ودها، وهم يكسبون نقـــودا أكثر مني، ولكـــن هي مصممة على رأيهـــا وتلازمني في أيـــام الفقر. وقد تجأر بالشـــكوى في بعض الأحايين، وتشـــتكي أنها تصطحب رجلا لا يحقق آمالها، ولكن تكتفي بالكلام فقط، وبعد أن تجيش بما يعتمل في داخلها تنســـى أنها تعيش مع رجل بلا أمل».

ترتســـم ابتسامة على وجه وو تشاو، وقد قطعنا شوطا طويلا من الطريق، ولا تزال الأرض الســـهلية المترامية الأطراف تساور الجهات الأربع، وما زلنا نسير في وحدة وعزلة. وبدأت الابتسامة على وجه وو تشاو تكون سعيدة ومريحة، وبدأ يسرد مشهد لقائه الأول مع شومي:

«عندمـــا رأيتها للوهلة الأولى منذ ثلاث ســـنوات خلت، كانت عاملة غســـيل الشـــعر في كوافير، وعند عبوري الشارع، ألقيت نظرة عابرة علـــى الكوافير ورأيتها (شـــومي) تقف أمام الباب تســـتقبل الزبائن، كمـــا نظرت إلي بصورة عابـــرة، ويقفز القلب بين ضلوعي آنذاك، ولم أر فتاة جميلة هكذا، وأشعر بأن روحها تجذبها من داخلي عندما تنظر إلي بعينيها، ومشـــيت إلى الأمام أكثر من عشـــرين مترا، ولم أستطع المضي قدما إلى الأمام مرة أخرى، وهي لا تزال واقفة أمام الباب، وعندما رأيتها ألقت علي

نظرة عابرة جعلت نبضات قلبي تقفز بسرعة جدا، وترددت فترة قصيرة أيضًا بعد عودتي إلى هناك، ورجعت مرة أخرى، وكانت الفتاة الواقفة آنذاك أمام الباب لاستقبال الزبائن ليست شوميي. إنها تغسل الآن شعر أحد الزبائن في داخل الكوافير، وشاهدت وجهها يسطع في المرآة من خلال الزجاج الشفاف، وعيونها في المرآة تراني، وفي هذه المرة حملقت في وجهي فترة قصيرة. وبعد أن ذرعت المكان حول ذلك الكوفير ذهاباً وإيابا، استجمعت شجاعتي ودلفت إلى الداخل، وتعتقد الفتاة أمام الباب أنني أبغي قص شعري، وتخاطبني قائلة يشرفنا حضوركم، وأسألها بصوت مرتعش: أين المدير؟ يقول رجل يقف خلف كونتر المدفوعات النقدية: أنا المدير. وأسأله: هل تحتاج عاملاً يغسل الشعر هنا؟ ويجيب: لا نحتاج الآن، والكوافير الذي أمامنا يبحث الآن عن عامل غسيل الشعر، اذهب إلى هناك.

أنصرف من ذلك الكوافير، والصرامة تعلو وجهي، ولا أجرؤ على أن أنظر إلى عيون شوميي، ومشيت في الشارع وقتا طويلا، ولا أستطيع بأي حال من الأحوال أن أنسى عيون شوميي، وبعد انقضاء يومين، استجمعت قوتي مرة أخرى، ودخلت وأسأل ذلك المدير إذا كان يحتاج عاملاً يغسل الشعر أم لا؟ ولا يزال المدير يقترح أن أذهب إلى الكوافير في الجهة المقابلة. وذهبت أربع مرات في غضون شهر بعد ذلك. وشعرت بأن شوميي تحملق في وجهي بمجرد دخولي. وفي المرة الرابعة، وعندما دخلت إلى هناك تزامن ذلك مع استقالة عامل غسيل الشعر، ومن حسن حظي أنني قمت بعمله. كما حملت رقمه في العمل وهو (7). وفي ذلك الحين، شوميي تحملق في وجهي وتبتسم من زاوية فمها المائل.

وفــي مســاء ذاك اليوم الذي تســلمت فيه العمــل في ذلك الكوافيــر، كان عدد الزبائن الذين يقصون شــعرهم غير كبير، وشومي تجلس على الكرســي وتقلب صفحات مجلة «فن قص الشــعر»، تطالع صفحات المجلة تارة، وترفع رأســها وتنظر إلى نفســها في المرآة حيث يتطاير شعرها وكأنها تبحث لنفسها عن أجمل تسريحة شــعر، وأجلس على كرسي بجوارها لأنني أشعر بالتوتر، وألهث بســرعة وبقوة، وتدير شــومي وجهها وتسألني: هــل أنت مصاب بمرض الربو؟ أطأطئ رأســي بســرعة وأقول لســت مصابا بالربو، وتقول شــومي: أنت تلهث بصوت غريب يبث الخوف في نفوس الآخرين.

أجلس بجوارها وأشــعر بالتوتر أكثر فأكثر، وأخشى أن يكون صوت لهاثي يشبه الربو، وأتنفس بحذر شديد كأنني على وشك الاختنــاق، وهي ما زالت تقلب صفحات مجلة فن قص الشــعر وتصمم بنفســها أنواعا جديدة من تســريحات الشعر المختلفة، وأســتجمع قوتي وأســألها: ما اســمك؟ لا ترفع رأســها أيضا وتجيب: الرقم (3). ويبدو صوتها باردا فاترا، وشــعرت بالحزن الشــديد، ولكن بعد فترة قصيرة ترفع رأسها وتحملق في وجهي وتبتســم وتسألني: ما اســمك؟ أقول في اضطراب: الرقم (7). تبتســم وتســألني مرة أخرى: ما اســم الرقم (7)؟ وأكاد أتذكر اســمي توا، وأقول: الرقم (7) اســمه وو تشــاو، تغلق صفحات المجلة وتخاطبني: رقم (3) اسمها ليوميي».

يتوقف وو تشــاو فجأة، وتتوقف خطواته إلى الأمام، ويسرح نظره في الأمام، وتبدو علائم الاســتغراب والدهشة على وجهه، ويرى المشهد الذي رأيته هنا من: تدفق المياه، والأعشاب الخضراء

التي تنتشـــر على أديم الأرض، والأشجار ناضرة الزهرة، وتغص أغصان الأشــجار بالثمار ذات النوى، وأوراق الأشــجار تشــبه القلب تماما، وعندما تهتز وتتمايل تشــبه نبضات ودقات القلب. وهنـــاك كثرة كاثــرة من الناس، وعدد كبيـر من البشـــر من ذوي سائر الهياكل العظمية، ناهيك عن بعض البشر من ذوي الأجسام السليمة التي تذرع المكان هناك جيئة وذهابا.

يدير جسمه نحوي في دهشة وذهول، وتعابير الشك والحيرة كأنهــا توجه إلي الأســئلة. وأقول له: امــش، توجد هناك أوراق أشجار تلوح إليك بيدها، وهناك حجر يبتسم في وجهك، وهناك مياه نهــر تقدم لك التحيــة. ولا يوجد هناك فقــر وبؤس، كما لا توجــد الثــروة والجاه، لا توجد أحزان، كمــا لا توجد آلام، لا يوجد حســد، ولا توجد كراهية أيضا.. البشر هناك ماتوا وهم على قدم المساواة.

ويسأل: «أي مكان يوجد هناك؟».

أقول: «هناك توجد أرض الأموات الذين لم يدفنوا».

المترجم في سطور

أ. د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

- من مواليد عام 1959 - المنصورة - جمهورية مصر العربية.
- اختصاصي بالصينولوجيا عن دراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية.
- رائد الدراسات الصينية في الشرق الأوسط.
- مؤسسة مدرسة الترجمة من الصينية إلى العربية.
- صاحب المركز السادس عالميا في مجال الدراسات الصينولوجية منذ عام 2010.
- المترجم الأول للكتب والمؤلفات باللغة الصينية.
- رئيس قسم اللغة الصينية بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- رئيس شعبة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- مؤسس مجلس الأعمال المصري الصيني المشترك في العاصمة الصينية بكين في عام 2002.
- له عشرات المقالات الصحافية والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية لمختلف قنوات الإذاعة والتلفزيون، ونشر سلسلة من المقالات والدراسات والأطروحات، وكتابة سلسلة من الدراسات السياسية حول الصين، والمشاركة في إقامة العديد من الندوات والمؤتمرات الصحفية والإعلامية في مصر والصين.
- له العديد من الكتب المترجمة، مثل: مسرحية (شروق الشمس)، سلسلة من المسرح العالمي - الكويت - العدد 244. كتاب (الصينيون المعاصرون)، سلسلة عالم المعرفة - الكويت - الجزءان الأول والثاني العددان 210 و211. مسرحية (المقهى): مشروع الترجمة - المجلس الأعلى للثقافة - العدد 479، وكذلك سلسلة إبداعات عالمية - الكويت - العدد 354.
- له عدة إصدارات في مشروع «كلمة».
- ألف الكثير من الكتب منها: كتاب (التجربة الصينية)، إصدار أم القرى للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة عام 1997. وكتاب (المسلمون في الصين)، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة 2005.

المراجعة في سطور

لي جيه

- من مواليد بكين - جمهورية الصين الشعبية في العام 1966.
- حصلـــت على بكالوريـــوس الطب والجراحة مـــن كلية طب العاصمـــة بكين، الصين الشعبية.
- من مسلمي جمهورية الصين الشعبية.
- تعلمت اللغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية، القاهرة.
- تـــدرس صوتيات اللغة الصينية وآدابها بقســـم اللغة الصينية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- خبيرة الدراســـات الإســـلامية باللغة الصينية - شعبة الدراسات الإسلامية في كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

ما صدر من هذه السلسلة

العدد	العنوان	المؤلف
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيفو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

الرقم	العنوان	المؤلف
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو منديس

ما صدر من هذه السلسلة

398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إنِّي أتعافى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِينوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينريش هاينه
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون



البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	20	-
الأفراد داخل الكويت	10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	10	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	24	-
الأفراد في دول الخليج العربي	12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	12	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	-	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	-	25
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	-	100
الأفراد خارج الوطن العربي	-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	-	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقداً/ شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



يو هوا

ولد في مدينة هانتشو بالصين الشعبية في العام 1960.
عمل طبيب أسنان. ثم التحق بقسم الأدب في جامعة المعلمين في بكين. وبدأ الإبداع الأدبي والتأليف في العام 1983.
كتب خمس روايات طويلة وست روايات متوسطة. ومن أهم أعماله: «مسافر في الثامنة عشرة من عمره». و«خطايا على ضفة النهر». و«هتاف وسط الأمطار». و«الأشقاء». و«اليوم السابع».
تُرجمت بعض أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية. ونشرت في أكثر من ثلاثين دولة.
حصل على العديد من الجوائز منها: الجائزة الايطالية «جرين زانا كافور» (1998). وجائزة «فارس» الفرنسية (2004). وجائزة كتب الصين للمساهمة الخاصة (2005). والجائزة الفرنسية للرواية الأجنبية (2008).

اليوم السابع

رواية «اليوم السابع» هي حلقة متصلة من حلقات وصف عذابات الإنسان في هذا العصر. كتبها الأديب الصيني يو هوا خلال رحلته التعيسة في مسار جحيم الدنيا وجحيم الآخرة. إنها رواية «الآلام والأوجاع» التي تئن من وطأتها كافة النماذج البشرية في المجتمع الصيني المعاصر بأسره.

الرواية تسرد قصة بطلها ويدعى "يانغ فيي". يحكي كل ما رآه وسمعه في سبعة أيام بعد وفاته. ويفشي كل مكنونات صدره وعذابه وشقائه في حياته. ففي اليوم الأول من مماته. يتوجه إلى «مؤسسة الخدمات الجنائزية». ولا يستطيع أن يحرق جسده. لأنه يفتقر إلى قبر يواري جثته. ويمشي الهويني في «أرض الأموات الذين لم يدفنوا». وهناك يقابل بشراً من كافة الأصناف والأطياف يرزحون تحت وطأة المشاعر الكئيبة والأحاسيس الحزينة مثل: الفتاة (شومي) التي تنتحر بعد أن خدعها صديقها واشترى لها هاتفا خلويا مغشوشا. ويبيع صديقها (وو تشاو) كليته من أجل أن يشتري لها قبرا. ثم تعاجله المنية بعد أن أصابه التلوث من جراء استئصال الكلية.

عندما نطالع صفحات الرواية ونلتقي بالأموات الذين لم يدفنوا في العالم الآخر. سنحظى بسويعات تسمو فيها نفوسنا. ويصقل وجداننا. وقد يطوف طائف من الحزن. وتظفر الدموع من عيوننا. ولكننا مع ذلك نشعر بتسامي عواطفنا. وتحليق عقولنا. وصفاء خواطرنا. وكأننا قد نقلنا إلى عالم آخر أكثر عدالة. وأكثر طهارة. وأكثر إثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول.

على هذا النحو. نشعر بالعطف نحو كاتبنا ونحنو عليه لأنه يفتح لنا مغاليق قلبه. ويفضي إلينا بدخائل نفسه. فقد أكمل الدائرة بين الموت والحياة. وحقق أقصى ما يصبو إليه من تقدير الحقائق. وتحري الوقائع. ودراسة المشكلات الاجتماعية التي تتحدى المجتمع المعاصر في الصين. وتوهج قلمه في سناه الباهر في سعيه نحو الكمال الإنسان.

ISBN: 978-99906-0-502-0

إبداعات عالمية